عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

مقدمة ابن خلدون

وهي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

بتحقيق

المستشرق الفرنسي

أ . م . كاترمير

عن طبعة باريس سنة 1858

المجلد الأول

مكتبة لبنان

علي مولا



A New Collection of Dictionaries

Al-Khalil
A Dictionary of Arabic Grammar Terminology
Dr. Georges M. Abdul Massih and Hani G. Tabri

•

A Dictionary of Arabic Verb Conjugation
Ambassador Antoine El-Dahdah

•

A Contextual Arabic Dictionary
(Arabic - Arabic)
Dr. M. E. Sieny and H.H. Yusuf

•

Al-Kamel Al-Rafed
(French - Arabic)
Dr. Youssef M. Reda

•

A Dictionary of Arabic Proverbs
(Arabic - Arabic)
Dr. M. Sieny - N. Abdul Aziz - M. Sulaiman

•

A Dictionary of Social Life Vocabulary In the works of the Mu'allaqat Poets
Dr. Nada Ash-Shaye'

•

Al-Mustalah
A Dictionary of Computer Science
(English - Arabic)
Antoine Butros and Nicolas Sheih

•

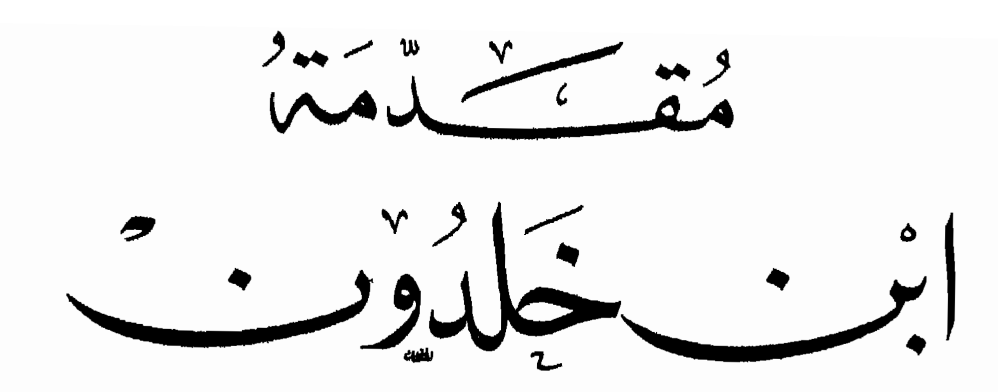
A Dictionary of Proverbs
(English - Arabic)
Dr. Taiseer Kilani and Naim Ashour

•

A Dictionary of Arabic Words in Maltese
(Arabic - Maltese)
Dr. Ahmad T. Sulaiman

رقم الكتاب 01 R 160110

مقدّمة ابن خلدون



وهي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر ...

تأليف

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

بتحقيق

المستشرق الفرنسي

ا . م . كاترمير

عن طبعة باريس سنة ١٨٥٨

المجلد الأول



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت

١٩٩٢

طبع في لبنان

رقم الكتاب 01 R 160110

مقدمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES
D'EBN-KHALDOUN

TEXTE ARABE

PUBLIÉ, D'APRÈS LES MANUSCRITS DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE,

PAR M. QUATREMÈRE.

TOME PREMIER. — PREMIÈRE PARTIE.



PARIS.
BENJAMIN DUPRAT,
LIBRAIRE DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,
RUE DU CLOÎTRE SAINT-BENOÎT, 7.
M DCCC LVIII.

Tirage à part des *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque impériale*, publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

PARIS. — TYPOGRAPHIE DE FIRMIN DIDOT FRÈRES FILS ET Cie,
IMPRIMEURS DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,
rue Jacob, 56.

مقدّمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KHALDOUN.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على
سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا

يقول العبد الفقير الى رحمة ربّه الغنى بلطفه عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمى وفّقه الله تعالى الحمد لله الذى له العزّة والجبروت وبيده الملك والملكوت وله الاسماء الحسنى والنعوت العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى او يخفيه السكوت القادر فلا يعجزه شئ فى السموات والارض ولا يفوت انشأنا من الارض نسما واستعمرنا فيها اجيالا واما ويسر لنا منها ارزاقا وقسما تكنفنا الارحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الايام والوقوت

وتَعْتَوِرُنا الآجال التى خط علينا كتابها الموقوت وله البقا والثبوت وهو الحىّ الذى لا يموت والصلاة والسلام على سيّدنا محمد النبى العربى المكتوب فى التورية والانجيل المنعوت الذى تمخض لفصاله الكون قبل ان تتعاقب الآحاد والسبوت ويتباين زحل والبهموُت وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت وعلى آله واصحابه الذين لهم فى محبّته واتباعه الاثر البعيد والصيت والشمل الجميع فى مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت صلى الله عليه وعليهم ما اتّصل للاسلام جدّه المبخوت وانقطع بالكفر حبله المبتوت وسلّم كثيرا (اما بعد) فان فنّ التاريخ من الفنون التى تتداوله الامم والاجيال وتشدّ اليه الركايب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال وتتساوى فى فهمه العلماء والجهّال اذ هو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول تنمق لها الاقوال وتصرف فيها الامثال وتطرف بها الاندية اذا غصّها الاحتفال وتودى لنا شان الخليقة كيف تقلّبت بها الاحوال واتّسع للدول النطاق فيها والمجال وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكاينات ومباديها دقيق وعلم بكيفيّات الوقايع واسبابها عميق فهو لذلك اصل فى الحكمة عريق وجدير بان يعدّ فى علومها وخليق وان فحول المورّخين فى الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها فى صفحات الدفاتر

واودعوها وخلطها المتطفّلون بدسايس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها وزخرف من الروايات المصعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا اسباب الوقايع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح فى الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق فى الادميين وسليل والتطفيل على الفنون عريض طويل ومرعى الجهل بين الانام وبيل والحقّ لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل انما هو يُملى وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل هذا وقد دوّن الناس فى الاخبار واكثروا وجمعوا تواريخ الامم والدول فى العالم وسطروا والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامامة المعتبرة واستفرغوا دواوين من قبلهم فى صحفهم المتاخرة فهم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل ولا حركات العوامل مثل ابن اسحق والطبرى والكلبى ومحمد بن عمر الواقدى وسيف بن عمر الاسدى والمسعودى وغيرهم من المشاهير والمتميّزين عن الجماهير وان كان فى كتب المسعودى والواقدى من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ومشهور بين الحفظة والثقات الا ان الكافة اختصوهم بقبول اخبارهم واقتفا سننهم فى التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قسطاس نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم

فللعمران طبايع فى احواله يرجع اليها الاخبار وتحمل عليها الروايات والآثار ثم ان اكثر التواريخ لهولاء عامة المناهج والمسالك لعموم الدولتين صدر الاسلام فى الآفاق والممالك وتناولها البعيد من الغايات فى المآخذ والمتارك ومن هولاء من اوعب ما قبل الملة من الدول والامم والامر العمم كالمسعودى ومن نحا منحاه وجاء بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف فى العموم والاحاطة عن الشاو البعيد فقيّد شوارد عصره واستوعب اخبار افقه وقطره واقتصر على احاديث دولته ومصره كما فعل ابن ابو حيان مورّخ الاندلس والدولة الاموية بها وابن الرقيق مورّخ افريقية والدولة التى كانت بالقيروان لم يات من بعد هولاء الا مقلّد وبليد الطبع والعقل او متبلد ينسج على ذلك المنوال ويحتذى منه بالمثال ويذهل عما احالته الايام من الاحوال واستبدلت به من عوايد الامم والاجيال فيجلبون الاخبار عن الدول وحكايات الوقايع فى العصور الاول صورا قد تجردت عن موادّها وصفاحا انتضيت من اغمادها ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها انما هى حوادث لم تعلم اصولها وانواع لم تعتبر اجناسها ولا تحققت فصولها يكررون فى موضوعاتها الاخبار المتداولة باعيانها اتباعا لمن عنى من المتقدمين بشانها ويغفلون امر الاجيال الناشية فى ديوانها بما اعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم صحفهم (1) عن

(1) Manusc. B. مجتهم; manusc. C. صحفهم.

بيانها ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا اخبارها نسقا محافظين على نقلها وهما او صدقا لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذى رفع من رايتها واظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعا بعد الى مبادى الاحوال ومراتبها مفتشا عن اسباب تراجمها او تعاقبها باحثا عن المقنع فى تباينها او تناسبها حسبما نذكر ذلك كلّه فى مقدمة الكتاب ثم جاء اخرون بافراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء باسماء الملوك والاقتصار مقطوعة عن الانساب والاخبار موضوعة عليها اعداد ايامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيق فى ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل وليس يعتبر لهولاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما ذهبوا بالفوايد واخلوا بالمذاهب المعروفة للمورّخين والعوايد ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الامس واليوم نبهت عين القريحة من سِنَة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسى وانا المفلس احسن السوم فانشاءت فى التاريخ كتابا رفعت فيه عن احوال الناشئة من الاجيال حجابا وفصلته فى الاخبار والاعتبار بابا بابا وابديت فيه لاولية الدول والعمران عللا واسبابا وبنيته على اخبار الجيلين الذين عمروا المغرب فى هذه الاعصار وملؤا اكناف الضواحى منه والامصار وما كان لهم من الدول الطوال والقصار ومن سلف لهم من الملوك والانصار وهما العرب والبربر اذ هما الجيلان الذان عرف بالمغرب ماواهما وطال فيه على الاحقاب

مثواها حتى لا يكاد يتصوّر عنه (1) منتواهما (2) ولا يعرف اهله من اجيال الادميين سواها فهذبت مباحثه تهذيبا وقربته لافهام العلماء والخاصّه تقريبا وسلكت فى تبويبه وترتيبه مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة واسلوبا وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من الاعراض الذاتية ما يمتعك بعلل الكواين واسبابها ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع من التقليد يدك وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال وما بعدك ورتبته على مقدّمة وثلاثة كتب (المقدّمة) فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المورّخين (الكتاب الاول) فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنايع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب (الكتاب الثانى) فى اخبار العرب واجيالهم واولهم منذ مبداء الخليقة الى هذا العهد وفيه الالمام ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرايل والقبط ويونان والترك والروم (الكتاب الثالث) فى اخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم لما كانت الرحلة الى

(1) Man. A. من.

(2) Man. C. منشواهما.

المشرق لاجتلاء انواره وقضاء الفرض (1) والسنّة فى مطافه ومزاره والوقوف على آثاره فى دواوينه واسفاره فافدت ما نقصنى من اخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار واتبعت بها ما كتبته فى تلك الاسطار وادرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من امم النواحى وملوك الامصار منهم والضواحى سالكا سبيل الاختصار والتلخيص مفتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب (2) اخبار الخليقة استيعابا وذلّل من الحكم النافرة صعابا واعطى لحوادث الدول عللا واسبابا واصبح للحكمة صِوَانا وللتاريخ جرابا ولما كان مشتملا على اخبار العرب والبربر من اهل المدر والوبر والالمام بمن عاصرهم من الدول الكبر وافصح بالذكرى والعِبَر فى مبادى الاحوال وما بعدها من الخبر (3) سميته كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ولم اترك شيا فى اولية الاجيال والدول وتعاصر الامم الاول واسباب التصرف والحول (4) فى القرون الخالية والملل وما يعرض فى العمران من دولة وملّة ومدينة وحلّة وعزّة وذلّة وكثرة وقلّة وعلم وصناعة وكسب واضاعة واحوال منقلبة مشاعة وبدو وحضر

(1) Man. B. الغرض.

(2) Man. B. استوعبت.

(3) Man. A. المخبر.

(4) Man. B. الخول. C. الجول.

وواقع ومنتظر الا واستوعبت جمله واوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذّا بما ضمنته من العلوم الغريبة والحِكم المحجوبة القريبة وانا من بعدها موقن بالقصور بين اهل العصور معترف بالعجز عن المضا فى مثل هذا القضا راغب من اهل اليد البيضاء والمعارف المتّسعة الفضاء فى النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتعمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضا فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى من الاخوان مرتجاة والله اسال ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه وهو حسبى ونعم الوكيل

(المقدّمة) فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بما يعرض للمورّخين من المغالط والاوهام وذكر شئ من اسبابها

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفايدة شريف العايدة(1) اذ هو يقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم والانبياء فى سِيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فايدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتد (2) فيها مجرّد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى الاجتماع الانسانى ولا قيس الغايب منها

(1) Man. C. الغاية.

(2) Man. B. اعتمد. C. اعتبر.

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمورّخين والمفسرين وايمّة النقل الهغالط فى حكايات الوقايع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولاسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبايع الكاينات وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط سيما فى احصاء الاعداد والاموال والعساكر اذا عرضت فى الحكايات اذ هى مظنّة الكذب ومطية الهذر ولا بدّ من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودى وكثير من المورّخين فى جيوش بنى اسرائيل وان موسى عليه السلام احصاهم فى التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستماية الف او يزيدون ويذهل فى ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش فلكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظايفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوايد المعروفة والاحوال المالوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى هذا العدد يبعد ان يقع بينها زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين وثلاثا او ازيد فكيف يقتتل هذان الفريقان او تكون غلبة احد الصفين وشى من جوانبه لا تشعر بالجانب الاخر والحاضر يشهد لذلك فالماضى

اشبه بالآتى من الماء بالماء ولقد كان ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير يشهد بذلك ما كان من غلب بخت نصر لهم والتهامه بلادهم واستيلايه على امرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملّتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب اوسع من ممالك بنى اسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه واعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين الفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا فى اتباعهم اكثر من مايتى الف وعن عايشة والزهرى ان جموع رستم التى زحف بها لسعد بالقادسية انها كانوا ستين الفا كلهم متبوع وايضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتّسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك فى الدول على نسبة الحامية والقبيل القايمين بها فى قلتها وكثرتها حسبما يتبين فى فصل الممالك من الكتاب (1) والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وايضا فالذى بين موسى واسرائيل انما هو ثلاثة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن قاهت بفتح الها او كسرها بن لاوى بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو

(1) Le man. C. ajoute الاول.

اسرائيل الله هكذا نسبه فى التورية والمدة بينهما على ما نقله المسعودى قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين اتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مايتين وعشرين سنة يتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد ان يتشعب النسل فى اربعة اجيال الى مثل ذلك العدد وان زعموا ان عدد تلك الجيوش انما كان فى زمن سليمان عليه السلام ومن بعده فبعيد ايضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا احد عشر اباء فانه سليمان بن داود بن ايشاى بن عوبد ويقال عوفذ بن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عَمِيناذاب ويقال حميناذب بن رام بن حضرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل فى احد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذى زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون واما ان يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك فى الحاضر الشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا والذى ثبت فى الاسرايليات ان جنود سليمان كانت اثنى عشر الفا خاصة وان مقرباته كانت الفا واربعماية فرس مرتبطة على ابوابه هذا هو الصحيح من اخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم وفى ايام سليمان عليه السلام كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من اهل العصر اذا افاضوا فى

الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم او قريبا منه وتفاوضوا
في الاخبار عن جيوش المسلمين والنصارى او اخذوا في احصاء
اموال الجبايات وخرج السلطان ونفقات المترفين وبضايع الاغنياء
الموسرين توغّلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوايد وطاوعوا وساوس
الإغراب فاذا استكشف اصحاب الدواوين عن عساكرهم
واستنبطت احوال اهل الثروة في بضايعهم وفوايدهم واستجلبت
عوايد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشارما يعدونه وما ذلك
الا لولوع النفس بالغرابة وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة عن
المعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطا ولا عمد
ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث
وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويشتري
لهو الحديث ليضل عن سبيل الحق وحسبك بها صفقة خاسرة
وقد يقال ان العوايد انها تمنع من نمو الذرية الى مثل (1) هذا العدد
في غير بني اسرائيل لان ذلك كان معجزة على ما نقل انه كان
فيما اوحى الى آبايهم من الانبياء ابراهيم واسحق ويعقوب صلوات
الله عليهم ان الله يكثر ذريتهم حتى يكاثر نجوم السماء وحصى
الارض وانجز الله لهم هذا الوعد كرامة لهم ومعجزة خارقة للعادة
في حقّهم فلا تعترضه العوايد ولا يطعن فيه احد وان عارض احد
بالطعن على خبر ذلك وانه انما ورد في التورية واليهود قد

(1) Man. A. نسل.

بدلوها على ما هو معروف فالقول بهذا التبديل مرجوح عند المحققين وليس على ظاهره لان العادة مانعة من اعتماد اهل الاديان ذلك فى صحفهم الالهية كما ذكره البخارى فى صحيحه فيكون هذا النمو الكثير فى بنى اسرائيل معجزة خارقة للعادة وتبقى العادة مانعة من ذلك فى غيرهم على حكم دلالتها واما استبعاد الزحف بينهم فصحيح لكنه لم يقع ولم تدع اليه حاجة واختصاص كل مملكة بعددها من الحامية صحيح وبنو اسرائيل لم يكونوا اولا حامية ولم يكن لهم دولة وانما نموا هذا النمو ليستولوا على ارض كنعان التى وعدهم الله بها وطهر لهم بقعتها وكل هذه معجزات والله الهادى الى الحق (ومن الاخبار الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة فى اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب انهم كانوا يغزون من قرارهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب والى الترك وبلاد التبت من بلاد المشرق وان افريقس (1) بن قيس بن صيفى من اعاظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام او قبله بقليل غزا افريقية واثخن فى البربر وانه الذى سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فاخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من يوميذ وانه لما انصرف عن المغرب حجز هناك قبايل من حمير فاقاموا بها فاختلطوا باهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى

(1) Man. A. امرنقس. Man. B امرنفس.

والمسعودى وابن الكلبى والبيهقى الى ان صنهاجة وكتامة من حمير وياباه نسابة (1) البربر وهو الصحيح وذكر المسعودى ايضا ان ذا لاذعار من ملوكهم بعد افريقس وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوّخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وانه بلغ وادى الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون فى تبع الآخر وهو اسعد ابو كرب وكان على عهد يستاسب من ملوك الفرس الكينية انه ملك الموصل واذربيجان ولقى الترك فهزمهم واثخن فيهم ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وانه بعد ذلك اغزا ثلاثة من بنيه الى بلاد فارس والى بلاد الصغد من امم الترك ورآء النهر والى بلاد الروم فملك الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد اخاه الثانى الذى غزا الى الصغد قد سبقه اليها فاثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنايم وتركوا ببلاد التبت قبايل من حمير فهم بها لهذا العهد وبلغ الثالث الى قسطنطينية فحاصرها ودوّخ بلاد الروم ورجع وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحّة عريقة فى الوهم والغلط واشبه باحاديث القصاص الموضوعة وذلك ان ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من

(1) Man. A. نسبة.

الشرق وبحر السويس الهابط منه ايضا الى السويس من اعمال مصر من جهة المغرب كما تراه فى مصوّر الجغرافيا فلا يجد السالك من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامى قدر مرحلتين فما دونها ويبعد ان يمرّ بهذا المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير ان تصير من اعماله هذا ممتنع فى العادة وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو اسرائيل الشام ولم ينقل قط ان التبابعة حاربوا احدا من هولاء الامم ولا ملكوا شيا من تلك الاعمال وايضا فالشقّة من اليمن الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا فى غير اعمالهم احتاجوا الى انتساف الزروع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرّون عليه ولا يكفى ذلك للازودة والعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من اعمالهم فلا تفى لهم الرواحل بنقله فلا بد وان يمرّوا فى طريقهم كلها باعمال قد ملكوها ودوّخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمرّ بهولاء الامم ولا تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك ايضا ابعد واشدّ امتناعا فدلّ على ان هذه الاخبار واهية او موضوعة واما وادى الرمل الذى يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره فى المغرب على كثرة سالكه ومن نقص طرقه من الركاب والغُزّى فى كل

عصر وكل جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة مما تتوفر الدواعى على نقله وامّا غزوهم بلاد الشرق وارض الترك وان كانت طريقه اوسع من مسلك السويس الا ان الشقّة هنا ابعد وامم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط ان التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانّما كانوا يحاربون اهل فارس على حدود ارض العراق وبلاد العرب ما بين البحرين والحيرة المتاخمة بينهما فى الاعمال وقد وقع ذلك بين ذى الاذعار منهم وكيقاوس من ملوك الكيينية وبين تبع الاصغر ابو كرب ويستاسب منهم ايضا ومع ملوك الطوايف بعد الكيينية والساسانية من بعدهم فمجاوزة التبابعة ارض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت ممتنع عادة من اجل الامم المعترضة دونهم والحاجة الى الازودة والعلوفات مع بعد الشقّة كما مرّ فالاخبار بذلك واهية مدخولة وهى لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها فكيف وهى لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق ان تبّعا الآخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وامّا بلاد الترك والتبت فلا يصحّ غزوهم اليها بوجه بما تقرّر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتامّل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها باحسن وجه والله الهادى الى الصواب (فصل) وابعد من ذلك واعرق منه فى الوهم ما يتناقله المفسّرون فى تفسير سورة الفجر عند قوله تعالى الم تركيف فعل

ربك بعاد ارم ذات العماد يجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بانّها ذات العماد اى الاساطين وينقلون انّه كان لعاد ابن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنّة فقال لابنينّ مثلها فبنى مدينة فى صحارى عدن فى ثلثماية سنة وكان عمره تسعماية سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضّة واساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر والانهار المطردة ولمّا تمّ بناوها سار اليها باهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ذكر ذلك الطبرى والثعالبى والزمخشرى وغيرهم من المفسّرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة انّه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معوية فاحضره وقصّ عليه فبعث الى كعب الاحبار وساله عن ذلك فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك احمر اشقر قصير على حاجبه خال وفى عنقه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال والله هذا ذلك الرجل انتهى وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يوميذ فى شئ من بقاع الارض وصحارى عدن التى زعموا انها بنيت فيها هى فى وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والركاب والادلّاء تنقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر

ولا ذكرها احد من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انّها درست فيما درس من الآثار لكان اشبه الّا ان ظاهر كلامهم انّها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على انّ قوم عاد ملكوها وقد ينتهى الهذيان ببعضهم الى انها غايبة عن الحسّ وانّما يعثر عليها اهل الرياضة والسحرة مزاعم كلها شبيهة بالخرافات والذى حمل المفسّرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب فى لفظ ذات العماد من انّها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين يتعيّن ان يكون بناء ورشح لهم ذلك قرآءة ابن الزبير عاد ارم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى اشبه بالاقاصيص الموضوعة واقرب لتفاسير(1) سيفوية المنقولة فى عداد المضحكات والّا فالعماد هى عماد الخيام وان اريد بها الاساطين فلا بدع بوصفهم بانّهم اهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من قوّتهم لا انّه بناء خاص فى مدينة معيّنة او غيرها وان اضيفت كما فى قرآءة بن الزبير فعلى اضافة الفصلة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار من غير ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى يجلب لتوجيهه امثال هذه الحكايات الواهية التى تنزّه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحّة (ومن الحكايات المدخولة للمورّخين) ما ينقلونه كافة عن سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصّة العبّاسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانّه

(1) Man. A. للتفاسير.

لكلفه بمكانهما من معاقرته اياها الخمر اذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما فى مجلسه وانّ العبّاسة تحيّلت عليه فى التماس الخلوة به لما شغفها من حبّه حتّى واقعها فى حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب وهيهات ذلك من منصب العبّاسة فى دينها وابوتها وجلالها وانّها بنت عبد الله بن عبّاس ليس بينها وبينه الّا اربعة رجال هم اشراف الدين وعظماء الملّة من بعده العبّاسة بنت محمّد المهدى بن عبد الله ابى جعفر المنصور بن محمّد السجّاد بن على ابى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القران بن العبّاس عمّ النبى صلّى الله عليه وسلّم بنت خليفة اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبويّة وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملّة ونور الوحى ومهبط الملايكة من ساير جهاتها قريبة عهد ببداوة العربيّة وسداجة الدين البعيدة من عوايد الترف ومراتع الفواحش فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها واين توجد الطهارة والزكاء اذا فقد من بيتها وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم تملك جدّه من الفرس مولاه (1) جدّها من عمومة الرسول واشراف قريش وغايته ان جذبت دولتهم بضبعه وضبع ابيه واستخلصتهم ورقّتهم الى منازل التشريف وكيف يسوغ

(1) Man. C. او تولاها.

من الرشيد ان يصهر الى موالى العجم على بعد همّته وعظم آبايه ولو نظر المتامّل فى ذلك نظر المنصف وقاس العبّاسة بابنة ملك من اعاظم ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولجّ (1) فى تكذيبه واين قدر العبّاسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم اموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرّف فى امور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالروساء من ولدهم وصنايعهم واحتازوها عمّن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها اهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان ابيهم يحيى من كفالة هارون ولى عهد وخليفة حتّى شبّ فى حجره ودرج من عشّه وغلبه على امره وكان يدعوه يا ابتى فتوجّه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطّت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك

(1) Man. A. لجا.

وتحف الامراء وتسرّبت الى خزاينهم فى سبيل التزلّف والاستهالة اموال الجباية وافاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المنن وكسبوا (1) من بيوتات الاشراف المعدم وفكّوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم واسنوا لعفاتهم الجوايز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والامصار فى ساير الممالك حتّى اسفوا البطانة واحقدوا الخاصّة واغصّوا اهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبّت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية حتّى لقد كان بنو قحطبة (2) اخوال جعفر من اعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر فى نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم اوامر القرابة وقارن تلك عند مخدومهم نواشئ (3) الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكامن الحقود (4) التى بعثتها منهم صغاير الدالة وانتهى بها الاصرار على شانهم الى كباير المخالفة كقصّتهم فى يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب اخى محمّد المهدى الملقّب بالنفس الزكيّة الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على امان الرشيد بخطه وبذل الف الف درهم على

(1) Man. B. كيسوا.

(2) Man. B. قحطينة.

(3) Man. A. مواشى.

(4) Man. A. الحقد.

ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدّة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحلّ عقاله حرصا لدماء اهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه وساله الرشيد عنه لما وشى به عليه ففطن وقال اطلقته فابدى له وجه الاستحسان واسرّها فى نفسه فاوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثلّ عرشهم واكفيت عليهم سماوهم وخسفت الارض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للاخرين ايّامهم ومن تامّل اخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقّق الاثر ممهد الاسباب (وانظر) ما نقله ابن عبد الله فى مفاوضة الرشيد عمّ جدّه داوود بن على فى شأن نكبتهم وما ذكره فى باب الشعراء من كتاب العقد فى محاورة الاصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى فى سمرهم تتفهّم انه انّما قتلهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيّل به اعداوهم (1) من البطانة فيما دسّوه للمغنيين من الشعراء احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفايظه لهم وهو قوله

ليت هند انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدّت مرّة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لمّا سمعها قال اى والله عاجز حتى بعثوا بامثال

(1) Man. A. et B. اعدادهم.

هذه كامن غيرته وسلّطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال وامّا ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا (1) للّه ما علمنا عليه من سوء واين هذا من حال الرشيد وقيامه بها يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاورته للفضل بن عياض وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان وبكايه من مواعظهم ودعايه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات وشهود الصبح باول (2) وقتها حكى الطبرى وغيره انه كان يصلّى كل يوم ماية ركعة نافلة وكان يغزو عاما ويحجّ عاما ولقد زجر ابن ابى مريم مضحكة سمره حين تعرض له بمثل ذلك فى الصلاة لما سمعه يقرأ وما لى لا اعبد الذى فطرنى قال والله لا ادرى لم فما تمالك (3) الرشيد ان ضحك ثم التفت مغضبا وقال يا بن ابى مريم فى الصلاة ايضا ايّاك ايّاك والقران والدين ولك ما شئت بعدهما وايضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب (4) عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جدّه ابى جعفر بعيد زمن انّما خلفه غلاما وقد كان

(1) Man. B. حاشى لله. C. حاش.

(2) Cod. B. لاول.

(3) Man. A. تهلك.

(4) Man. A. بقرب.

ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القايل لمالك حين اشار عليه بتاليف الموطا يا ابا عبد الله انه لم يبق على وجه الارض اعلم منّى ومنك وانّنى قد شغلتنى الخلافة فضع انت للناس كتابا ينتفعون به تجنّب فيه رخص ابن عبّاس وشدايد ابن عمر ووطّيه للناس توطية فقال مالك فوالله لقد علمنى التصنيف يوميذ ولقد ادركه ابنه المهدى ابو الرشيد هذا وهو يتورّع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخيّاطين فى ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدى من ذلك وقال يا امير المومنين علىّ كسوة هذا العيال عامنا هذا من عطآءى فقال لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالإنفاق من اموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وابوته وما ربى عليه من امثال هذه السير فى اهل بيته والتخلق (1) بها ان يعاقر فى الخمر او يجاهر بها وقد كانت حال الاشراف من العرب الجاهليّة فى اجتناب الخمر معلومة ولم تكن الكرم شجرتهم (2) وكان شربها مذمّة عند الكبير منهم والرشيد وآباوه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات فى دينهم ودنياهم والتخلّق بالمحامد واوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) ما نقله الطبرى

(1) Man. A. التخلّف.

(2) Man. A. شجرته.

والمسعودى فى قصّة جبرئيل بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك فى مايدته فحماه عنه ثم امر صاحب المايدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودسّ خادمه حتى عاينه يتناوله فاعدّ ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك فى ثلاثة اقداح خلط احداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصبّ على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال فى الاول والثانى هذا طعام امير المومنين ان خلط السمك بغيره او لم يخلط وقال فى الثالثة هذا طعام بختيشوع ودفعها الى صاحب المايدة حتى اذا انتبه الرشيد واحضر للتوبيخ احضر الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط واماع وتفتّت ووجد الاخرين قد فسدا وتغيّرت رايحتهما فكانت له فى ذلك معذرة وتبيّن من ذلك ان حال الرشيد فى اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته واهل مايدته ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس ابى نواس لما بلغه من انهماكه فى المعاقرة (1) حتى تاب واقلع وانّما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيها معروفة واما الخمر الصرف من العنب فلا سبيل الى اتهامه بها ولاتقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من اكبر الكباير عند اهل الملّة ولقد كان اوليك القوم كلهم بمنجاة

(1) Cod. A. المسافرة.

من خنث السرف والترف فى ملابسهم وزينتهم وساير متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التى لم يفارقوها بعد فما ظنّك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلّية الى الحرمة ولقد اتّفق المورّخون الطبرى والمسعودى وغيرهما على ان جميع من سلف من خلفاء بنى امية وبنى العبّاس انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق والسيوف واللجم والسروج وان اول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم ايضا فى ملابسهم فما ظنّك فى مشاربهم ويتبيّن ذلك باتمّ من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة فى اولها من البداوة والغضاضة كما نشرح فى مسايل الكتاب الاول ان شاء الله تعالى (ويناسب هذا) او قريبا منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن اكثم قاضى المامون وصاحبه وانه كان يعاقر المامون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن فى الريحان حتى افاق وينشدون على لسانه

يا سيّدى وامير الناس كلهم قد جار فى حكمه من كان يسقينى
انى غفلت عن الساقى فصيّرنى كما ترانى سليب العقل والدين

وحال ابن اكثم والمامون فى ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم واما السكر فليس من شانهم وصحابته للمامون انما كانت خلّة فى الدين ولقد ثبت

انه كان ينام معه فى البيت ونقل من فضايل المامون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة فقام يتجسّس ويلتمس الاناء مخافة ان يوقظ يحيى بن اكثم وثبت انهما كانا يصليان الصبح جميعا فاين هذا من المعاقرة وايضا فيحيى بن اكثم كان من اهل الحديث وقد اثنى عليه الامام احمد بن حنبل والقاضى اسمعيل وخرج عنه الترمذى فى كتابه الجامع ذكر الحافظ المزنى ان البخارى روى عنه فى غير الجامع فالقدح فيه قدح فى جميعهم (1) وكذلك ينبزه المجّان بالميل الى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون فى ذلك الى اخبار القصاص الواهية التى لعلّها من افتراء اعدايه فانه كان محسدا فى كماله وخلّته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزّها (2) عن مثل ذلك وقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله ومن يقول هذا وانكر ذلك انكارا شديدا واثنى عليه وقيل لاسمعيل مما كان يقال فيه فقال معاذ الله ان تزول عدالة مثله لتكذيب باغ وحاسد وقال يحيى بن اكثم ابرآء الى الله من ان يكون فيه شئ مما كان يرمى به من امر الغلمان ولقد كنت اقف على سرايره فاجده شديد الخوف لله لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمى بما رمى به وذكره ابن حيان فى

(1) Man. A. جميعه.

(2) Man. B. يتنزه. A. نبذه.

الثقات وقال لا تشتغل (1) بما يحكى عنه لان اكثرها لا تصحّ عنه (ومن امثال) هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل فى سبب اصهار المامون الى الحسن بن سهل فى بنته بوران وانه عثر فى بعض الليالى فى تطوافه (2) بسكك بغداذ بزنبيل مدلّى (3) من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاقتعده وتناول المعالق فاهتزّت وذهب به صعدا الى مجلس شانه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد ابنيته (4) وجمال روايه ما يستوقف الطرف ويملك النفس (5) وان امراة برزت من خلل الستور فى ذلك المجلس رايعة الجمال فتّانة المحاسن فحيّته ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع الى اصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبّا بعثه الى الاصهار الى ابيها واين هذا كله من حال المامون المعروفة فى دينه وعلمه واقتفايه سنن الخلفاء الراشدين من ابائه واخذه بسيرة الخلفاء الاربعة اركان الملّة ومناظرته العلماء وحفظه لحدود الله فى صلواته واحكامه فكيف تصحّ عنه احوال الفسّاق المشتهرين (6) فى التطواف بالليل وطروق

(1) Man. A. et B. يشتغل.

(2) Man. A. تطوفه.

(3) Man. A. يدل.

(4) Man. C. انيته.

(5) Man. A. النفوس.

(6) Man. C. المستهزين. Je lis المستهترين.

المنازل وغشيان السمر سبيل عشّاق الاعراب وايــــن ذلك من منصب بنت الحسن بن سهل وشرفها وما كان بـــدار ابيها من الصون والعفاف وامثال هذه الحكايات كثيرة وفي كـتب المورّخين معروفة وانـما يـبعث على وضعها والحديث بها الانهماك فى اللذّات المحرمة وهتـك قناع الـمـروة وبتعللون بالقوم فيما ياتونه من طاعة لذّاتهم فلذلك تـراهـم كثيرا ما يلهجون باشباه هذه الاخبار وينقّرون (1) عـنـها عـنـد تصفّحهم لاوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم فى غير هـــذا من احوالهم وصفات الكمال اللايقة بهم المشهورة عنـهـم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون (ولقد) عذلت يوما بعض الامراء من اولاد الملوك فى كلفه بتعلم الغنا وولوعه بالاوتار وقلت لـه ليس هذا من شانـك ولا يليق بمنصبك فقال لى افلا ترى الى ابراهيم ابن المهدى كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنّيين فى زمانه فـقلت له يا سبحان الله وهلّا (2) تأسّيت بابيه او اخيه او ما رايت كيف قعد ذلـك بابراهيم عــن مناصبهم فصمّ عن عذلى واعرض (ومن الاخبار الواهيـة) مـا يذهب اليه الكـثير من المورّخين فى العبـيديـين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن اهل البـيت صلـوات الله عليهم والطعن فى نسبهم الى اسمعيل الامـــام بـــن جـــعفـــر

(1) Man. A et B. يقرون.

(2) Man. A. هل.

الصادق يعتمدون فى ذلك على احاديث لقّقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلّفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفنّنا فى الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الاحاديث فى اخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وادلّة الاحوال التى اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والردّ عليهم فانّهم متّفقون فى حديثهم عن مبداء دولة الشيعة ان ابا عبد الله المحتسب لما دعى بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدى وابنه ابى القاسم خشيا على انفسهما فهربا من المشرق محلّ الخلافة واجتازا بمصر وانّهما خرجا من الاسكندرية فى زىّ التجّار ونما خبرهما الى عيسى النوشرى عامل مصر والاسكندرية فسرح (1) فى طلبهما الخيالة حتى اذا ادركا خفى حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزى فافلتوا الى المغرب وان المعتضد اوغر الى الاغالبة امراء افريقية بالقيروان وبنى مدرار امراء سجلماسة باخذ الآفاق عليهما واذكاء العيون فى طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفى مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل ان تظهر الشيعة على الاغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بافريقية والمغرب ثم باليمن ثم

(1) Man. A. فخرج.

بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بنى العباس فى الممالك شقّ الابلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويديلون من امرهم ولقد اظهر دعوتهم ببغداذ وعراقها الامير البساسيرى من موالى الديلم المتغلبين على خلف بنى العباس فى مغاضبة جرت بينه وبين امراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كرتيا وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بنى امية ورآء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعىّ بالنسب مكذّب فى انتحال الامر واعتبر حال القرمطى اذا كان دعيّا فى انتسابه كيف تلاشت دعوتهم وتفرّق اتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال امرهم ولو كان امر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

فمهما تكن عند امرء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتّصلت دولتهم نحو من مايتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم ومصلاه ومواطن الرسول ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملايكة ثم انقرض امرهم وشيعتهم فى ذلك كله على انم ما كانوا عليه من الصاغية اليهم والحبّ فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل ابن جعفر الصادق وقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس اثرها داعيين الى بدعتهم هاتفين باسماء صبيان من عقبهم يزعمون استحقاقهم للخلافة

ويذهبون الى تعيّنهم بالوصية ممن (1) سلف قبلهم من الايمّة ولو ارتابوا فى نسبهم لما ركبوا اعناق الاخطار فى الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس فى امره ولا يشتبه فى بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله والعجب من القاضى ابى بكر الباقلّانى شيخ النظّار من المتكلمين يجنح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الراى الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد فى الدين والتعمّق فى الرافضة فليس ذلك بدافع (2) فى صدر بدعتهم وليس اثبات منتسبهم بالذى يغنى عنهم من الله شيا فى كفرهم فقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام فى شان ابنه انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسئلنى ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملى فلن اغنى عنك من الله شيا ومتى عرف امرؤ قضيّة او استيقن امرا وجب عليه ان يصدع به والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والقوم كانوا فى مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعهم وانتشارهم فى القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرّة بعد اخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسئل الايام ما اسمى ما درت   واين مكانى ما عرفن مكانى

(1) Man. A. فمن.   (2) Man. A. يدافع

حتى لقد سمى محمد بن اسمعيل الامام جدّ عبيد الله المهدى بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتّفقوا عليه من اخفايه حذرا من المتغلّبين عليهم فتوصّل شيعة آل العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن فى نسبهم وازدلفوا بهذا الراى الفايل الى المستضعفين من خلفايهم واعجب به اولياؤهم وامراء دولتهم المتولّون لحروبهم مع الاعداء يدفعون به عن انفسهم وسلطانهم معرّة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين واهل دعوتهم حتى لقد اسجل القضاة ببغداذ بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك من اعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضى واخوه المرتضى وابن البطحاوى ومن العلماء ابو حامد الاسفراينى والقدورى والصيمرى وابن الاكفانى والابيوردى وابو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من اعلام الامّة ببغداذ فى يوم مشهود وذلك سنة ثنتين واربعماية فى ايام القادر وكانت شهادتهم فى ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداذ وغالبها شيعة بنى العباس الطاعنون فى هذا النسب فنقله الاخباريّون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه (1) والحقّ من ورآيه وفى كتاب المعتضد فى شان عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة

(1) Man. A. دعوه.

اصدق شاهد واوضح دليل على صحّة نسبهم فالمعتضد اقعد بنسب اهل البيت من كل احد والدولة والسلطان سوق للعالم يجلب اليه بضايع العلوم والصنايع وتلتمس فيه ضوالّ الحكم وتحدى اليه ركايب الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة فان تنزّهت الدولة عن التعسّف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الأمَّ ولم تجر عن قصد السبيل نفق (1) فى سوقها الابريز الخالص واللجين الصافى (2) وان ذهبت مع الاغراض والحقود وماجت بسماسرة البغى والباطل نفق البهرج والزايف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه (ومثل هذا) وابعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون فى نسب ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن ابى طالب رضوان الله عليهم اجمعين الامام بعد ابيه بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحسد (3) بالتظنن (4) فى الحمل المخلف عن ادريس الاكبر انه لراشد مولاهم قبّحهم الله وابعدهم ما اجهلهم اما (5) يعلمون ان ادريس الاكبر كان اصهاره فى البربر وانه مذ دخل المغرب الى ان توفّاه الله عزّ وجل عريق فى البدو وان حال البادية فى

(1) Man. A. لفق.

(2) Man. B. et C. المصفّى

(3) J'ai lu الحسد au lieu de الحد.

(4) Man. A. بالتظنين.

(5) Man. A. انما.

كل ذلك غير خافية اذ لا مكامن لهم يتاتّى فيها الريب
واحوال حُرمهم اجمعين بمرائ من جاراتهن ومسمع من
جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البناء وعدم الفواصل بين
المساكن (1) وقد كان راشد يتولى (2) خدمة الحرم اجمع
من بعد مولاه بمشهد من اوليايهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم
وقد اتّفق برابرة المغرب الاقصى عامة على بيعة ادريس
الاصغر من بعد ابيه وآتوه طاعتهم عن رضى واصفاق وبايعوه
على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا فى حروبه
وغزواته ولو حدّثوا انفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت
اسماعهم ولو من عدو كاشح او منافق مرتاب لتخلّف عن
ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من
بنى العباس اقتالهم ومن بنى الاغلب عمّالهم كانوا بافريقية
وولاتهم وذلك انه لما فر (3) ادريس الاكبر الى المغرب من
وقعة فخ اوغر الهادى الى الاغالبة ان يقعدوا له بالمرصاد (4)
ويذكوا (5) عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب
فتم (6) امره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك
على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من

(1) Man. المساكين.

(2) Man. A. يقول.

(3) Je lis فرّ au lieu de قر.

(4) Man. C. المراصد

(5) Man. B. يذكروا.

(6) Man. B. فنها.

دسيسة التشيع للعلوية وادهانه فى نجاة (1) ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالى ابيه للتحيّل (2) على قتل ادريس فاظهر اللحاق به والبراءة من بنى العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ فى بعض خلواته سمّا استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بنى العباس احسن المواقع لما رجوه من قطع اسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولم يتادّ اليهم خبر الحمل المخلف لادريس فلم يكن الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس تجددت فكان ذلك عليهم انكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزل بدولة العرب عن ان يسموا الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه الا التحيّل فى اهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا الى اولياهم من الاغالبة بافريقية فى سدّ تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل ان تشجّ منهم يخاطبهم بذلك المامون ومن بعدهم من خلفايهم فكان الاغالبة من برابرة المغرب الاقصى اعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم احوج لما طرق الخلافة من انتزاء المماليك العجم على سدّتها

(1) Man. B. نجاء.

(2) Man. B. للتحليل.

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وامتطاهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم احكامها طوع اغراضهم في رجالها وجبايتها واهل خططها وساير نقضها وابرامها كما قال شاعر عصرهم

خليفة في قفص بين وصيف وبُغا يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فخشى هولآء الامراء الاغالبة بوادر السعايات وتلوّوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب واهله وطورا بالارهاب بشان ادريس الخارج به ومن قام مقامه من اعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون (1) سكّته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحاله وتهويلا باشتداد شوكته وتعظميا لما دفعوا اليه من مطالبته ومَرَاسه تهديدا بقلب الدعوة ان الجيؤا اليه وطورا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا لشانه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وافن عقول من خلف من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قايل والتسمّع لكل ناعق ولم يزل هذا دابهم حتى انقضى امر الاغالبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء اسماع الغوغا وصرّ عليها بعض الطاعنين (2) اذنه واعتدّها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المنافسة وما لهم قبّحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة ولا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش ابيه والولد للفراش على ان

(1) Man. C. ينقدون.

(2) Man. B. الطاغيين et C. الطاغين

تنزيه اهل البيت عن مثل هذا من عقايد الايمان فالله سبحانه قد اذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزّه عن الرجس بحكم القران ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء باثمه وولج الكفر من بابه وانما اطنبت فى هذا الردّ سدّا لابواب الريب ودفعا فى صدر الحاسد لما سمعته اذناى (1) من قايله المعتدّ عليهم به القادح فى نسبهم بفريته (2) وينقله بزعمه عن بعض مورّخى (3) المغرب ممن انحرف عن اهل البيت وارتاب فى الايمان بسلفهم والا فالمحل منزّه عن ذلك معصوم منه ونفى العيب حيث يستحيل العيب عيب لكنّى جادلت عنهم فى الحيوة الدنيا وارجو ان يجادلوا عنّى يوم القيامة (وليعلم) ان اكثر الطاعنين فى نسبهم انّما هم الحسدة لاعقاب ادريس هذا من منتم الى اهل البيت او دخيل فيهم فان ادّعاء هذا النسب دعوى شرف عريض على الامم والاجيال من اهل الآفاق فتعرض التهمة فيه ولما كان نسب بنى ادريس هولآء بمواطنهم من فاس وساير بدد المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح (4) مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع احد فى دركه اذ هو نقل الامّة والجيل من الخلف من الامّة والجيل من السلف وبيت جدّهم ادريس مختطّ

(1) Man. A. اذنى.

(2) Man. B. بقرينة.

(3) Man. A. مورخ.

(4) Man. A. et B. الوضوع.

فاس وموسّسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلّتهم ودروبهم (1)
وسيفه منتضى براس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير
ذلك من آثاره التى جاوزت اخبارها حدود التواتر مرّات
وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من اهل هذا النسب
الى ما اتاهم الله من امثالها وما عضد شرفهم النبوى من
جلال الملك الذى كان لسلفهم بالمغرب واستيقن انه
بمعزل عن ذلك وانه لا يبلغ مُدّ احدهم ولا نصيفه وان
غاية امر المنتميين الى البيت الكريم ممن لم تحصل له
امثال هذه الشواهد ان يسلم لهم حالهم لان الناس مصدّقون
فى انسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا
علم ذلك من نفسه غصّ بريقه وودّ كثير منهم لو يردّونهم
عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند انفسهم
فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن
الفايل والقول المكذوب تعلّلا بالمساواة فى الظنّة والمشابهة
فى تطرّق الاحتمال وهيهات لهم ذلك فليس فى المغرب
فيما نعلمه من اهل هذا البيت الكريم من يبلغ فى صراحة
نسبه ووضوحه مبالغ اعقاب ادريس هذا من آل الحسن
وكبرآوهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطى
ابن محمد بن يحيى المعدام ابن القاسم بن ادريس بن

(1) Man. B. دورهم.

ادريس وهم بقايا اهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدّهم ادريس ولهم السيادة على اهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شآء الله وهم بنو عمران بن محمد ابن الحسن بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن يحيى بن ابراهيم ابن يحيى الجُوطى والنقيب لهذا العهد منهم محمد بن على (1) بن محمد بن عمران (ويلحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفايلة ما يتناوله ضعفة الراى من فقهاء المغرب من القدح فى الامام المهدى صاحب دولة الموحّدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحقّ والنعى على اهل البغى قبله (2) وتكذيبهم لجميع مدّعياته فى ذلك حتى فيما يزعم الموحّدون اتباعه انتسابه فى اهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن فى نفوسهم من حسده على شانه فانّهم لما (3) راوا من انفسهم مناهضته فى العلم والفتيا وفى الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بانه متبوع الراى مسموع القول موطوء العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا (4) منه بالقدح فى مذاهبه والتكذيب لمدّعياته وايضا فكانوا يونسون من ملوك لمتونة اعدايه تجلّة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من

(1) Man. A. محمد.

(2) Man. A. مله.

(3) Man. B. دلوا.

(4) Man. A. et B. غصوا. Je lis غضّوا.

السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة (1) العلم بدولتهم مكان
من الوجاهة والانتصاب للشورى كل فى بلـــده (2) وعلى
قدره فى قومه واصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعـدوهـم
ونقموا على المهدى ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم
والمناصبة لهم تشيّعا للمتونة وبغضا لدولتهم ومكان الرجل غير
مكانهم وحاله (3) غير معتقداتهم وما ظنّـك برجل نقم على
الدولة ما نقم من احوالهم وخالف اجتهاده فقهاوهم فـنادى
فى قومه ودعى الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من اصولها
وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت قوة واشدّ شوكة واعزّ (4)
انصارا وحامية وتساقطت فى ذلك من اتباعه نـــفـوس
لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بانــفسهم
من الهلكة وتقرّبوا الى الله باتلاف مهجهم فى اظهار تلك
الدعوة والتعصّب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم وادالت
بالعدوتين من الدول وهو بحاله من التقشّف والحصر والصبر
على المكاره والتقلّل من الدنيا حتى قبضه الله ولـيـس على
شئ من الحظّ والمتاع فى دنياه حتى الولد الذى ربّما تجنح
اليه النفوس ويخادع عن تمنّيه فليت شعرى ما الذى قصد
بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظّ مـن

(1) Man. C. بجهلة.

(2) Man. B. فى كل بلدة.

(3) Man. C. على.

(4) Man. A et B. اغز.

الدنيا فى عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمّ امره وانفسحت دعوته سنّة الله التى قد خلت فى عباده وامّا انكارهم نسبه فى اهل البيت فلا يعضده حجّة لهم مع ان (1) ثبت انه ادّعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لان الناس مصدّقون فى انسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم فى غير اهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما ياتى فى الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قد رأس ساير المصامدة ودانوا (2) باتباعه والانقياد اليه والى عصابته من هرغه حتى تمّ امر الله فى دعوته فاعلم ان هذا النسب الفاطمى لم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتبعه الناس لنسبه (3) وانما كان اتباعهم له بعصبيّة الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها (4) وكان ذلك النسب الفاطمى خفيّا قد درس عند الناس وبقى عنده وعند (5) عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الاول كانّه انسلخ منه ولبس جلدة هولآء وظهر (6) فيها فلا يضرّه الانتساب الاول فى عصبيته اذ هو مجهول (7) عند اهل العصابة ومثل هذا وقع كثيرا اذا كان النسب الاول خفيا وانظر قصّة عرفجة (8)

(1) Le M. A. omet ان. Man. C. مع انه يثبت.
(2) Man A. et B. اذانوا.
(3) Man. C. بسببه.
(4) Man. A. منها.
(5) Man. A. عنه.
(6) Man. C. طرر.
(7) Man. B. محول.
(8) Man. B. عرمجة.

وجرير فى رياسة بجيلة (1) وكيف كان عرفجة من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضى الله عنه كما هو مذكور تستفهّم منه وجه الحقّ والله الهادى الى الصواب (وقد) كدنا ان نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب فى هذه المغالط فقد زلّت اقدام كثير من الاثبات والمورّخين الحفّاظ فى مثل هذه الاحاديث والآراء وعلقت بافكارهم ولقنها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس ولقنوها هم ايضا كذلك من غير بحث ولا روية (2) واندرجت فى محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعدّ من مناحى العامّة فاذن يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبايع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوايد والنحل والمذاهب وساير الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغايب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منه والمختلف والقيام على اصول الدول والملل ومبادى ظهورها واسباب حدوثها ودواعى كونها واحوال القايمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على اصل كل خبر وحينيذ يعرض خبره المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى

(1) Man. A. بجبيلة.

(2) Man. A. رواية.

على مقتضاها كان صحيحا والا زيّفه واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبرى والبخارى وابن اسحق من قبلهما وامثالهم من علماء الامّة وقد ذهل (1) الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة واستخفّ العوام ومن لا رسوخ له فى المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفّل عليه فاختلط المَرعىّ بالهَمَل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور (ومن الغلط الخفى فى التاريخ) الذهول عن تبدّل الاحوال فى الامم والاجيال بتبدّل الاعصار ومرور الايام وهو دآء دوى وشديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطّن له الا الآحاد من اهل الخليقة وذلك ان احوال العالم والامم وعوايدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنّة الله التى قد خلت فى عباده وقد كانت فى العالم امم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على احوال خاصّة بهم فى دولهم وممالكهم وسياستهم وصنايعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وساير مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعتمادهم للعالم

(1) Man. A. et B. دخل

تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب والفرنجة فتبدّلت تلك (1) الاحوال وانقلبت بها العوايد الى ما يجانسها ويشابهها والى ما يباينها ويباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة اخرى وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ياخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وايامهم وذهب الاسلاف الذين شيّدوا عزّهم (2) ومهدوا ملكهم وصار الامر فى ايدى سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والافرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم امم وانقلبت احوال وعوايد نسى شانها واغفل امرها والسبب الشايع فى تبدّل الاحوال والعوايد ان عوايد كل جيل تابعة لعوايد سلطانه كما يقال فى الامثال الحكميّة الناس على دين الملك واهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد وان ينزعوا الى عوايد من قبلهم وياخذون الكثير منها ولا يغفلون عوايد جيلهم مع ذلك فيقع فى عوايد الدولة بعض المخالفة لعوايد الجيل الاول فاذا جآءت دولة اخرى من بعدهم ومزجت من عوايدهم وعوايدها خالفت ايضا بعض الشىء وكانت للاولى اشدّ مخالفة ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى ينتهى الى المباينة بالجملة فما دامت الامم والاجيال

(1) Man. A. كل.

(2) Man. A. عزمهم.

تتعاقب فى الملك والسلطان لا تزال المخالفة فى العوايد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مامونة تخرجه مع الذهول والغلط عن قصده وتعوج به عن مرامه (1) فربّما يسمع السامع كثيرا من اخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغيّر الاحوال وانقلابها فيجريها لاول وهلة مع ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع فى مهواة من الغلط (فمن هذا الباب) ما ينقله المورّخون من احوال الحجاج وان اباه كان من المعلمين مع ان التعليم لهذا العهد من جملة الصنايع المعاشية البعيدة من اعتزاز اهل العصبية (2) والمعلم مستضعف مستكين منقطع الجذم (3) فيتشوف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنايع المعاشية الى نيل الرتب التى ليسوا لها باهل ويعدّونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربّما انقطع حبلها من ايديهم فسقطوا فى مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها فى حقّهم وانهم اهل حرف وصنايع للمعاش وان التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان اهل الانساب والعصبيّة الذين قاموا بالملّة هم الذين يعلمون

(1) Man. B. امر الله. (2) Man. A. العصبة. (3) Man. B. الخدم.

كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلّم على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه قتلوا واختصّوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون (1) على تعليم ذلك وتفهيمه للامّة لاتصدهم عنه لايمة الكبر ولا يزعهم (2) عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرايع الدين بعث فى ذلك من اصحابه العشرة (3) فمن بعدهم فلما استقرّ الاسلام ووشجت عروق الملّة حتى تناولها الامم البعيدة من ايدى اهلها واستحالت بمرور الايام احوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقايع وتلاحقها فاحتاج الى قانون يحفظه من الخطا وصار العلم ملكة تحتاج الى التعلم فاصبح من جملة الصنايع والحرف كما ياتى ذكره فى فصل العلم والتعليم واشتغل اهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم واصبح حرفة المعاش وشمخت (4) انوف المترفين واهل السلطان عن التصدّى للتعليم واختصّ انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند اهل العصبيّة والملك

(1) Man. A. فبصرحون.

(2) Man. A. et B. يرعهم; man. C. يزعمهم.

(3) Man. B. الغرّلا.

(4) Man. A. سمخة.

والحجاج بن يوسف كان ابوه من سادات ثقيف واشرافهم ومكانهم من عصبيّة العرب ومناهضة قريش فى الشرف ما علمت (1) ولم يكن تعليمه للقران على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش وانّما كان على ما وصفناه من الامر الاول فى الاسلام (ومن هذا الباب) ما يتوهّمه المتصفّحون لكتب التاريخ اذا سمعوا احوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة فى الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون ان الشان فى خطّة القضا لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنّون بابن ابى عامر حاجب هشام المستبدّ عليه وابن عباد من ملوك الطوايف باشبيلية اذا سمعوا ان آباهم كانوا قضاة انهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع فى رتبة القضا من مخالفة العوايد كما نبيّنه فى فصل القضا من الكتاب الاول وابن ابى عامر وابن عباد كانا من قبايل العرب القايمين بالدولة الامويّة بالاندلس واهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطّة القضا كما هى لهذا العهد بل انما كان القضا فى الامر القديم لاهل العصبيات من قبيل الدولة ومواليها كما هى الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر فى

(1) Le man. A. ajoute ما.

الصوايف وتقليدهم عظايم الامور التى لا تقلّد الا لمن له الغنا فيها بالعصبية فيغلط السامع فى ذلك ويحمل الاحوال الى غير ما هى واكثر ما يقع فى هذا الغلط ضعفاء البصاير اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية فى مواطنهم منذ اعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن مُلَكة اهل العصبية من البربر فبقيت انسابهم العربيّة محفوظة والذريعة الى العزّ من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبّدهم القهر ورُيِّموا للمذلة (1) يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة هى التى يكون بها الغلب والتحكّم فتجد اهل الحرف منهم والصنايع متصدّين لذلك ساعين فى نيله فاما (2) من باشر احوال القبايل والعصبية ودولهم بالعدوة المغربيّة وكيف يكون التغلّب بين الامم والعشاير فقل ما يغلطون فى ذلك او(3) يخطئون فى اعتباره (ومن هذا الباب) ايضا ما يسلكه المورّخون عند ذكر الدول ونسق ملوكهم فيذكرون اسمه ونسبه وامّه واباه ونساه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليدا لمورّخى الدولتين من غير تفطّن لمقاصدهم والمورّخون لذلك العهد كانوا يضعون (4) تواريخهم لاهل

(1) Man. B. للمزلّة.

(2) Man. A. فيها.

(3) Man. A. أم.

(4) Man. B. يصنعون.

الدولة وابناوهم متشوّفون الى سير سلفهم ومعرفة احوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى فى اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لابناء صنايعهم وذويهم والقضاة ايضا كانوا من اهل عصبة الدولة فى عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وامّا حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصّة ونسب الدول بعضها من بعض فى قوتها وغلبها ومن كان يناهضها من الامم او يقصر عنها فما الفايدة للمصنّف لهذا العهد فى ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضى والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها اصولهم ولا انسابهم ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المولّفين الاقدمين والذهول عن تحرّى الاغراض من التاريخ اللهمّ الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفّت على الملوك اخبارهم كالحجاج وبنى المهلب والبرامكة وبنى سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدى وابن ابى عامر وامثالهم فغير نكير الالماع بايامهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم فى عداد الملوك (ولنذكر) هنا فايدة نختم كلامنا فى هذا الفصل بها وهى ان التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر او جيل فاما ذكر الاحوال العامّة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أس للمورخ يتبنا

عليه اكثر مقاصده ويتبيّن به اخباره وقد كان الناس يفردونه (1) بالتاليف كما فعله المسعودى فى كتاب مروج الذهب شرح فيه احوال الامم والآفاق لعهده فى عصر الثلاثين والثلاثماية غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوايدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار امّا للمورّخين يرجعون اليه واصلا يعولون فى تحقيق الكثير من اخبارهم عليه ثم جآء البكرى من بعده ففعل مثل ذلك فى المسالك والممالك خاصّة دون غيرها من الاحوال لانّ الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغيّر واما لهذا العهد وهو آخر الماية الثامنة فقد انقلبت احوال المغرب التى نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القديم بمن طراء فيه من لدن الماية الخامسة من اجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم انتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فى شئ (2) من البلدان لملكتهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف هذه الماية الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيّف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجآء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية

(1) Man. A. يفرضونه.

(2) Man. C. فيما بقى من.

من مداها فقلص من ظلالها وفلّ (1) من حدها واوهى (2) من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال احوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبايل وتبدّل الساكن (3) وكانّى (4) بالمشرق وقد نزل به ما قد نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكانّما نادى لسان الكون فى لعالم بالخمول والانقباض فبادر الى الاجابة والله وارث الارض ومن عليها (واذا) تبدّلت الاحوال جملة فكانّما تبدّل الخلق من اصله وتحوّل العالم باسره وكانّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن احوال الخليقة والآفاق واجيالها والعوايد والنحل التى تبدّلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودى لعصره ليكون اصلا يقتدى به من ياتى من المورّخين من بعده (وانا) ذاكر فى كتابى هذا ما امكننى منه فى هذا القطر المغربى امّا صريحا او مندرجا فى اخباره وتلويحا لاختصاص قصدى فى التاليف بالمغرب واحوال اجياله وامه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطّلاعى على احوال المشرق وامه لان الاخبار المتناقلة لا توفى كنه

(1) Man. A. et B. قلّ.

(2) Man. C. اوهن.

(3) Man. B. المساكن.

(4) Man. A. كان.

ما اريده منه والمسعودى انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه فى البلاد كما ذكره فى كتابه مع انه لمّا ذكر المغرب قصّر فى استيفاء احواله وفوق كل ذى علم عليم ومردّ العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعيّن واجب ومن كان الله فى عونه تيسّرت عليه المذاهب وانجحت له المساعى والمطالب ونحن آخذون بعون الله فيما (1) رمناه من اغراض التاليف والله المسدّد والمعين وعليه التكلان (وقد) بقى علينا ان نقدّم مقدّمة فى كيفيّة وضع الحروف التى ليست من لغة العرب اذا عرضت فى كتابنا هذا (واعلم) ان الحروف فى النطق كما ياتى شرحه بعد هى كيفيّات للاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة واطراف اللسان مع الحلق والحنك والاضراس او بقرع الشفتين ايضا فتتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجى الحروف متمايزة فى السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما فى الضماير وليست الامم كلها متساوية فى النطق بتلك الحروف (2) فقد تكون لامّة من الحروف ما ليس لامّة اخرى والحروف التى نطقت بها العرب هى ثمانية وعشرون حرفا كما علمت ونجد للعبرانيّين حروفا ليست فى لغتنا وفى

(1) Man. A. فيها.

(2) Man. A. الحرف.

لغتنا ايضا حروفا ليست فى لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هولآء من العجم ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا فى الدلالة على حروفهم المسموعة باوضاع حروف (1) مكتوبة متميّزة باشخاصها كوضع الف وبآء وجيم وراء وطا الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقى مهملا عن الدلالة الكتابيّة (2) مغفلا عن البيان وربّما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذى يكتنفه (3) من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكاف فى الدلالة بل هو تغيير (4) للحرف من اصله (ولما) كان كتابنا مشتملا على اخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا فى اسمايهم او بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذى يليه كما قلنا لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت فى كتابى هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمى بما يدلّ على الحرفين الذين يكتنفانه ليتوسّط القارى بالنطق به بين مخرجى ذينك الحرفين فتحصل تاديته وانّما اقتبست ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط فى

(1) Man. A. حرف.

(2) Man. A. et B. الكتابة.

(3) Man. B. يكتنفهم Man. C. يكشفه.

(4) Man. A. تغير.

قراءة خلف فان النطق بصاده فيها مفخم متوسّط بين الصاد والزاى فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاى ودلّ ذلك عندهم على التوسّط بين الحرفين فكذلك (1) رسمت انا كل حرف بتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسّطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم مثل اسم بُلُكّين فاضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او ثنتين فيدلّ ذلك على انه متوسّط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف اكثر ما يجى فى لغة البربر وما جآء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف المتوسّط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارى انه متوسّط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه و لو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنّا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله سبحانه الموفّق لا ربّ غيره

(1) Man. A. لذلك. Man. B. ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
وآله وصحبه وسلّم تسليما

الكتاب الاول فى طبيعه العمران فى الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر

والتغلّب والكسب والمعاش والعلوم والصنايع ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب (اعلم) انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الا جماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحّش والتأنّس والعصبيات واصناف التقلّبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشئ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنايع وساير ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعة من الاحوال ولما كان الكذب متطرّقا للخبر بطبيعته وله الاسباب تقتضيه (فمنها) التشيّعات للاراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر اعطته حقّه من التمحيص (1) والنظر حتى يتبيّن صدقه من كذبه واذا خامرها تشيّع لراى او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك

(1) Man. B. التخصيص.

الميل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فيقع فى قبول الكذب ونقله (1) (ومن) الاسباب المقتضية للكذب فى الاخبار ايضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (2) (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على ما فى ظنّه وتخمينه فيقع فى الكذب (ومنها) توهّم الصدق وهو كثير وانّما يجئ فى الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع لاجل ما يداخلها من التلبّس والتصنّع فينقلها المخبر كما راءها وهى بالتصنّع على غير الحقّ فى نفسه (ومنها) تقرب الناس فى الاكثر لاصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فتستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحبّ الثناء والناس متطلّعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضايل لا متنافسين فى اهلها (ومن) الاسباب المقتضية له ايضا وهى سابقة على جميع ما تقدّم الجهل بطبايع الاحوال فى العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان (3) او فعلا لا بدّ له من طبيعة تخصّه (4) فى ذاته وفيما يعرض من

(1) Man. A. نحوه.

(2) Man. A. الترجيح.

(3) Les man. A. et B. omettent كان.

(4) Man. C. تخصّ له. Man. B. تخص.

احواله فاذا كان السامع عارفا بطبايع الحوادث والاحوال فى الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا ابلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتوثر عنهم كما نقله المسعودى عن الاسكندر لما صدّته دوابّ البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتّخذ تابوت الخشب وفى باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدوابّ الشيطانيّة التى راها وعمل تماثيلها من اجساد معدنيّة ونصبها حذاء البنيان ففرّت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتمّ له بناوه فى حكاية طويلة من احاديث خرافة مستحيلة من قبل اتّخاذ التابوت الزجاج ومصادمة البحر وامواجه بجرمه ومن قبل ان الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفى ذلك تلافه لا ينتظرون (1) به رجوعه من غرره ذلك طرفة عين ومن قبل ان الجنّ لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختصّ بها انما هى قادرة على التشكّل وما يذكر من كثرة الروس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لا انه حقيقة وهذه كلها قادحة فى تلك الحكاية والقادح المحيل (2) لها

(1) Man. C. ينظرون.

(2) Man. A. المحيد.

من طريق الوجود بابين من هذا كله ان المنغمس فى الماء ولو كان فى الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفّس الطبيعى ويتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرية والروح القلبى ويهلك مكانه وهذا هو السبب فى هلاك اهل الحمامات اذا اطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلّين فى الابار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواوها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلّى فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه فى تعديل رئته اذ هو حار بافراط والماء الذى يعدله بارد والهواء الذى خرج اليه حار فيستولى الحرّ على روحه الحيوانى ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وامثال ذلك (ومن) الاخبار المستحيلة ما نقله المسعودى ايضا فى تمثال الزرزور الذى برومة تجتمع اليه الزرازير فى يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتّخذون زيتهم وانظر ما ابعد ذلك عن المجرا الطبيعى فى اتّخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكرى فى بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط باكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والهدن انما اتّخذت للتحصن والاعتصام كما ياتى وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم (كما) نقله المسعودى ايضا فى حديث

مدينة النحاس وانها مدينة كلها من نحاس بصحراء سجلماسة طرقها موسى ابن نصير فى غزايه الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من اسوارها اذا اشرف على الحايط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر فى حديث مستحيل من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والادلاّء ولم يقفوا على هذه المدينة لخبر ثم ان هذه الاحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعيّة فى بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها ان يصرف فى الآنية والخُرثى واما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وامثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو بمعرفة طبايع العمران وهو احسن الوجوه واوثقها فى تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة (1) ولا يرجع الى تعديل الرواة (2) حتى نعلم هل ذلك الخبر فى نفسه ممكن او ممتنع واما اذا كان مستحيلا فلا فايدة فى النظر فى التعديل او التجريح (3) ولقد عدّ اهل النظر من المطاعن فى الخبر استحالة مدلول اللفظ او تاويله ان يؤول بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح (4) هو المعتبر فى صحّة الاخبار الشرعيّة لانّ معظمها

(1) Man. A. et D. الرواية.

(2) Man. A. et B. الرواية.

(3) Man. A. الترجيح.

(4) Man. A. الترجيح.

تكاليف انشائيّة اوجب الشارع العمل بها متى حصل الظنّ بصدقها وسبيل صحّة الظنّ الثقة بالرواة للعدالة والضبط وامّا الاخبارعن الواقعات فلا بدّ فى صدقها وصحّتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ننظر (1) فى امكان وقوعه وصار ذلك فيها اهمّ من التعديل ومقدّما عليه اذ فايدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفايدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة اذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر فى الاجتماع البشرىّ الذى هو العمران ونميّز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتدّ به وما لا يمكن ان يعرض له واذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق والكذب بوجه برهانىّ لا مدخل للشكّ فيه وحينيذ فاذا سمعنا عن شئ من الاحوال الواقعة فى العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان لنا ذلك معيارا صحيحا يتحرّى به المورّخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تاليفنا وكان هذا علم مستقلّ بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشرىّ والاجتماع الانسانىّ وذو مسايل وهى بيان ما يلحقه من الاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا

(1) Man. B. تنظر. Man. C. ينظر.

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun

شاءن كل علم من العلوم وضعيّا كان او عقليّا (واعلم) ان الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير(1) الفايدة اعثر عليه البحث وادى اليه الغوص وليس من علم الخطابة (2) الذى هو احد الكتب المنطقيّة فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور الى راى او صدّهم عنه ولا هو ايضا من علم السياسة المدنيّة اذ السياسة المدنيّة هى تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاوه (3) فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنّين الذين ربّما يشبهانه وكانّه علم مستنبط النشاءة ولعمرى لم اقف على الكلام فى منحاه لاحد من الخليقة ما ادرى لغفلتهم عن ذلك وليس الظنّ بهم او لعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا فالعلوم كثيرة والحكماء فى امم النوع الانسانى متعددون وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل فاين علوم الفرس الذى امر عمر رضى الله عنه بمحوها عند الفتح واين علوم الكلدانيّين والسريانيّين واهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتايجها واين علوم القبط من قبلهم وانّما وصل الينا علوم امّة واحدة وهم يونان خاصّة لكلف الهامون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك

(1) Man. A. et B. عزيز. (2) Man. الحكاية. (3) Man. B. بناوه.

لكثرة المترجمين وبذل الاموال (1) فيها ولم نقف على شئ
من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعقّلة (2) طبيعيّة يصلح (3)
ان يبحث عمّا يعرض لها من العوارض لذاتها وجب ان
يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصّه لكن
الحكماء لعلّهم انما لاحظوا فى ذلك العناية بالثمرات (4)
وهذا انما ثمرته كما رايت فى الاخبار فقط واذا كانت مسايله
فى ذاتها وباختصاصاتها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار
وهى ضعيفة فلهذا هجروه والله تعالى اعلم وما اوتيتم من العلم
الا قليلا (وهذا) الفن الذى لاح لنا النظر فيه نجد منه
مسايل تجرى بالعرض لاهل العلوم فى براهين
علومهم وهى من جنس مسايله بالموضوع والمطلب مثل ما
يذكره الحكماء فى اثبات النبوة من ان البشر متعاونون فى
وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثلما يذكر فى
اصول الفقه فى باب اثبات اللغات ان الناس محتاجون
للعبارة عن المقاصد بطبيعة (5) التعاون والاجتماع وشان
العبارات اخفّ ومثل ما يذكره الفقهاء فى تعليل الاحكام
الشرعيّة بالمقاصد فى ان الزنا مخلط للانساب مفسد للنوع
والقتل ايضا مفسد للنوع وان الظلم موذن بخراب العمران

(1) Man. A. اموالا.   (2) Man. A. B. D. متعلّقة.   (3) Man. B. بحيث.

(4) Man. A. فى الثمرات.   (5) Man. A et B. بطبيعية.

المقتضى فساد النوع وغير ذلك من ساير المقاصد الشرعيّة فى الاحكام وانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا فى هذه المسايل الممثلة وكذلك ايضا يقع الينا القليل من مسايله فى كلمات متفرّقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه (1) (فمن كلام الموبذان) لبهرام ابن بهرام فى حكاية البوم التى نقلها المسعودى ايّها الملك ان الملك لا يتمّ عزّه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرّف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عزّ للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الربّ وجعل له قيّما وهو الملك (ومن كلام انوشروان) فى هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح الاعمال واصلاح الاعمال باستقامة الوزراء وراس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها (2) حتى يملكها ولا تملكه وفى الكتاب المنسوب لارسطو فى السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه الا انه غير مستوفى ولا معطى حقّه من البراهين ومختلط بغيره وقد اشار فى ذلك

(1) Man. A. يستوفوا.　　(2) Man. C. تاديبها.

الكتاب الى هذه الكلّيات (1) التى نقلناها عن الموبذان انوشروان وجعلها فى الدايرة الغريبة التى اعظم القول فيها وهى قوله العالم بستان سياجه الدولة والدولة سلطان تحىّ به السنّة والسنّة سياسة يسوسها (2) الملك (3) الملك نظام يعضده الجند الجند اعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعيّة الرعية عبيد يكنفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم يرجع الى اول الكلام

فهذه ثمان كلمات حكميّة سياسيّة ارتبط بعضها ببعض وارتدّت اعجازها على صدورها واتّصلت فى دايرة لا يتعيّن طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوايدها وانت اذا تامّلت كلامنا فى فصل الملك والدول واعطيته حقّه من التصفّح والتفهّم عثرت فى اثنايه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفى مبيّنا باوعب بيان واوضح دليل وبرهان اطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة (4) الموبذان وكذلك نجد فى كلام ابن المقفّع وما يستطرد فى رسايله من ذكر السياسات الكثير (5) من مسايل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه انما يجلبها فى الذكر على منحى الخطابة فى اسلوب الترسيل وبلاغة الكلام وكذلك حوّم (6) القاضى ابو بكر

(1) Man. B. الكلمات.
(2) Man. B. يسومها.
(3) Man. D. الامام راع الامام.
(4) Man. B. فايدة.
(5) Man. A. et B. الكثيرة.
(6) Man. D. حزم.

الطرطوشى فى كتاب سراج الملوك وبوّبه على ابواب تقرب من ابواب كتابنا ومسايله لكنه لم يصادف فيه الرميّة ولا اصاب الشاكلة ولا استوفى المسايل ولا اوضح الادلّة انما يبوّب الباب للمسئلة ثم يستكثر الاحاديث والآثار وينقل كلمات متفرّقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والهوبذان وحكماء الهند والماثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من اكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعيّة حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ وكانّه حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقّق (1) قصده ولا استوفى مسايله ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما واعثرنا على علم جعلنا سنّ بكره وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسايله وميزت عن ساير الصنايع انظاره وانحاءه فتوفيق من الله وهداية وان فاتنى شئ فى احصايه واشتبهت بغيره مسايله فللناظر المحقّق اصلاحه ولى الفضل انّى نهجت له السبيل واوضحت الطريق والله يهدى بنوره من يشاء (ونحن) الآن نبيّن فى هذا الكتاب ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من احوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنايع بوجوه برهانيّة يتّضح بها التحقيق فى معارف الخاصّة والعامّة وتندفع بها الاوهام وترتفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان

(1) Man. B. تحقيق.

متميّزا عن ساير الحيوانات بخواصّ اختصّ بها فمنها العلوم والصنايع التى هى نتيجة الفكر الذى تميّز (1) به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهاميّ لا بفكر وروية ومنها السعى فى المعاش والاعتمال فى تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء فى حياته وبقايه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل فى مصر او حلّة للانس بالعشرة واقتضاء الحاجات لما فى طباعهم من التعاون على المعاش كما نبيّنه ومن هذا العمران ما يكون بدويّا وهو الذى يكون فى الضواحى والجبال وفى الحلل المنتجعة للقفار واطراف الرمال ومنه ما يكون حضريّا وهو الذى بالامصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصّن بجدرانها وله فى كل هذه الاحوال امور تحدث من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلاجرم انحصر الكلام فى هذا الكتاب فى ستّة فصول (الاول) فى العمران البشرىّ

(1) Man. A. et B. يتميّز.

على الجملة واصنافه وقسطه من الارض (الثانى) فى العمران البدوىّ وذكر القبايل والامم الوحشيّة (الثالث) فىّ الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانيّة (الرابع) فى العمران الحضرىّ والبلدان والامصار (الخامس) فى الصنايع والمعاش والكسب ووجوهه (السادس) فى العلوم واكتسابها وتعلّمها وقدّمت العمران البدوى لانه سابق على جميعها كما يتبيّن لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار واما تقديم المعاش فلانّ المعاش ضرورىّ طبيعىّ وتعلّم (1) العلم كمالىّ او حاجىّ والطبيعىّ اقدم من الكمالىّ وجعلت الصنايع مع الكسب لانّها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما يتبيّن بعد والله الموفّق

الفصل الاول من الكتاب الاول فى العمران البشرىّ على الجملة وفيه مقدّمات

(الاولى) فى ان الاجتماع للانسان ضرورىّ ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدنىّ بالطبع اى لا بدّ له من الاجتماع الذى هو المدينة فى اصطلاحهم وهو معنى العمران بيانه ان

(1) Man. A. et B. تعليم.

الله سبحانه خلق الانسان وركّبه على صورة لا تصحّ حياتها وبقاوها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله الّا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادّة حياته منه ولو فرضنا منه اقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين والات لا تتمّ الا بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفخّار هب انه ياكله (1) حبّا من غير علاج فهو ايضا يحتاج فى تحصيله حبّا الى اعمال اخر (2) اكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدرس الذى يخرج الحبّ من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى الات متعدّدة وصنايع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان توفى بذلك كله او ببعضه قدرة الواحد فلا بدّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من ابناء جنسه لتحصيل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا فى الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لانّ الله سبحانه لما ركّب الطبايع (3) الحيوانيّة كلها وقسم القدر بينها (4)

(1) Man. B. ياكل.

(2) Man. C. اخرى.

(3) Man. A. et C. الطباع.

(4) Ce mot manque dans les man. A. et B.

جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف من قدرته ولمّا كان العدوان طبيعيّا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختصّ بمدافعة ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيّئة للصنايع بخدمة الفكر والصنايع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعدّة فى ساير الحيوانات للدفاع مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النايبة عن المخالب الجارحة والتراس النايبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك وغيره مما ذكر جالينوس فى كتاب منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيّما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفى قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدّة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنايع والمواعين المعدّة لها فلا بدّ فى ذلك كله من التعاون عليه بابناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتمّ حياته لما ركّبه الله عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له ايضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله(1)

(1) Man. A. et C. يعالجه.

الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمّت حكمة الله فى بقايه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضرورىّ للنوع الانسانىّ والّا لم يكمل وجودهم (1) وما اراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه ايّاهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم وفى هذا الكلام نوع اثبات للموضوع فى فنّه الذى هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفنّ لما تقرّر فى الصناعة المنطقيّة انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع فى ذلك العلم فليس ايضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرّعات والله الموفّق بفضله (ثم) ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتمّ عمران العالم بهم فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانيّة من العدوان والظلم وليست السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم بكافية فى دفع العدوان بينهم لانّها موجودة لجميعهم فلا بدّ من شئ اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتّى لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو

(1) Man. A. وجوده.

معنى الملك وقد تبيّن لك بهذا انّه خاصّة للانسان طبيعيّة لا بدّ لهم منها وقد توجد فى بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما فى النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتّباع لرئيس من اشخاصها متميّز عنهم فى خلقه وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة اعطى كل شىء خلقه ثم هدى ويزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلىّ وانها خاصّة طبيعيّة للانسان فيقرّرون هذا البرهان الى غايته وانه لا بدّ للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ياتى به واحد من البشر يكون متميّزا عنهم بما يودع الله فيه من خواصّ هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تثريب وهذه القضيّة للحكماء غير برهانيّة كما ترى (1) اذ الوجود وحياة البشر قد تتمّ من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبيّة التى يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل الكتاب والمتّبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانّهم اكثر اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول (2) والآثار

(1) Man. B. et C. تراه.   (2) Man. B. الدولة.

فضلا عن الحياة وكذلك هى لهم لهذا العهد فى الاقاليم المنحرفة الى الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع البتّة فانه ممتنع وبهذا يتبيّن لك غلطهم فى وجوب النبوات وانه ليس بعقلىّ وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامّة والله ولى التوفيق والهداية

المقدّمة الثانية فى قسط العمران من الارض

والاشارة الى بعض ما فيه من البحار والانهار والاقاليم انه قد تبيّن فى كتب الحكماء الناظرين فى احوال العالم ان شكل الارض كرىّ وانّها محفوفة بعنصر الماء كانّها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما اراده الله تعالى من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشرىّ الذى له الخلافة على سايرها وقد يتوهّم من ذلك ان الماء تحت الارض وليس بصحيح وانّما التحت الطبيعىّ قلب الارض ووسط كرتها الذى هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها والماء المحيط بها فهو فوق وان قيل فى شئ منها انه تحت فبالاضافة الى جهة اخرى عنه وهذا (1) الذى انحسر عنه الماء من الارض هو النصف من

(1) Man. A. هو.

سطح كرتها فى شكل دايرة احاط العنصر المائى بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط ويسمى ايضا البلاية بتفخيم اللام الثانية ويسمى اوقيانوس اسماء اعجمية ويقال له البحر الاخضر والاسود (ثم) ان هذا المنكشف من الارض للعمران فيه القفار والخلاء اكثر من عمرانه والخالى من جهة الجنوب منه اكثر من جهة الشمال وانّما المعمور منه قطعة اميل الى جانب الشمال على شكل سطح كرىّ ينتهى من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خطّ كرىّ وراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصرىّ التى بينها سدّ ياجوج وماجوج وهذه الجبال مايلة الى جهة المشرق وينتهى من المشرق والمغرب الى عنصر الماء ايضا بقطعتين من الدايرة المحيطة وهذا المنكشف من الارض قالوا هو مقدار النصف من الكرة (1) او اقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخطّ الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الارض واكبر خط فى كرتها كما ان منطقة البروج ودايرة معدل النهار اكبر خطّ فى الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثماية وستين درجة والدرجة من مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخا والفرسخ اثنا عشر الف ذراع فى ثلاثة

(1) Man. A. الكرى.

اميال لان الميل اربعة آلاف ذراع والذراع اربعة وعشرون اصبعا والاصبع ست حبّات شعير مصفوفة ياحق بعضها الى بعض ظهرا لبطن وبين دايرة معدل النهار التى تقسم الفلك بنصفين وتسامت خطّ الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكنّ العمارة فى الجهة الشمالية من خط الاستواء اربعة وستّون درجة والباقى منها خلاء لا عمارة فيه لشدّة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبيّة خلاء كلها لشدّة الحرّ كما نبين ذلك كله ان شاء الله تعالى (ثم) ان المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الامصار والمدن والجبال والانهار والقفار والرمال مثل بطليموس فى كتاب الجعرافيا وصاحب كتاب رجار من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة اقسام يسمونها السبع الاقاليم بحدود وهميّة بين المشرق والمغرب متساوية فى العرض مختلفة فى الطول فالاقليم الاول اطول ممّا بعده وكذا الثانى الى آخرها فيكون السابع اقصر لما اقتضاه وضع الدايرة الناشية من انحسار الماء عن كرة الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة اجزاء من المغرب الى المشرق على التوالى وفى كل جزء الخبر عن احواله واحوال عمرانه وذكروا ان هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب فى الاقليم الرابع البحر الرومى المعروف يبدا فى خليج

متضايق فى عرض اثنى (١) عشر ميلا او نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا وينفسح الى عرض ستماية ميل ونهايته فى آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على الف فرسخ وماية وستّين فرسخا من مبدايه وعليه هناك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب اولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومى والشامى وفيه جزر كثيرة عامرة كبارها مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (١) قالوا ويخرج منه فى جهة الشمال بحران اخران من خليجين احدهما مسامت للقسطنطينية يبدا من هذا البحر متضايقا فى عرض رمية السهم ويمرّ ثلاثة مجار فيتّصل بالقسطنطينية ثم ينفسح فى عرض اربعة اميال ويمرّ فى جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستّة اميال فيمدّ بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك فى مذهبه الى ناحية الشرق فيمرّ بارض هريقلية وينتهى الى بلاد الخزرية على الف وثلثماية ميل من فوهته وعليه من الجانبين اسم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر

(١) Man. A. et C. اثنا.

(١) Ce mot est omis dans le man. B.

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

الثانى من خليج هذا البحر الروسى وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى شنت انجل انحرف فى سمت الغرب الى بلاد البنادقة وينتهى الى بلاد انكلابة على الف ومأية ميل من مبدايه وعلى ضفّتيه من البنادقة والروم وغيرهم امم ويسمى خليج البنادقة قالوا وينساح من هذا البحر المحيط ايضا من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة فى الشمال من خطّ الاستواء بحر عظيم متّسع يمرّ الى الجنوب قليلا حتى ينتهى الى الاقليم الاول ثم يمرّ فيه مغربا الى ان ينتهى فى الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى باب المندب منه على اربعة آلاف فرسخ وخمسماية فرسخ من مبدايه ويسمى البحر الصينىّ والهندىّ والحبشىّ وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التى ذكرها امرؤ القيس فى شعره وليسوا من البربر الذين هم قبايل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وارض الواق واق وامم اخرى ليس بعدهم الا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدايه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم البجة قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشىّ بحران اخران يخرج احدهما من نهايته عند باب المندب فيبداء متضايقا ثم يمرّ مستبحرا الى ناحية الشمال

ومغربا قليلا الى ان ينتهى الى مدينة القلزم فى الجزء الخامس من الاقليم الثانى على الف واربعماية ميل من مبدايه وهو بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدّة ثم مدين وايلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد البجة عند مبدايه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومى عند العريش وبينهما نحو ستّ مراحل وما زال الملوك فى الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتمّ ذلك والبحر الثانى من هذا البحر الحبشىّ ويسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمرّ الى ناحية الشمال مغربا قليلا الى ان ينتهى الى الابلّة من سواحل البصرة فى الجزء السادس من الاقليم الثانى وعلى اربعماية فرسخ واربعين فرسخا من مبدايه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابلّة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة والعمان والشحر والاحقاف عند مبدايه وفيما بين بحر فارس والقلزم هى جزيرة العرب كانّها دخلة (1) من البرّ فى البحر يحيط بها البحر الحبشىّ من الجنوب وبحر

(1) Man. A. et B. داخلة.

القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضى الى العراق فيما بين الشام والبصرة على الف وخمسماية ميل بينهما وهناك الكوفة والقادسية وبغداذ وايوان كسرى والحيرة ووراء ذلك امم الاعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفى جزيرة العرب بلاد الحجاز فى جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان فى جهة الشرق منها وبلاد اليمن فى جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشىّ (قالوا) وفى هذا المعمور بحر اخر منقطع عن ساير البحار فى ناحية الشمال وبارض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طوله الف ميل فى عرض ستماية ميل فى غربيه اذربيجان والديلم وفى شرقيه ارض الترك وخوارزم وفى جنوبيه طبرستان وفى شماليه ارض الخزر واللان هذه جملة البحار المشهورة التى ذكرها اهل جغرافيا (قالوا) وفى هذا الجزء المعمور انهار كثيرة اعظمها اربعة انهار وهى النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فاما النيل) فمبداؤه من جبل عظيم وراء خطّ الاستواء بست عشر درجة وعلى سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القُمر ولا يعلم فى الارض جبل اعلا منه تخرج منه عيون كثيرة فيصبّ بعضها فى بحيرة هناك وبعض فى اخرى ثم تخرج انهار من البحيرتين فتصبّ كلها فى بحيرة

واحدة عند خطّ الاستواء وعلى عشرة مراحل من الجبل ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب احدهما الى ناحية الشمال وعلى سمته ويمرّ ببلاد النوبة ثم ببلاد مصر فاذا جاوزها تشعّب فى شعب متقاربه يسمى كل واحد منها خليجا وتصبّ كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الاخر منعطفا الى الغرب ثم يمرّ على سمته الى ان يصبّ فى البحر المحيط وهو (1) نيل السودان واممهم كلهم على ضفّتيه (وامّا الفرات) فمبداؤه من بلاد ارمينية فى الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمرّ جنوبا فى ارض الروم وملطية الى منبج ثم يمرّ بصفّين ثم بالرقّة ثم بالكوفة الى ان ينتهى الى البطحاء التى بين البصرة وواسط ومن هنالك يصبّ فى البحر الحبشىّ وتتجلّب اليه فى طريقه انهار كثيرة ويخرج منه انهار اخرى تصبّ فى دجلة (واما دجلة) فمبداؤها عيون ببلاد خلاط من ارمينية ايضا ويمرّ على سمت الجنوب بالموصل واذربيجان وبغداذ الى واسط فيتفرّق فى خلجان تصبّ كلها فى بحيرة البصرة وتفضى الى بحر فارس وهو فى الشرق عن نهر الفرات وتتجلّب اليه انهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات

(1) Man A. اهل.

ودجلة من اوله (1) جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتى الفرات وقبالة اذربيجان من عدوتى دجلة (واما نهر جيحون) فمبدؤه من بلخ فى الجزء الثانى من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتنجلب اليه انهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمرّ ببلاد خراسان ويخرج منها الى بلاد خوارزم فى الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصبّ فى بحيرة الجرجانية التى باسفل مدينتها وهى مسيرة شهر فى مثله واليها ينصبّ نهر فرغانة والشاش الآتى من (2) بلاد الترك وعلى غربى نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارا والترمذ وسمرقند ومن هنالك الى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخرلجية وامم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه والشريف فى كتاب رجار وصوّروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والاودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله وان عنايتنا فى الاكثر انما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر وبالاوطان التى للعرب من الشرق (3) والله واهب المعونة

(1) Le man. C. ajoute هى.

(2) Man. A. et B. فى

(3) Man. D. التى فى المغرب والمشرق.

تكملة لهذه المقدّمة الثانية

فى ان الربع الشمالى من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبىّ وذكر السبب فى ذلك نحن نرى بالمشاهدة والاخبار المتواترة ان الاول والثانى من الاقاليم المعمورة اقلّ عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندى الذى فى الشرق منها وامم هذين الاقليمين واناسيّهما ليست لهم الكثرة البالغة وامصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيهما قليلة والرمال كذلك او معدومة واممها واناسيها بحر زاخر من الكثرة وامصارهما ومدنهما تجاوز الحدّ عددا والعمران فيهما متدرّج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كلّه وقد ذكر كثير من الحكماء ان ذلك لافراط الحرّ وقلّة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤس فلنوضح ذلك ببرهانه ويتبيّن منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع فنقول ان قطبى الفلك الجنوبىّ والشمالىّ اذا كانا على الافق فهناك دايرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هى اعظم الدواير المارّة من المغرب الى المشرق وتسمى دايرة معدل النهار وقد تبيّن فى موضعه من الهيئة ان الفلك الاعلى متحرّك من المشرق الى

المغرب حركة يوميّة يتحرك بها ساير الافلاك التى فى جوفه قسرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبيّن ان للكواكب فى افلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهى من المغرب الى المشرق وتختلف آمادها باختلاف حركات الكواكب فى السرعة والبطوء وممرّات هذه الكواكب فى افلاكها توازيها كلّها دايرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه بنصفين وهى دايرة فلك البروج منقسمة باثنى عشر برجا وهى على ما تبيّن فى موضعه مقاطعة لدايرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما اوّل الحمل واول الميزان فتقسمها دايرة معدل النهار بنصفين نصف مايل عن معدل النهار الى الشمال وهو من اوّل الحمل الى آخر السنبلة ونصف مايل عنه الى الجنوب وهو من اول الميزان الى آخر الحوت فاذا وقع القطبان على الافق فى جميع نواحى الارض كان على سطح الارض خطّ واحد يسامت دايرة معدل النهار يمرّ من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا فى مبداء الاقليم الاول من الاقاليم السبعة والعمران كلّه فى الجهة الشماليّة عنه والقطب الشمالىّ يرتفع على آفاق هذا المعمور بالتدريج الى ان ينتهى ارتفاعه الى اربع وستّين درجة وهناك ينقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع واذا ارتفع على

الافق تسعين درجة وهى التى بين القطب ودايرة معدل
النهار صار القطب على سمت الرؤس وصارت دايرة معدل
النهار على الافق وبقيت ستّة من البروج فوق الافق وهى
الشماليّة وستّة تحت الارض وهى الجنوبيّة والعمارة فيما
بين الاربعة والستّين الى التسعين ممتنعة لانّ الحرّ والبرد
حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل
تكوين فاذن الشمس تسامت الرؤس على خطّ الاستواء فى
رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة الى رأس السرطان
والى رأس الجدى وتكون نهاية ميلها عن دايرة معدل النهار
اربعا وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالىّ عن الافق
مالت دايرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه
وانخفض القطب الجنوبىّ كذلك بمقدار متساو فى الثلاثة
وهو المسمى عند اهل المواقيت عرض البلد واذا مالت دايرة
معدل النهار عن سمت الرؤس علت عليها البروج الشماليّة
متدرّجة فى مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت البروج
الجنوبيّة عن الافق (1) كذلك الى رأس الجدى لانحرافها
الى الجانبين فى افق الاستواء كما قلناه فلا يزال الافق
الشمالىّ يرتفع حتى يصير ابعد الشماليّة وهو رأس السرطان
فى سمت الرؤس وذلك حيث يكون عرض البلد اربعا

(1) Man. A. et B. لذلك.

وعشرين فى الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذى مال
راس السرطان عن معدل النهار فى افق الاستواء ارتفع بارتفاع
القطب الشمالى حتى صار مسامتا فاذا ارتفع القطب اكثر من
اربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال فى انخفاض
الى ان يكون ارتفاع القطب اربعا وستّين ويكون انخفاض الشمس
عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبىّ عن
الافق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه
غير ممتزج بالحرّ ثم ان الشمس عند المسامتة وما يقاربها
تبعث الاشعّة على الارض على زوايا قايمة وفيما دون المسامتة
على زوايا منفرجة وحادّة واذا كانت زوايا الاشعّة قايمة عظم
الضوء وانتشر بخلافه فى المنفرجة والحادّة فلهذا يكون الحرّ
عند المسامتة وما قرب منها اكثر منه فيما بعد لانّ الضوء
سبب الحرّ والتسخين ثمّ ان المسامتة فى خطّ الاستواء تكون
مرّتين فى السنة عند نقطتى الحمل والميزان واذا مالت فغير
بعيد ولا يكاد الحرّ يعتدل فى آخر ميلها عند راس السرطان
والجدى الّا وقد صعدت الى المسامتة فتبقى الاشعّة
القايمة الزوايا تلحّ على ذلك الافق ويطول مكثها
او يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط فى شدّتها
وكذا ما دامت الشمس تسامت مرّتين فيما بعد
خطّ الاستواء الى عرض اربعة وعشرين فان الاشعّة ملحّة على

الافق فى ذلك الافق بقريب من الحاجها فى خطّ الاستواء وافراط الحرّ يفعل فى الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لانّه اذا افرط الحرّ جفّت المياه والرطوبات وفسد التكوين فى المعدن والنبات والحيوان اذ التكوين لا يكون الّا بالرطوبة ثم اذا مال راس السرطان عن سمت الرؤس فى عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحرّ الى الاعتدال او يميل عنه قليلا فيكون التكوين ويزيد على التدريج الى ان يفرط البرد فى شدّته بقلّة الضوء وكون الاشعّة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الّا ان فساد التكوين من جهة شدّة الحرّ اعظم منه من جهة شدّة البرد لانّ الحرّ اسرع تاثيرا فى التجفيف من تاثير البرد فى الجمد فلذلك كان العمران فى الاقليم الاول والثانى قليلا وفى الثالث والرابع والخامس متوسّطا لاعتدال الحرّ بنقصان الضوء وفى السادس والسابع كثيرا لنقصان الحرّ وان كيفيّة البرد لا تؤثر عند اولها فى فساد التكوين كما يفعل الحرّ اذ لا تجفيف فيها الّا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران فى الربع الشمالىّ اكثر واوفر والله تعالى اعلم (ومن هنا) اخذ الحكماء خلاء خطّ الاستواء وما وراءه واورد (1) عليهم انّه معمور بالمشاهدة (2)

(1) Man. D. ردّ.

(2) Man. A. ajoute والخبر

والاخبار المتواترة فكيف يتمّ البرهان على ذلك والظاهر انّهم لم يردوا امتناع العمران فيه بالكلّيّة انما اداهم البرهان الى ان فساد التكوين فيه قوى بافراط الحرّ فالعمران فيه امّا ممتنع او ممكن أقلّىّ وهو كذلك لانّ خطّ الاستواء والذى وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدّا وقد زعم ابن رشد ان خطّ الاستواء معتدل وان ما وراءه فى الجنوب فى مثابة ما وراءه فى الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خطّ الاستواء فى الجنوب من جهة ان العنصر الماءىّ غمر (1) وجه الارض هنالك الى الحدّ الذى كان مقابله من الجهة الشماليّة قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لانّ العمران متدرّج وياخذ فى التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وامّا القول بامتناعه فى خطّ الاستواء فيردّه النقل والله سبحانه اعلم (ولنرسم) بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب رجار ثم ناخذ فى تفصيل الكلام عليها الى آخره

(1) Man. A. غير. Man. C. عمّ.

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

وهو على نوعين مفصّل ومجمل فالمفصّل هو الكلام فى بلدان هذا المعمور وجباله وبحاره وانهاره واحدا واحدا وسياتى فى الفصل بعد هذا واما المجمل فالكلام فى انقسام المعمور بالاقاليم السبعة وذكر عروضها وساعات نهارها وهو الذى تضمنه هذا الفصل فناخذ فى بيانه وقد تقدّم لنا انّ الارض طافية على الماء العنصرىّ كالعنبة فانكشف كذلك بعضها بحكمة الله فى العمران والتكوين العنصرىّ فيقال ان هذا المنكشف هو النصف من سطح الارض فالمعمور منه ربعه والباقى خراب وقيل المعمور سدسه فقط فالخلاء من هذا المنكشف فى جهتى الجنوب والشمال والعمران بينهما متّصل من الغرب الى الشرق وليس بينه وبين البحر من الجهتين خلاء قالوا وفيه خطّ وهمىّ يمرّ من المغرب الى المشرق مسامتا لدايرة معدل النهار حيث يكون قطبا الفلك على الافق هذا (1) اول العمران الى ما بعده من الشمال وقال بطليموس بل بعده فى جهة الجنوب عمران وقدره بعرض البلد كما ياتى وعند اسحق بن الحسن الخازنى ان وراء الاقليم السابع عمرانا اخر وقدّره بعرض بلده كما نذكر وهو من ايمّة

(1) Man. B. هو.

هذه الصناعة (ثم) ان الحكماء قديما قسموا هذا المعمور فى جهة الشمال بالاقاليم السبعة بخطوط وهمية آخذة من المغرب الى المشرق وعروضها مختلفة عندهم كما ياتى تفصيله فالاقليم الاول منها مارّ مع خطّ الاستواء من جهة شماليه وليس فى جنوبه الّا تلك العمارة التى اشار اليها بطليموس وبعدها القفار والرمال الى دايرة الماء المسمّاة بالبحر المحيط ويليه من جهة شماليه الاقليم الثانى كذلك ثم الثالث ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران فى جهة الشمال وليس وراءه الّا الخلاء والقفار الى البحر المحيط ايضا لانّ الخلاء فى جهة الجنوب اكثر منه فى جهة الشمال بكثير (وامّا عروض) هذه الاقاليم وساعات نهارها فاعلم ان قطبى الفلك يكونان فى خطّ الاستواء على الافق من غربه الى شرقه والشمس تسامت رؤس اهله فاذا بعد العمران الى جهة الشمال ارتفع القطب الشمالىّ قليلا وانخفض الجنوبىّ مثله وبعدت الشمس عن دايرة معدل النهار الى سمته بمثل ذلك وصارت هذه الابعاد الثلاثة متساوية يسمّى كل واحد منها عرض البلد كما هو معروف عند اهل المواقيت وقد اختلف الناس فى مقدار هذه العروض ومقدارها فى الاقاليم فالذى عند بطليموس ان عرض المعمور كله سبع وسبعون درجة ونصف فعرض المعمور خلف خطّ الاستواء الى الجنوب منها

احدى عشر درجة وستّ وستّون درجة ونصف هى عرض الاقاليم الشمالية الى آخرها فعرض الاقليم الاول منها عنده ستّ عشر درجة والثانى عشرون والثالث سبع وعشرون والرابع ثلاث وثلاثون والخامس ثمان وثلاثون درجة والسادس ثلاث واربعون والسابع ثمان واربعون (ثم) فقدّر الدرجة فى الفلك بستّة وستّين ميلا وثلثى ميل من مسافة الارض فيكون اميال الاقليم الاول ما بين الجنوب والشمال الف ميل وسبعة وستون ميلا واميال الاقليم الثانى معه الفا ميل وثلثماية ميل وثلاثة وثلاثون ميلا واميال الثالث معهما الفا ميل وسبعماية وتسعين والرابع معها الفين وماية وخمسة وثمانين والخامس الفين وخمسماية وعشرين والسادس الفين وثمانماية واربعين والسابع ثلاثة آلاف وماية وخمسين (ثمّ) انّ ازمنة الليل والنهار تتفاوت فى هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دايرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالىّ عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار او الليل لذلك وينتهى اطول الليل والنهار فى آخر الاقليم الاول عند حلول الشمس براس الجدى وبراس السرطان للنهار كل واحد منهما عند بطليموس الى اثنى عشرة ساعة ونصف وينتهيان فى آخر الاقليم الثانى الى ثلاث عشرة ساعة وفى آخر الاقليم الثالث الى ثلاث عشرة ساعة ونصف وفى آخر الرابع الى اربع عشرة

ساعة وفى آخر الخامس بزيادة نصف ساعة وفى آخر السادس الى خمس عشرة ساعة وفى آخر السابع بزيادة نصف ساعة ويبقى للاقصر من النهار والليل ما يبقى بعد هذه الاعداد (1) من جملة اربعة وعشرين من الساعات الزمانيّة لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة فيكون تفاوت هذه الاقاليم فى الاطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم تزيد من اوله فى ناحية الجنوب الى آخره فى ناحية الشمال موزّعة على اجزاء هذا البعد وعند اسحق بن الحسن الخازنى ان عرض المعمور ان الذى وراء خطّ الاستواء ستّ عشر درجة وخمسة وعشرون دقيقة واطول ليله ونهاره ثلاث عشر ساعة وعرض الاقليم الاول وساعاته مثل الذى وراء خطّ الاستواء وعرض الاقليم الثانى اربع وعشرون درجة وساعاته عند آخره ثلاث عشرة ساعة ونصف وعرض الثالث ثلاثون درجة وساعاته اربع عشرة ساعة وعرض الرابع ستّة وثلاثون درجة وساعاته اربع عشر ساعة ونصف وعرض الخامس احدى واربعون درجة وساعاته خمس عشرة ساعة وعرض السادس خمس واربعون درجة وساعاته خمس عشر ساعة ونصف وعرض السابع ثمان واربعون درجة ونصف وساعاته ستّ عشرة ساعة ثم ينتهى عرض العمران وراء

(1) Man. C. et D. بعد الثلاثة عشر ونصف.

السابع من عند آخره الى ثلاث وستّين درجة وساعاته الى عشرين ساعة وعند غير اسحق الخازنى من ايمّة هذا الشاٴن ان عرض الذى وراء خطّ الاستواء ستّ عشر درجة وسبع وعشرون دقيقة وعرض الاقليم الاول عشرون درجة وخمس عشر دقيقة والثانى سبع وعشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة والثالث ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة والرابع ثمان وثلاثون درجة ونصف درجة والخامس ثلاث واربعون درجة والسادس سبع واربعون درجة وثلاث وخمسون دقيقة وقيل فيه ستّ واربعون درجة وخمسون دقيقة والسابع احدى وخمسون درجة وثلاث وخمسون دقيقة والعمران وراء السابع سبع وسبعون درجة وعند ابى جعفر الخازنى من ايمّتهم ايضا ان عرض الاقليم الاول من درجة الى عشرين وثلاث عشرة دقيقة والثانى الى سبع وعشرين وثلاث عشرة دقيقة والثالث الى ثلاث وثلاثين وتسع وثلاثين دقيقة والرابع الى ثمان وثلاثين وثلاث وعشرين دقيقة والخامس الى اثنين واربعين وثمان وخمسين دقيقة والسادس الى سبع واربعين ودقيقتين والسابع الى خمسين وخمس واربعين دقيقة هذا ما حضرنى من اختلافهم فى العروض والساعات والاميال لهذه الاقاليم والله خلق كلّ شئ فقدّره تقديرا (فصل) والمتكلّمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة فى

طوله من المغرب الى المشرق بعشرة اجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كلّ جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها فى المسالك ونحن الآن نوجز القول فى ذلك باختصار ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحر فى كل جزء منها ونحاذى (1) بذلك ما وقع فى كتاب نزهة المشتاق الذى الّفه العلوىّ الادريسىّ الحمودى لملك صقلية من الافرنج وهو رجار بن رجار عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج سلفه عن امارة مالقة وكان تاليفه للكتاب فى منتصف الماية السادسة وجمع له كتب جمّة للمسعودى وابن خراذابه والحوقلى والعذرى واسحق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبداء منها بالاقليم الاول الى آخرها

الاقليم الاول

وفيه من جهة غربيه الجزاير الخالدات التى منها بداء بطليموس باخذ اطوال البلاد وليست فى بسيط الاقليم وانّما هى فى البحر المحيط جزر متكثّرة اكبرها واشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا ان سفاين من الافرنج مرّت بها فى اواسط هذه الماية وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض

(1) Man. A. نحـزى. B. نجازى.

اسراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلّموا اللسان العربى اخبروا عن حال جزيرتهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يلوحونها (1) الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزاير الا بالعثور لا بالقصد اليها لانّ سفر السفن فى البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابّها والى اين توصل اذا مرّت على الاستقامة من البلاد التى فى ممرّ ذلك المهبّ واذا اختلف المهبّ وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به القلع محاذاة تحمل السفينة بها على قوانين فى ذلك محصّلة عند النواتية والملّاحين الذين هم روساء السفر فى البحر والبلاد التى حفافى البحر الرومى وفى عدوتيه مكتوبة كلها فى صحيفة على شكل ما هى عليه فى الوجود وفى وضعها فى سواحل البحر على ترتيبها ومهابّ الرياح وممرّاتها على اختلافها مرسوم معها فى تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص (2) وعليها يعتمدون فى اسفارهم وهذا كلّه مفقود فى البحر المحيط فلذلك لاتلجج فيه السفن لانّها ان غابت عن مرائى السواحل فقلّ ان تهتدى الى الرجوع

(1) Man. D. يرمونها.

(2) Man. A. الكنباص.

اليها مع ما ينعقد فى جوّ هذا البحر وعلى صفح مايه (1) من الابخرة المهانعة للسفن فى مسيرها .وهى لبعدها لا تدركها اضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحلّلها (2) فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها (واما الجزء الاول) من هذا الاقليم ففيه مصبّ النيل الآتى، من مبدايه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصبّ فيه عند جزيرة اوليل (3) وعلى هذا النيل مدينة سلى وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد فى ملكة اهل مالى من امم السودان والى بلاده يسافر تجّار المغرب الاقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وساير طوايف الملثمين مفاوز يجولون فيها وفى جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفّار ويكتبون فى وجوههم واصداغهم واهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجّار فيجلبونهم الى المغرب ومنهم عامّة رقيقهم وليس وراءهم فى الجنوب عمران يعتبر الّا اناسى اقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الغياض والكهوف وياكلون العشب والحبوب غير مهيئة (4) وربّما ياكل بعضهم بعضا وليسوا فى اعداد البشر وفواكه بلاد السودان كلّها من قصور صحراء

(1) Man. B. سفح.

(2) Man. C. فتخللها

(3) Man. C. اوليك.

(4) Man. A. مهيات.

المغرب مثل توات وتيكورارين ووارگلان (1) وكان فى
غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلوية يعرفون ببنى
صالح وقال صاحب كتاب رجار انه صالح بن عبد الله
بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا فى ولد عبد
الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت
غانة لسلطان مالى وفى شرقى هذه البلاد فى الجزء الثالث
من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال
هنالك ويمرّ مغربا فيغوص فى رمال الجزء الثانى وكان
ملك كوكو قايما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالى
واصبحت فى ملكته وخربت لهذا العهد من اجل فتنة
وقعت هنالك نذكرها عند ذكر دولة اهل مالى فى محلّها
من تاريخ البربر وفى جنوبى بلاد كوكو بلاد كانم من
امم السودان وبعدهم ونكارة (2) على ضفّة النيل من شماليه وفى
شرقى بلاد ونكارة وكانم بلاد زغاى (3) وتاجرة المتّصلة بارض
النوبة فى الجزء الرابع من هذا الاقليم (وفيها) يمرّ نيل مصر
ذاهبا من مبدايه عند خطّ الاستواء الى البحر الرومى فى
الشمالى ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذى فوق خطّ
الاستواء بستّ عشرة درجة واختلفوا فى ضبط هذه اللفظة

(1) Man A. مراركلان. B. قراركلان.

(2) Man. C. et D. ونقارة.

(3) Man. C. زغانة, D. زغاوة.

فبعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدّة بياضه وكثرة ضوئه وفى كتاب المشترك لياقوت بضمّ القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من اهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون يجتمع كل خمسة منها فى بحيرة وبينها ستّة اميال وتخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة انهار تجتمع كلها فى بطيحة واحدة فى اسفلها جبل معترض يشقّ البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمرّ الغربى منه الى بلاد السودان مغربا حتّى يصبّ فى البحر المحيط ويخرج الشرقى منه ذاهبا الى الشمال فى بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم فى اعلا ارض مصر فيصبّ ثلاثه من جداوله فى البحر الرومى عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصبّ واحد فى بحيرة ملحة قبل ان يتّصل بالبحر وفى وسط هذا الاقليم الاول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى اسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهى فى غربى هذا النيل وبعدها علوة (1) وبلاق (2) وبعدهما جبل الجنادل على ستّة مراحل من بلاق فى الشمال وهو جبل عالى من جهة مصر منخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصبّ فى مهوى بعيد صبّا مهولا فلا يمكن ان تسلكه

(1) Man. A. et B. غلو.
(2) Man. A. et B. يلاق.

المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل
على الظهر الى بلاد اسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب
الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل واسوان ثنتى
عشر مرحلة والواحات فى غربيها عدوة النيل وهى الآن
خراب وبها آثار العمارة القديمة (وفى) وسط هذا الاقليم فى
الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد ياتى من وراء خطّ
الاستواء ويمرّ قبالة مقدشو التى فى جنوب البحر الهندى
ذاهبا الى ارض النوبة فيصبّ هنالك فى النيل الهابط الى
مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر
وبطليموس ذكره فى كتاب الجعرافيا وذكر انه ليس من
هذا النيل والى وسط هذا الاقليم من هذا الجزء الخامس
ينتهى بحر الهند الذى يدخل من ناحية الصين ويغمر
عامّة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران
الّا ما كان فى الجزاير التى فى داخله وهى متعدّدة يقال
تنتهى الى الف جزيرة او فيما على سواحله الجنوبيّة وهى
آخر المعمور فى الجنوب وفيما على سواحله من جهة
الشمال وليس منها فى هذا الاقليم الاول الّا طرف من بلاد
الصين فى جهة المشرق وبلاد اليمن فى الجزء السادس من
هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر
الهندى الى جهة الشمال وهما بحر القلزم وبحر فارس وفيما

بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندى وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما يليهما كما نذكر في الاقليم الثانى وما بعده فامّا الذى على ساحل هذا البحر غربيه فبلد زالع من اطراف الحبشة ومجالات البجّة في شمالى الحبشة ما بين جبل العلاقى الذى في اعالى الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندى الى ارض مصر وتحت بلد زالع من جهة الشمال في هذا البحر خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب الهائل (1) في وسط البحر الهندى ممتدّا مع ساحل اليمن الغربى من الجنوب الى الشمال في طول اثنى عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى ان يصير في عرض ثلاثة اميال او نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمرّ مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من امم السودان كما ذكرنا ومن شرقيه تهايم اليمن على ساحله ومنها بلد حلى بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربرا يتلو بعضها بعضا وتنعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليها هنالك

(1) Man. B. المايل.

من جهة شرقها بلاد الزنج وبعدها مدينة مقدشو وهى مدينة مستبحرة العمارة بدويّة الاحوال كثيرة التجّار على ساحل البحر الهندى من جنوبيه ثم يليها شرقا بلاد سفالة (1) على ساحله الجنوبى فى الجزء السابع من هذا الاقليم وفى شرقى بلاد سفالة من ساحله الجنوبى بلاد الواق واق متّصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم وعند مدخل هذا البحر من البحر المحيط (واما) جزاير هذا البحر فكثيرة ومن اعظمها جزيرة سرنديب مدوّرة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس فى الارض اعلا منه وهى قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهى جزيرة مستطيلة تبداء من قبالة ارض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى ان تقرب من سواحل اعالى الصين وتحتفّ بها فى هذا البحر من جنوبيها جزاير الواق واق ومن شرقيها جزاير السيلا الى جزاير اخرى فى هذا البحر كثيرة العدد وفيها انواع الطيوب والافاوية (2) وفيما يقال معادن الذهب والزمرد وعامّة اهلها على دين المجوسيّة وفيهم ملوك متعدّدون وبهذه الجزاير من احوال العمران عجايب ذكرها اهل الجغرافيا وعلى الضفّة الشمالية من هذا البحر وفى الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم

(1) Man. A. et B. سافلة.

(2) Man. A. B. C. الافاوا.

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقرّ الايمّة الزيديّة وهى بعيدة عن البحر الجنوبى وعن البحر الشرقى وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفى شمالها صنعا وبعدهما الى الشرق ارض الاحقاف وظفار وبعدها ارض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبى وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هى التى انكشف عنها البحر من اجزاء هذا الاقليم الوسطىّ وينكشف بعدها قليل من التاسع واكثر منه فى العاشر فيه اعالى بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة مدينة خانكو وقبالتها من جهة المشرق جزاير السيلا وقد تقدّم ذكرها وهذا آخر الكلام فى الاقليم الاول

الاقليم الثانى

وهو متّصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه فى البحر المحيط جزيرتان من الجزاير الخالدات التى مرّ ذكرها فى الجزء الاول والثانى منه فى الجانب الاعلا منهما ارض قمنورية وبعدها فى جهة المشرق اعالى ارض غانة ثم مجالات زغاى (1) من السودان وفى الجانب الاسفل منها صحراء نيسرة (2) متّصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز

(1) Man. C. زغاوة.

(2) Man. C. نيسر.

يسلك فيها التجّار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كدالة ولمتونة ومسوفة (1) ولمطة ووتريكة (2) وعلى سمت هذه المفاوز شرقا ارض فزان (3) ثمّ مجالات ازكار من قبايل البربر ذاهبة الى اعالى الجزء الثالث على سمتها فى الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من امم السودان ثم قطعة من ارض التاجوين وفى اسافل هذا الجزء الثالث وهى جهة الشمال منه بقية ودان (4) وعلى سمتها شرقا ارض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفى الجزء الرابع من اعلاه بقيّة ارض التاجوين ثم تعترض فى وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حفافى النيل الذاهب من مبدايه فى الاقليم الاول الى مصبّه فى البحر فيمرّ فى هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه وعليه من اعلاه بلد اسنا وارمنت وتتّصل كذلك حفافيه الى اسيوط وقوص ثم الى صول ويفترق النيل هنالك شعبتين ينتهى الايمن منهما فى هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما اعالى ديار مصر وفى الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب وذاهبة فى الجزء الخامس

(1) Man. A et B. مسوقة.

(2) Man. C. وزيكة.

(3) Man. A. B. C. قران.

(4) Man. A. السودان.

الى ان تنتهى الى ارض بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندى فى الجنوب الى جهة الشمال وفى عدوته الشرقية من هذا الجزء ارض الحجاز من جبل يلملم الى بلد يثرب وفى وسط الحجاز بلد مكّة شرفها الله تعالى وفى ساحلها جدّة مقابل بلد عيذاب فى العدوة الغربيّة من هذا البحر وفى الجزء السادس من غربيه بلاد نجد اعلاها فى الجنوب جرش وتبالة الى عكاظ من الشمال وتحت بلاد نجد بقيّة ارض الحجاز وعلى سمتها فى الشرق بلاد نجران وجند وتحتهما ارض اليمامة وعلى سمت نجران فى الشرق ارض سبا ومارب ثم ارض الشحر وتنتهى الى بحر فارس وهو البحر الثانى الهابط من البحر الهندى الى الشمال كما مرّ ويذهب فى هذا الجزء بانحراف الى الغرب فيغمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلّثة عليها من اعلاه مدينة قلهات وهى ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها فى آخر الجزء وفى الجزء السابع ثم فى الاعلا من غربيه قطعة من بحر فارس تتّصل بالقطعة الاخرى فى السادس ويغمر بحر الهند جانبه الاعلا كلّه وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران منه وتقابلها بلاد الطوبران وهى من السند ايضا فيتّصل السند كلّه فى الجانب الغربى من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين

ارض الهند ويمرّ فيه نهره الآتى من ناحية بلاد الهند ويصبّ
فى البحر الهندى فى الجنوب واوّل بلاد الهند على ساحل
البحر الهندى وفى سمتها شرقا بلاد بلهرا (1) وتحتها
الملتان بلد الصنم العظيم عندهم ثم اسفل من الهند اعالى
بلاد سجستان وفى الجزء الثامن من غربيه بقيّة بلاد بَلَهْرا
من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار فى
الجانب الاعلى على ساحل البحر الهندى وتحتها من
الجانب الاسفل ارض كابل وبعدهما شرقا الى البحر المحيط
بلاد القنوج وما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند
آخر الاقليم وفى الجزء التاسع ثم فى الجانب الغربى منه
بلاد الهند الاقصى وتتّصل فيه الى الجانب الشرقى فتتّصل
من اعلاه الى العاشر وتبقى فى اسفل ذلك الجانب
قطعة من بلاد الصين فيها مدينة خيفون (2) ثم تتّصل بلاد
الصين فى الجزء العاشر كله الى البحر المحيط

(1) Man. A. بكهرا.

(2) Man. A. خيغون.

الاقليم الثالث

هو متصل بالثانى من جهة الشمال ففى الجزء الاول وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر امم لا يحصيهم الّا خالقهم حسبما ياتى ذكره وفى القطعة التى بين هذا الجبل والاقليم الثانى وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة وتتّصل به شرقا بلاد سوس ونول (1) وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نيسر المفازة التى ذكرناها فى الاقليم الثانى وهذا الجبل مطلّ على هذه البلاد كلّها فى هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك فى هذه الناحية الغربية الى ان يسامت وادى ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى ان ينتهى وفى هذه الناحية منه امم المصامدة فسكسيوة (2) عند البحر المحيط ثم هتنانة (3) ثم تينملل (4) ثم كدميوة ثم هسكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبايل صناكة وهم صنهاجة ثم فى آخر هذا الجزء منه بعض قبايل زناتة ويتّصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك امم اخرى من البرابرة نذكرهم فى اماكنهم ثم ان جبل درن هذا من جهة

(1) Lisez نون.

(2) Man. A. فسكيوة.

(3) Man. C. هنتاتة.

(4) Ibid. نيتمال.

غربيه مطلّ على بلاد المغرب الاقصى وهى. فى جوفيه ففى الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط اسفى ومدينة سلا وفى الشرق عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هى التى تسمى المغرب الاقصى فى عرف اهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلد ارصيلا والعرايش وفى سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفى سواحلها على البحر الرومى بلد هنين ووهران والجزاير لان هذا البحر الرومى يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة فى الناحية الغربية من الجزء الرابع ويذهب مشرقا فينتهى الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل فى الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده تبتدى من طنجة الى القصر الصغير ثم سبتة ثم بادس ثم غساسة ثم يتّصل ببلد الجزاير من شرقيها بلد بجاية فى ساحل البحر ثم قسطنطينة (1) فى الشرق عنها وفى آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر وفى جنوبىّ هذه البلاد مرتفعا الى جنوب المغرب الاوسط بلد شير بجبل تيطرى ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل اوراس المتّصل بدرن

(1) Man. A. قسطينة. Man. B. قسنطينة. Man. C. قسطنطينية.

كما مرّ وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثانى من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول يمرّ جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومى مسافة من شماله فالقطعة الجنوبيّة عن جبل درن غربها كله مفاوز وفى الشرق منها بلد غدامس وفى سمتها شرقا ارض ودان التى بقيّتها بالاقليم الثانى كما مرّ والقطعة الجوفيّة عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومى فالغربى منها جبل اوراس وتبسة والاربس وعلى ساحل هذا البحر بلد بونة ثم فى سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفى جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفراوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وشلات وسُبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلاد طرابلس على البحر الرومى وبازايها بالجنوب جبال دمر ومقرة من قبايل هوارة متّصلة بجبل درن وفى مقابله غدامس التى نذكرها فى آخر القطعة الجنوبيّة وآخر هذا الجزء فى الشمرق سويقة (1) ابن مثكود على البحر وفى جنوبها مجالات العرب فى ارض ودان والجزء الثالث من هذا الاقليم يمرّ فيه ايضا جبل درن الّا انه ينعطف عند آخره

(1) Man. A. سويقية.

الى الشمال فيذهب على سمته الى ان يدخل فى البحر الرومى ويسمّى هناك طرف اوثان والبحر الرومى من شماليه غمر طايفة منه الى ان تضايق ما بينه وبين جبل درن فالذى وراء الجبل فى الجنوب وفى الغرب منه بقيّة ارض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء فى الشرق وفيما بين الجبل والبحر فى الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلا وقفار تجول فيها العرب ثم اجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طليمثة (1) على البحر هنالك ثم فى شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفى الجزء الرابع من هذا الاقليم وفى الاعلا من غربه صحارى برنيق واسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومى فى هذا الجزء فيغمر طايفة منه ذاهبا الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار يجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهى على مصبّ احدى الشعبين من النيل الذى يمرّ على اللاهون من بلد الصعيد فى الجزء الرابع من الاقليم الثالث فيصبّ فى بحيرة الفيوم وعلى سمته شرقا ارض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثانى الذى يمرّ بدلاص عند بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثانى ويفترق هذا

(1) Man. C. et D. طلمسة.

الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين اخرين من شطنوق (1) وزفتة وينقسم الايمن منهما من تروط (2) بشعبين اخرين ويصبّ جميعهما فى البحر الرومى فعلى مصبّ الغربى من هذه الشعب بلاد اسكندرية وعلى مصبّ الوسط بلد رشيد وعلى مصبّ الشرقى بلد دمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية اسافل الديار المصرية كلّها محشوة عمرانا وفلحا وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام واكثرها على ما اصف وذلك ان بحر القلزم ينتهى من الجنوب وفى المغرب منه عند السويس لانّه فى ممرّه من البحر الهندى الى الشمال ينعطف آخر الى جهة المغرب فتكون قطعة من انعطافه فى هذا الجزء طويلة تنتهى فى الطرف الغربى منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس جبل فاران ثم جبل الطور ثم ايلة بلد مدين ثم الحورا فى آخره ومن هناك ينعطف ساحله الى الجنوب فى ارض الحجاز كما مرّ فى الاقليم الثانى فى الجزء الخامس منه وفى الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومى غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فتضايق ما بينهما من هنالك وبقى شبه الباب مفضيا الى ارض الشام وفى غربى هذا الباب فحص التيه ارض

(1) Man. A. et B. سطنوق. (2) Lisez ترنوط.

جرداء لا تنبت كانت مجالا لبنى اسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام اربعين سنة كما قصّه القران وفى هذه القطعة من البحر الرومى فى هذا الجزء طايفة من جزيرة قبرص وبقيتها فى الاقليم الرابع كما نذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصريّة وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم تنحطّ هذه القطعة فى انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وعرقة وهنالك منتهى البحر الرومى فى جهة الشرق على هذه القطعة اكثر السواحل الشامية (1) ففى شرق عسقلان وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ثم عرقة ثم ينعطف البحر الى الشمال فى الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد الساحليّة من هذه القطعة فى هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر القلزم ويذهب فى ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى ان يتجاوز (2) هذا الجزء ويسمى جبل اللكام وكانّه حاجز بين ارض مصر والشام ففى طرفه عند ايلة العقبة التى يمرّ عليها الحاجّ من مصر الى مكّة ثم بعدها فى ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل الشراة يتّصل من عند جبل اللكام المذكور

(1) Man. B. et C. سواحل الشام. (2) Man. A. et B. يجاوز.

من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا وفى شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيما ودومة الجندل وهى اسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر فى جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل الشراة وبحر القلزم صحراء تبوك وفى شمالى جبل الشراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفى شرقها بلاد الغور الى ادرعات وحوران وعلى سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهى آخر الحجاز وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحريّة وجبل اللكام يعترض بينهما وعلى سمت دمشق فى الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص فى الجهة الشماليّة آخر الجزء وعند منقطع جبل اللكام وفى الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفى الجزء السادس من اعلاه مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر على بحر فارس وفى اسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة وفى هذا الجزء ينتهى بحر فارس منه عبادان والابلّة فى اسافل الجزء من شماله ويصبّ فيه عند عبادان نهر دجلة بعد ان ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول اخر

من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصبّ فى بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة فى اعلاه مضايقة لآخره فى شرقيه وضيّقة عند منتهاه مضايقة للحدّ الشمالى منه وعلى عدوتها الغربيّة اسافل البحرين وهجر والاحساء وفى غربيها الخطّ والضهان وبقيّة ارض اليمامة وعلى عدوته الشرقيّة سواحل فارس فمن اعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتدّ من هذا البحر مشرقا ووراه على الجنوب فى هذا الجزء جبال القُفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر وفى شرقيه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودرابجرد وفسا (1) واصطخر والشاهجان وشيراز وهى قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد خورستان ومنها الاهواز وتستر وجندى سابور والسوس ورام هرمز وغيرها وارجان هى حدّ بين فارس وخورستان وفى شرقى بلاد خورستان جبل الاكراد متّصلة الى نواحى اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراها فى ارض فارس وتسمى الزموم وفى الجزء السابع ثم فى اعلى منه من (2) الغرب بقيّة جبال القفص ويليها من الجنوب

(1) Man. A. et B. نسا.

(2) Man. B. فى

والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الروذان (1) والشيرجان (2) وجيرفت وتردشير (3) والفهرج وتحت ارض كرمان الى الشمال بقيّة بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان فى طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم فى الشرق عن عرض كرمان وبلاد فارس ارض سجستان فى الجنوب وارض كوهستان فى الشمال عنها ويتوسّط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان فى وسط هذا الجزء المفازة العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق وامّا كوهستان فهى من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء وفى الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخلج من امم الترك متّصلة بارض سجستان من غربها وبارض كابل الهند من جنوبها وفى الشمال عن هذه المجالات جبل الغور وقاعدتها غزنة فرضة الهند وفى آخر الغور من الشمال بلد استراباذ ثم فى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة اوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومروالرود والطالقان والجوزجان وتنتهى خراسان هنالك الى نهر جيحون وعلى هذا النهر من بلاد خراسان فى غربيه مدينة بلخ وفى

(1) Man. B. السروذان.

(2) Man. C. الشرجان.

(3) Man. A. نردشيرن.

شرقيه مدينة الترمذ ومدينة بلخ كانت كرسى ملك الترك وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وخان فى حدود بدخشان مما يلى الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خربات (١) ثم ينعطف الى الشمال حتّى يمرّ بخراسان ويذهب على سمته الى ان يصبّ فى بحيرة خوارزم فى الاقليم الخامس كما نذكر ويمدّه عند انعطافه فى وسط الجزء من الجنوب والشمال خمسة انهار عظيمة من بلاد الجيل والوخش من شرقيه وانهار اخر من جبال البتم من شرقه ايضا وجوفى الجيل حتى يتّسع ويعظم بما لا كفاء له ومن هذه الانهار الخمسة الممدّة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهى بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمرّ مغربا بانحراف الى الشمال ويعترضه فى طريقه جبل عظيم يمرّ فى وسط الجنوب فى هذا الجزء (٢) ويذهب مشرقا بانحراف الى الشمال الى ان يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيحوز بلاد التبت الى القطعة الشرقيّة الجنوبيّة من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الجبل وليس فيه الّا مسلك واحد فى وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدّا

(1) Man. C. خرباب.

(2) Man. B. النهر.

وبنى له بابا كسدّ ياجوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد
التبت واعترضه هذا الجبل فنفذ تحته فى مدى بعيد الى
ان يمرّ ببلاد الوخش ويصبّ فى نهر جيحون عند حدود
بلخ ثم يمرّ هابطا الى الترمذ فى الشمال الى بلاد
الجوزجان وفى الشرق من بلاد الغور فيما بينه وبين نهر
جيحون بلاد الباميان من خراسان وفى العدوة الشرقية هنالك
من النهر بلاد الجبل واكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدّها
من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان
غربى نهر جيحون وتذهب مشرقة الى ان يتّصل طرفها
بالجبل العظيم الذى خلفه بلاد التبت ويمرّ تحته نهر
وخشاب كما قلناه فيتّصل به عند باب الفضل بن يحيى
ويمرّ نهر جيحون بين هذه الجبال وانهار اخرى تصبّ
فيه منها نهر بلاد الوخش يصبّ فيه من الشرق تحت
الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخا يخرج من جبال البتم
من مبدايه عند الجوزجان ويصبّ فيه من غربيه وعلى هذا النهر
من غربيه بلد امُل من خراسان وفى شرقى النهر من
هنالك ارض الصغد واشروسنة من بلاد الترك وفى شرقها
ارض فرغانة ايضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك هذه
تحوزها جبال البتم الى شماليها وفى الجزء التاسع من غربيه
ارض التبت الى وسط الجزء وفى جنوبيها بلاد الهند وفى

شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفى اسفل هذا الجزء
شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلخية (1) من الترك الى آخر
الجزء شمالا ويتّصل بها من غربها ارض فرغانة ومن شرقها
ارض البغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفى
الجزء العاشر فى الجنوب منه جميعا بقيّة الصين واسافله
وفى الشمال بقيّة بلاد البغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير (2) من
الترك ايضا الى آخر الجزء شرقا وفى الشمال عن ارض
خرخير بلاد كيماك من الترك وقبالتهما فى البحر المحيط
جزيرة الياقوت فى وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها
ولا مسلك والصعود الى اعلاه من خارجه صعب فى الغاية
وبالجزيرة حيّات قتّالة وحصى من الياقوت كثير فيحتال
اهل تلك الناحية فى استخراجه بما يلهمهم الله اليه وهذه
البلاد فى الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبل
كلها مجالات للترك امم لاتحصى وهم ظواعن رحّالة اهل
ابل وشاء وبقر وخيل للنتاج والركوب والاكل وطوايفهم
كثيرة لا يحصيهم الّا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلى بلاد
النهر نهر جيحون يغزون الكفّار منهم الداينين بالمجوسية
فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان
والهند والعراق

(1) Man. B. et D. الخزلجية, C. الخزلجية (2) Lisez خرخيز.

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

الاقليم الرابع

يتّصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الاول منه فى غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها فى الجنوب مدينة طنجة ويخرج من هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط البحر الرومى فى خليج متضايق بمقدار اثنى عشر ميلا بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى ان ينتهى الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح فى ذهابه بتدريج الى ان يغمر الاربعة الاجزاء واكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما نذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامى ايضا وفيه جزاير كثيرة واعظمها فى جهة المغرب يابسة ثم ميورقة ثم منرقة ثم سردانية ثم صقلية وهى اعظمها ثم بلبونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها فى اجزائها التى وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومى عند آخر الجزء الثالث منه وفى الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمرّ مغربا الى ان ينتهى فى الجزء الثانى من الخامس ويخرج منه ايضا فى آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمرّ فى الشمال متضايقا فى عرض رمية السهم الى آخر الاقليم

ثم يفضى الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطش (1) ذاهبا الى الشرق فى الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك فى اماكنه وعند ما يخرج هذا البحر الرومى من البحر المحيط فى خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث ويبقى فى الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها سبتة على البحر الرومى ثم تيطاوين ثم بادس ثم يغمر البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى الثالث واكثر العمارة فى هذا الجزء فى شماله وشمالى الخليج منه وهى كلها بلاد الاندلس فالغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومى اولها طريف عند مجمع البحرين وفى الشرق عنها على ساحل البحر الرومى الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش ولبلة وقبالتها فيه جزيرة قادس وفى الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ثم استجة وقرطبة ومرتلة ثم غرناطة وجيان وابدة ثم وادياش وبسطة وتحت هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا وفى الشرق عنها بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وترجالة ثم قلعة رباح وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر تاجة

(1) Lisez بنطش.

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وفى الشرق عنها شنترين وقورية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبداء من الغرب هناك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماليه فينتهى الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طلبيرة فى الشرق عن قورية ثم طليطلة ثم وادى الحجارة ثم مدينة سالم وعند اول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية هذه غرب الاندلس واما شرق الاندلس فعلى ساحل البحر الرومى منها من بعد المرية قرطاجنة ثم لقنت ثم دانية ثم بلنسية الى طركونة آخر الجزء فى الشرق وتحتها شمالا لورقة وشقورة (1) يتاخمان بسطة وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شرقا ثم شقر ثم طرطوشة تحت طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا ايضا جنجالة ووبذة متاخمتان لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم فى الشرق عن مدينة سالم قلعة ايوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء الثانى من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الّا قطعة من غربيّه فى الشمال فيها بقيّة جبل البرتات معناه جبل الثنايا والمسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبداء من

(1) Man. A. et B. شغورة.

الطرف المنتهى من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمرّ فى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج فى هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثانى فتقع فيه قطعة منه تفضى ثناياها الى البرّ المتّصل ويسمى ارض غشكونية وفيه مدينة جرندة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومى من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم اربونة وفى هذا البحر الذى غمر الجزء جزاير كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففى غربيه جزيرة سردانية وفى شرقيه جزيرة صقلية متّسعة الاقطار ويقال ان فى دورها سبعماية ميل وبها مدن كثيرة من مشاهرها سرقوسة وبلرم وطرابنة ومازر ومسينى وهذه الجزيرة تقابل ارض افريقية وفيما بينهما جزيرتا غودش (1) ومالطة والجزء الثالث من هذا الجزء مغمور ايضا بالبحر الا ثالث قطع من ناحية الشمال الغربية منها من ارض قلورية والوسطى من ارض انكبردة والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر كما مرّ وجزايره كثيرة واكثرها غير مسكون كما فى الثالث والمعمور منها جزيرة بلبونس فى الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم

(1) Man. A. et B. جزيرتا غودش. Man. D. جزيرة غودش.

غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهى الضلع الغربى منها الى آخر الجزء فى الشمال وينتهى الضلع الجنوبى منها الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى فى الجانب الشرقى من الجزء قطعة نحو الثلث يمرّ الشمالى منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفى النصف الجنوبى منها اسافل الشام ويمرّ فى وسطها جبل اللكام الى ان ينتهى الى آخر الشام فى الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقى الشمالى ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويحوز عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق وتقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متّصل بعضها ببعض الى ان تنتهى الى طرف خارج من البحر الرومى متاخم الى آخر الجزء من الشمالى وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهى التى تفضى الى بلاد الارمن وفى هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فاما الجهة الجنوبية التى قدمنا ان فيها اسافل الشام وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومى وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد انطرسوس فى اول الجزء من الجنوب متاخمة لعرقة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفى

شمال انطرسوس جبلة ثم اللادقية ثم اسكندرية ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم واما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء فحفافيه من بلاد الشام من اعلى الجزء جنوبا حصن الخوابى من غربيه وهو للحشيشية الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن مصيات وهو قبالة انطرسوس شرقا ويقابل هذا الحصن فى شرق الجبل بلد سلمية فى الشمال عن حمص وفى الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها فى شرق الجبل المعرّة وفى شرقها المراغة وفى شمال انطاكية المصيصة ثم ادنة ثم طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين فى شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام واما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم التى هى لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان وفى ساحل البحر الرومى منها بلد انطاكية (1) والعلايا واما بلاد الارمن التى بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية وانقرة الى آخر الجزء شمالا ويخرج من الجزء الخامس فى بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان فى شرقيه فيمرّ نهر جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمرّ بطرسوس ثم

(1) Telle est la leçon des manuscrits; mais il faut lire : انطالية.

PROLÉGOMÈNES d'Ibn-Khaldoun.

بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصبّ
فى البحر الرومى جنوب سلوقية ويمرّ نهر سيحان موازيا
لنهر جيحان فيحاذى انقرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب
الى ارض الشام ثم يمرّ بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان
ثم ينعطف الى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند
المصيصة ومن غربها وامّا بلاد الجزيرة التى يحيط بها
منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففى جنوبها بلد
الرافقة والرقّة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم
شميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله
وهو ايضا آخر الجزء من شرقه ويمرّ فى وسط هذه القطعة نهر
الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمرّان
فى بلاد الارمن جنوبا الى ان يتجاوزا جبل السلسلة فيمرّ
نهر الفرات فى غربى شميساط وسروج ثم ينحرف الى
الشرق فيمرّ بغرب الرافقة والرقّة ويخرج الى الجزء السادس
ويمرّ دجلة فى شرق آمد وينعطف قريبا الى الشرق
فيخرج قريبا الى الجزء السادس وفى الجزء السادس من
هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفى الشرق عنها بلاد
العراق متّصلة بها تنتهى فى الشرق الى قرب آخر الجزء
ويعترض آخر العراق هناك جبل اصبهان هابطا من جنوب
الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من

آخره فى الشمال يذهب مغربا الى ان يخرج من الجزء السادس ويتّصل على سمته بجبل السلسلة فى الجزء الخامس فيقطع فى الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففى الغربية من جنوبها مخرج الفرات من الخامس فى شماليها مخرج دجلة منه امّا الفرات فاول ما يخرج الى السادس يمرّ بقرقيسيا ويخرج منه هنالك جدول الى الشمال ينساب فى ارض الجزيرة ويغوص فى نواحيها ويمرّ من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمرّ بغرب الخابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك يمرّ جنوبا وتبقى صفّين فى غربه ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمرّ بعضها بالكوفة وبعض بقصر ابن هبيرة وبالجامعين ويخرج جميعها فى جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك فى شرق الحيرة والقادسية ويمرّ الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها ثم الى الزاب والانبار من جنوبها ثم يصبّ فى دجلة عند بغداذ واما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمرّ مشرقا على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتّصل بجبل العراق على سمته فيمرّ بجزيرة ابن عمر من شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت وينتهى الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة فى شرقه والزاب الكبير

والصغير كذلك ويمرّ على سمته جنوبا وفى غرب القادسية الى ان ينتهى الى بغداذ ويختلط بالفرات ثم يمرّ جنوبا على غرب جرجرايا الى ان يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتتكثر هنالك شعوبه وجداوله ثم تجتمع وتصبّ هنالك فى بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداذ هى بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة الفرات بعد مفارقة بغداذ نهر اخر ياتى من الجهة الشرقية الشمالية عنه وينتهى الى بلد النهروان قبالة بغداذ شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جلولا وفى شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة واما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبداء من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور فيقسمها بقطعتين وفى الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان فى الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه القطعة بلاد البهلوس وفى وسطها بلد نهاوند (1) وفى شمالها بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء وفى القطعة الصغرى الثانيه طرف من بلاد ارمينية قاعدتها المراغة والذى يقابلها من جبل العراق

(1) Man. A. et B. البلهوس.

يسمى جبل بارما وهو مساكن الاكراد والزاب الكبير والصغير الذى على دجلة من ورايه فى آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد اذربايجان ومنها تبريز والبيلقان وفى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر وفى الجزء السابع من هذا الاقليم فى غربيه وجنوبه معظم بلاد البهلوس وفيها همدان وقزوين وبقيّتها فى الاقليم الثالث وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربيها ويمرّ بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتّصل بجبل العراق فى شرقيه الذى مرّ ذكره هنالك وانه محيط ببلاد البلهوس فى القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد البهلوس من شرقيها وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف فى قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشئ ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل عند منعطفه واستدارته على بلد الرى فى شرقيه ويبداء من منعطف اخر يمرّ غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه هنالك قزوين ومن جانبه الشمالى وجانب جبل الرى المتّصل معه ذاهبا الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم

الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان تدخل فى الاقليم الخامس فى هذا الجزء فى نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الرى وعند انعطافه الى الغرب جبل متّصل يمرّ على سمته مشرقا وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل فى الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الرى وهذا الجبل من عند مبدائهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقيّة المفازة التى بين فارس وخراسان وهى شرقى قاشان وفى آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ وحفافى هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففى جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء وفى شماله وشرق جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفى الشمال عنها بعيدا بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزء بين الشمال والشرق مفاوز معطلة وفى الجزء الثامن من هذا الاقليم فى غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال ففى عدوته الغربية زم وآمل من بلاد خراسان والطاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض فى الجزء السابع قبله ويخرج من هذا

الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقيّة بلاد هراة ويمرّ الجبل فى الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتى يتّصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفى شرق نهر جيحون من هذا الجزء فى الجنوب منه بلاد بخارا ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد اشروسنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفى الشمال عن سمرقند واشروسنة ارض يلاق ثم فى الشمال عن يلاق ارض الشاش يمرّ الى آخر الجزء شرقا وتاخذ قطعة من الجزء التاسع فى جنوب تلك القطعة بقية ارض فرغانة ويخرج من هذه القطعة التى فى الجزء التاسع نهر الشاش يمرّ معترضا فى الجزء الثامن الى ان يصبّ فى نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن فى شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه فى ارض يلاق نهر ياتى من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت وتختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبداء من الاقليم الخامس وينعطف مشرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بارض الشاش ثم ينعطف فى الجزء فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك الى جنوبه فيدخل فى الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل فى وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين ارض

بخارا وخوارزم مفاوز معطلة وفى زاوية هذا الجزء بين الشمال والشرق ارض خجندة وفيها بلاد اسبيجاب وطراز(1) وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى غربيه بعد فرغانة والشاش ارض الخرلخية فى الجنوب وارض الخلخلية فى (2) الشمال وفى شرق الجزء كله الى آخره ارض الكيماكية وتتّصل فى الجزء العاشر كله الى جبل قوفايا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هناك وهو جبل ياجوج وماجوج وهذه الامم كلها شعوب الترك

الاقليم الخامس

الجزء الاول منه اكثره مغمور بالماء الّا قليلا من جنوبه وشرقه لانّ البحر المحيط من هذه الجهة الغربية دخل فى الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدايرة المحيطة بالاقليم فاما المنكشف من جنوبه قطعة على شكل المثلث متّصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيّتها ويحيط بها البحر من جهتين كانّهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقيّة ارض الاندلس منت ميور(3) على البحر عند اول الجزء من الجنوب والغرب وشلمنكة شرقا عنها وفى جوفيها سمورة وفى الشرق عن شلمنكة ابلة آخر الجنوب وارض

(1) Les man. A. B. C. طرار. (2) Man. C. et D. الخلخية

(3) Man. A. مينة منور. B. منت منور.

قشتالة شرقا عنها وفيها مدينة شقوبية وفى شمالها ارض ليون وبرغشت (1) ثم وراها فى الشمال ارض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط فى آخر الضلع الغربى بلد شنتياقوب ومعناه يعقوب وفيها من بلاد شرق الاندلس مدينة تطيلة (2) عند آخر الجزء فى الجنوب وشرقا عن قشتالة وفى شمالها وشرقها وشقة ثم بنبلونة على سمتها شرقا وشمالا وفى غرب بنبلونة قسطالة ثم تاجرة فيما بينها وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذيا للبحر وللضلع الشمالى الشرقى منه وعلى قرب ويتّصل به وبطرف البحر من عند بنبلونة فى جهة الشرق الذى ذكرنا من قبل انه يتّصل فى الجنوب بالبحر الرومى فى الاقليم الرابع ويصير حجرا على الاندلس من جهة الشرق وثناياه ابواب لها تفضى الى بلاد غشكونية من امم الفرنج فمنها فى الاقليم الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومى وجرندة وقرقشونة وراهما فى الشمال ومنها فى الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن جرندة واما المنكشف فى هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادّة وراء البُرتات شرقا وفيها على البحر المحيط

(1) Man. A. برغنت. B. برغتست. C. رغشت.

(2) Man. A. et B. تطلية.

على راس القطعة التى يتّصل بها جبل البرتات بلد بيونة وفى آخر هذه القطعة فى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء ارض بيطو من الفرنج الى آخر الجزء وفى الجزء الثانى فى الناحية الغربية منه ارض غشكونية وفى شمالها ارض بيطو وبرغش وقد ذكرناهما وفى شرق بلاد غشكونية قطعة من البحر الرومى دخلت فى هذا الجزء كالضرس سايلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية فى غربها داخلة فى جون من البحر وعلى راس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة وعلى سمتها فى الشمال جبل منت جون وفى شماله وعلى سمته ارض برغونة وفى الشرق عن طرف جنوة للخارج من البحر الرومى طرف اخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البرّ فى البحر فى غربيه بيش وفى شرقيه مدينة رومة العظيمة كرسى ملك الافرنجة ومسكن البابة بتركهم الاعظم وفيها من المبانى الضخمة والهياكل المهولة والكنايس العادية ما هو معروف الاخبار ومن عجايبها النهر الجارى فى وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريّين وهما مدفونان بها وفى الشمال عن بلاد رومة بلاد انبرضية الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذى فى جونه (1) رومة بلد نابل فى

(1) Man. B. جوفه.

الجانب الشرقى منه متّصلة ببلاد قلورية من بلاد الفرنج وفى شمالها طرف من خليج البنادقة دخل فى هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى فى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلاية فى الاقليم السادس وفى الجزء الثالث من هذا الاقليم فى غربه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومى يدخل جانب من برّها فى الاقليم الرابع فى البحر الرومى فى جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفى شرق بلاد قلورية بلاد انكبردة فى جون بين خليج البنادقة والبحر الرومى ويدخل طرف هذا الجون فى الاقليم الرابع وفى البحر الرومى ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومى ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى المغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالى ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه فى الشمال ثم يغرب معه فى الاقليم السادس الى ان ينتهى قبالة الخليج فى شماله فى بلاد انكلاية من امم اللمانيين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى المغرب فبينهما بلاد جرواسيا ثم بلاد اللمانيين عند طرف

الخليج وفى الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة فى البحر
الرومى خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع
من البحر تخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منهما
طرف فى البرّ فى الجون بينهما وفى آخر الجزء شرقا
خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبى ويذهب
على سمت الشمال الى ان يدخل فى الاقليم السادس
وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر نيطش فى
الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم
السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية فى شرقى هذا الخليج
عند آخر الجزء من الشمال وهى المدينة العظيمة التى كانت
كرسى القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه
الاحاديث والقطعة التى بين البحر الرومى وخليج
القسطنطينية من هذا الجزء فيها بلاد مقدونية التى كانت
لليونانيين (1) ومنها ابتداء ملكهم وفى شرقى هذا الخليج
الى آخر الجزء قطعة من ارض باطوس واظنّها لهذا العهد
مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته برصا (2)
وكانت من قبلهم للروم وغلبتهم عليها الامم الى ان صارت
للتركمان وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه
وجنوبه ارض باطوس وفى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد

(1) Man. A. et B. للونانيين. C. لليونان. (2) Man. A. et B. برصة.

عمورية وفى شرق عمورية نهر قباقب الذى يمدّ الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب فى الجنوب حتى يخالط الفرات قبل فصوله من هذا الجزء الى ممرّه فى الاقليم الرابع وهناك فى غربيه آخر الجزء مبداء نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مرّ ذكرهما وفى شرقيه هنالك مبداء نهر دجلة الذاهب على سمته وفى موازاته حتى يخالطه عند بغداذ وفى الزاوية التى بين الجنوب والشرق عن هذا الجزء وراء الجبل الذى يبداء منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذى ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احداهما غربيّة جنوبيّة وفيها ارض باطوس كما قلناه واسفلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذى يبداء منه نهر قباقب ارض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شمالية شرقية جنوبية على الثلث ففى الجنوب منها مبداء الدجلة والفرات وفى الشمال بلاد البيلقان متّصلة بارض عمورية من وراء جبل قباقب وهى عريضة وفى آخرها عند مبداء الفرات بلد حرشنة (1) وفى الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذى يمدّه خليج القسطنطينية وفى الجزء السادس من هذا الاقليم فى جنوبه وغربه بلاد ارمينية متّصلة الى ان يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق

(1) Man. A. حرشنة. B. حرسنة.

وفيها بلد ارزن فى الجنوب والمغرب وفى شمالها تفليس ودبيل وفى شرقى ارزن مدينة خلاط ثم بردعة وفى جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية ومن هنالك يخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة فى شرقى جبل(1) الاكراد المسمى بارما وقد مرّ ذكره فى الجزء السادس منه ويتاخم بلاد ارمينية فى هذا الجزء وفى الاقليم الرابع قبله من جهة المشرق فيها بلاد اذربيجان وآخرها فى هذا الجزء شرقا بلد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت فى الناحية الشرقية من هذا الجزء من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله فى هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ويبداء من عند هذه القطيعة البحرية فى الشمال جبال يتّصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس وتمرّ فيه منعطفة ومحيطة ببلاد ميافارقين ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتّصل بجبل السلسلة فى اسافل الشام ومن هنالك يتّصل بجبل اللكام كما مرّ وبين هذه الجبال الشمالية فى هذا الجزء ثنايا كالابواب تفضى من الجانبين ففى جنوبها بلاد الابواب متّصلة فى الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الابواب وتتّصل بلاد الابواب فى الغرب من ناحية جنوبها

(1) Man. A. et B. جبلها.

ببلاد ارمينية وبينها فى الشرق وبين بلاد اذربيجان الجنوبية بلاد الران متّصلة الى بحر طبرستان وفى شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء فى غربها مملكة السرير وفى الزاوية الغربية الشمالية منها وهى زاوية الجزء كله قطيعة ايضا من بحر نيطش الذى يمدّه خليج القسطنطينية وقد مرّ ذكره وتحقّ بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها منها بلاد طرابزندة وتتّصل بلاد السرير بين جبال الابواب والجهة الشمالية من الجزء الى ان تنتهى شرقا الى جبل حاجز بينها وبين ارض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الحاجز قطعة من ارض الخزر تنتهى الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء بين بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه فى الاقليم الرابع القطعة التى ذكرنا هنالك ان عليها بلاد طبرستان وجبل الديلم الى قزوين وفى غربى تلك القطعة متّصلة بها القطيعة التى فى الجزء السادس من الاقليم الرابع وتتّصل بها من شمالها القطعة التى فى الجزء السادس من شرقه انفا وتنكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصبّ فيها نهر اتل فى هذا البحر وتبقى من هذا الجزء فى ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هى مجالات

للغزّ من امم الترك ويقال لهم الخزركانه عرب وصارت
خاوه غينا وشدّدت الزاى ويحيط بهذه القطعة جبل من
جهة الجنوب داخل فى الجزء الثامن ويذهب فى الغرب
الى ما دون وسطه فينعطف الى الشمال الى ان يلاقى بحر
طبرستان فيحتفّ به ذاهبا معه الى بقيّته فى الاقليم السادس
ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل شياه
ويذهب مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم
يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا
الطرف منه هو الذى اعترض فى هذا الجزء بين ارض
السرير وارض الخزر واتّصلت ارض الخزر فى الجزء
السادس والسابع حفافى هذا الجبل المسمى جبل شياه
كما ياتى والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله
مجالات للغزّ من امم الترك وفى الجهة الجنوبية الغربية
منه بحيرة خوارزم التى يصبّ فيها نهر جيحون دورها
ثلثماية ميل ويصبّ فيها انهار كثيرة من ارض هذه
المجالات وفى الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة غرغون
دورها اربعماية ميل وماؤها حلو وفى الناحية الشمالية من هذا
الجزء جبل مرغار (1) ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه
وهو متّصل بآخر الجزء وفى الجنوب عن بحيرة غرغون

(1) Man. B. مرغان.

جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيا يسمى غرغون وبه سميت البحيرة وتتجلب منه ومن جبل سرغار شمال البحيرة انهار لا ينحصر عددها فتصبّ فيها من الجانبين وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد اذكش من امم الترك فى غرب بلاد الغزّ وشرق بلاد الكيماكية ويحفّه من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوفايا المحيط بياجوج وماجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حين ينعطف اول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتفّ هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء فى الشمال ثم انعطف مغربا فى الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون نصفه واحاط من اوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت فى جنوبه قطعة من هذا الجزء مستطيلة الى الغرب فيها آخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع فى شرقيه وفى الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب الى سمته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السدّ هنالك كما نذكر وبقيت منه القطعة التى احاط بها جبل قوفايا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهى من بلاد ياجوج وماجوج وفى الجزء العاشر من هذا

الاقليم ارض ياجوج متّصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا فى شرقيه من جنوبه الى شماله والا القطعة التى يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوفايا حين مرّ فيه وما سوى ذلك فكله ارض ياجوج وماجوج

الاقليم السادس

فالجزء الاول منه غمر البحر اكثر من نصفه واستدار مشرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من الارض فى هذا الجزء داخلة بين طرفين من البحر المحيط كالجون فيه وتنفسح طولا وعرضا وهى كلها ارض برطانية وفى بابها بين الطرفين وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزء بلاد صابس (1) متّصلة بارض بيطو التى مرّ ذكرها فى الجزء الاول والثانى من الاقليم الخامس وشماله والجزء الثانى من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه فمن غربه فى قطعة مستطيلة اكثر من النصف الشمالى من شرق ارض برطانية فى الجزء الاول واتّصلت بها القطعة الاخرى فى الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت فى النصف الغربى منه بعض الشئ وفيه هنالك قطعة من جزيرة

(1) Man. A. et B. صاليس.

انكلطرة وهى جزيرة عظيمة متّسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها فى الاقليم السابع وفى جنوب هذه القطعة وجزيرتها فى النصف الغربى من هذا الجزء بلاد برمندية وبلاد افلادنش متّصلين بها ثم بلاد افرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لامم الافرنجة وبلاد اللمانيين فى النصف الشرقى من هذا الجزء فجنوبه بلاد انكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم ارض لهرنكة وشصونية وعلى قطعة البحر المحيط فى الزاوية الشمالية الشرقية ارض افرندة وكلها لامم اللمانيين وفى الجزء الثالث من هذا الاقليم فى الناحية الغربية بلاد يوانية (1) فى الجنوب وبلاد شصونية فى الشمال وفى الناحية الشرقية بلاد انكرية فى الجنوب وبلاد بلونية فى الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا فى الجزء الرابع ويمرّ مغربا بانحراف الى الشمال الى ان يقف فى بلاد شصونية آخر النصف الغربى وفى الجزء الرابع فى ناحية الجنوب ارض جثولية وتحتها فى الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من اول الجزء غربا الى ان يقف فى النصف الشرقى وفى شرق ارض جثولية بلاد جرمانية وفى الزاوية الجنوبية الشرقية ارض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر

(1) Man. C. نوابية.

الرومى وعند مدفعه فى بحر نيطش فيقع قطعة من بحر نيطش فى اعالى الناحية الشرقية من هذا الجزء يمدّها الخليج وبينهما فى الزاوية بلد مسناة وفى الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم فى الناحية الجنوبية منه بحر نيطش يتّصل من الخليج آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته شرقا فيمرّ فى هذا الجزء كله وفى بعض السادس على طول الف وثلثماية ميل من مبدائه فى عرض ستماية ميل ويبقى ورآء هذا البحر فى الناحية الجنوبية من هذا الجزء من غربها الى شرقها بر مستطيل فى غربه هرقلية على ساحل نيطش متّصلة بارض البيلقان من الاقليم الخامس وفى شرقه بلاد اللانية (1) وقاعدتها سنوبلى (2) على بحر نيطش وفى شمالى بحر نيطش فى هذا الجزء غربا ارض برجان وشرقا بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد برجان من شرقها فى هذا الجزء ومن شمالها فى الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها فى الجزء الرابع من هذا الاقليم وفى الجزء السادس من غربه بقية بحر نيطش وينحرف قليلا الى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفى جنوبه ومنفسحا الى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية اللانية التى كانت آخر

(1) Man. A. et B. لانية.

(2) Man. C. سويلى.

جنوبه فى الجزء الخامس وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء متّصل ارض الخزر وفى شرقها ارض برطاس وفى الزاوية الشرقية الشمالية ارض بلغار وفى الزاوية الجنوبية ارض بلنجر يحوزها هنالك قطعة من جبل شياه كوية (1) المنعطف مع بحر الخزر فى الجزء السابع بعده ويذهب بعد مفارقته مغربا فيحوز (2) هذه القطعة ويدخل الى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتّصل هنالك بجبال الابواب وعليه من ناحيتيه بلاد الخزر وفى الجزء السابع من هذا الاقليم فى الناحية الجنوبية ما حازه جبل شياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من ارض الخزر الى آخر الجزء غربا وفى شرقها القطعة من بحر طبرستان التى يحوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل شياه فى الناحية الغربية الشمالية ارض برطاس وفى الناحية الشرقية من الجزء ارض بسجرت (3) وبجناك من امم الترك وفى الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها ارض الخولخ (4) من الترك وفى الناحية الشمالية غربا الارض المنتنة وشرقا الارض التى يقال ان ياجوج وماجوج خربوها قبل بناء السدّ وفى هذه الارض المنتنة مبداء نهر اتل من اعظم انهار العالم وممرّه

(1) Man. A. شياكوية.

(2) Man. A. B. et D. يجوز.

(3) Man. A. et B. سجرق.

(4) Lisez الخرلخ.

فى بلاد الترك ومصّبه فى بحر طبرستان فى الاقليم الخامس وفى الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل فى الارض المنتنه من ثلاثة ينابيع تجمع فى نهر واحد ويمرّ على سمت المغرب الى اخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمرّ على طرفه بين الجنوب والغرب فيخرج فى الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من السادس ويخرج منه جداول تذهب مغربا وتنصبّ فى بحر نيطش فى ذلك الجزء ويمرّ هو فى قطعة بين الشمال والشرق فى بلاد بلغار (1) فيخرج فى الجزء السابع من الاقليم السادس ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ فى جبل شياه ويمرّ فى بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس فى الجزء السابع منه فيصبّ هنالك فى بحر طبرستان فى القطعة التى انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجق وبلاد التركش (2) منهم ايضا جبل قوفايا وفى الشرق منه بلاد ماجوج يفصل بينهما جبل قوفايا المحيط وقد مر ذكره يبداء من البحر المحيط فى

(1) Man. A. et B. برغار.

(2) Man. B. et C. التركس.

شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم فى الشمال ويفارقه مغربا وبانحراف الى الشمال حتى يدخل فى الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمته الاول فى الشمال حتى يدخل فى هذا الجزء التاسع من جنوبه الى شمال وبانحراف الى المغرب وفى وسطه ههنا السدّ الذى بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته فى الاقليم السابع وفى الجزء التاسع منه فيمرّ فيه من الجنوب الى ان يلقى البحر المحيط فى شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا فى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتّصل هنالك بقطعة من البحر المحيط فى غربيه وفى وسط هذا الجزء التاسع هو السدّ الذى بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره فى القران وقد ذكر عبد الله بن خرداذبه فى كتابه فى الجغرافيا ان الواثق راى فى منامه كان السد انفتح فانتبه فزعا وبعث سلامة الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه فى حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا وفى الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد ماجوج متّصلة فيه الى آخره على قطعة هنالك من البحر المحيط احاطت به من شرقه وشماله مستطيلة فى الشمال وعريضة بعض الشئ فى الشرق انتهى

الاقليم السابع

والبحر المحيط قد غمر عامّته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتّصل بجبل قوفايا المحيط بياجوج وماجوج فالجزء الاول والثانى مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطرة التى معظمها فى الثانى وفى الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه فى الجزء الثانى من الاقليم السادس وهى مذكورة هنالك والمجاز منها الى البرّ فى هذه القطعة سعة اثنى عشر ميلا ووراء هذا الجزيرة فى شمال الجزء الثانى جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور اكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة فى جنوبه وتتّسع فى شرقها وفيها هنالك متّصل ارض فلونية التى مرّ ذكرها فى الثالث من الاقليم السادس وانها فى شماله وفى القطعة من البحر التى تغمر هذا الجزء ثم فى الجانب الغربى منها مستديرة فسيحة ويتّصل فى البرّ من باب فى جنوبها يفضى الى بلاد فلونية (1) وفى شمالها جزيرة برقاغة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط

(1) Man. A. قلوانية. B. قلونية.

من الغرب الى الشرق وجنوبه منكشف ففى غربه ارض فيمازك من الترك وفى شرقها بلاد طبست ثم ارض رسلاندة الى آخر الجزء شرقا وهى دايمة الثلوج وعمرانها قليل وتتّصل ببلاد روسية فى الاقليم السادس وفى الجزء الرابع والخامس منه وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم فى الناحية الغربيه بلاد الروسية وتنتهى فى الشمال الى قطعة البحر المحيط التى يتّصل بها جبل قوفايا كما ذكرناه من قبل وفى الناحية الشرقية منه يتّصل ارض القمانية على قطعة بحر نيطش فى الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهى الى بحيرة طرمى(1) من هذا الجزء وهى عذبة ويتجلب اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفى شمالى الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض البنارية من الترك الى آخره وفى الجزء السادس فى الناحية الغربية الجنوبية متّصل بلاد القمانية وفى وسط الناحية بحيرة عيون (2) عذبة يتجلب اليها انهار من الجبال فى النواحى الشرقية وهى جامدة دايما لشدّة البرد الّا قليلا فى زمن المصيف وفى شرقى بلاد القمانية بلاد الروسية التى كان مبداءها فى الاقليم السادس فى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفى الزوايا الجنوبية الشرقية من هذا

(1) Man. B. طرقى D. طوى. (2) Man. C. عتون.

الجزء بقية ارض بلغار التى كان مبداءها فى الاقليم السادس
وفى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفى
وسط هذه القطعة من ارض بلغار منعطف نهر اثل العطفة
الاولى الى الجنوب كما مر وفى آخر هذا الجزء السادس
من شماله جبل قوفايا متّصل من غربه الى شرقه وفى
الجزء السابع من هذا الاقليم فى غربه بقية ارض بجناك
من امم الترك وكان مبداءها فى الناحية الشرقية من
الجزء السادس قبله وفى الناحية الجنوبية الغربية من هذا
الجزء ويخرج الى الاقليم السادس فوقه وفى الناحية الشرقية
بقية ارض بسحرت (1) ثم بقية الارض المنتنة الى آخر
الجزء مشرقا وفى آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوفايا المحيط
متّصلا من غربه الى شرقه وفى الجزء الثامن من هذا
الاقليم فى الجنوبية الغربية منه متّصل الارض المنتنة فى
شرقها الارض المحفورة وهى من العجايب خرق عظيم فى
الارض فسيح الاقطار بعيد المهوى ممتنع الوصول الى قعره
يستدل على عمرانه بالدخان فى النهار والنيران فى الليل
تضئ وتخفى وربّما رئى فيها نهر يشقّها من الجنوب الى
الشمال وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب
المتاخمة للسدّ وفى آخر الشمال منه جبل قوفايا متّصل من

(1) Man. A. سخرت. B. سحرت. D. سحرى. Lisez بسجرت.

الغرب الى الشرق وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يحوزها جبل قوفايا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب فى وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج فى الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمرّ معترضا فيه وفى وسطه هنالك سدّ ياجوج وماجوج وقد ذكرناه وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض ماجوج ورآء جبل قوفايا على البحر قليلة العرض مستطيلة احاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمره البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا واقاليمها السبعة وفى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

المقدّمة الثالثة فى المعتدل من الاقليم والمنحرف وتاثير الهواء فى الوان البشر والكثير من احوالهم

قد بيّنا ان المعمور من هذا المنكشف من الارض انّما هو وسطه الى الجانب الشمالى لافراط الحرّ فى الجنوب منه والبرد فى الشمال ولما كان الجانبان من الجنوب والشمال متضادّين فى البرد والحرّ وجب ان تتدرج الكيفيّة من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع اعدل العمران

والذى حفافيه من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال والذى يليهما السادس والثانى بعيدان من الاعتدال والاول والسابع ابعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنايع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه والحيوانات وجميع ما يتكوّن فى هذه الاقاليم الثلاثة المتوسّطه مخصوصة بالاعتدال وسكّانها من البشر اعدل اجساما والوانا واخلاقا واحوالا فتجدهم على غاية من التوسّط فى مساكنهم وملابسهم واقواتهم وصنايعهم يتّخذون البيوت المنجدة بالحجارة (1) المنمّقة بالصناعة ويتناغون فى استجادة الآلات والمواعين يذهبون فى ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعيّة من الذهب والفضّة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون فى معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف فى عامّة احوالهم وهؤلاء اهل المغرب والشام والعراقين والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الافرنجة والجلالقة ومن كان مع هولاء او قريبا منهم فى هذه الاقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام اعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات واما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثانى والسادس والسابع فاهلها ابعد من الاعتدال فى جميع احوالهم فبناؤهم بالطين والقصب واقواتهم من الذرّة والعشب

(1) Man. D. المتخذة من الحجارة.

وملابسهم من اوراق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود واكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وادمها غريبة التكوين مايلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير النقدين الشريفين من نحاس او حديد او جلود يقدّرونها للمعاملات واخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن كثير من السودان اهل الاقليم الاول انهم يسكنون فى الكهوف والغياض وياكلون العشب وانّهم متوحّشون غير مستانسين وانهم ياكلون بعضهم بعضا وكذلك الصقالبة والسبب فى ذلك انهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض امزجتهم واخلاقهم (1) من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذا احوالهم فى الديانة ايضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو فى الاقلّ النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل اهل مالى وكوكو والتكرور المجاورين لارض المغرب الداينين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به بالماية السابعة ومثل من دان بالنصرانية من امم الصقالبة والافرنجة والترك فى الشمال ومن سوى هولاء من اهل تلك الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم

(1) Man. C. احوالهم.

وجميع احوالهم بعيدة من احوال الاناسى قريبة من احوال البهايم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما اليها من جزيرة العرب فى الاقليم الاول والثانى فان جزيرة العرب كلها احاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرناه فكان لرطوبتها اثر فى رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذى يقتضيه الحرّ وصار فيها بعض اعتدال برطوبة البحر وقد توهّم بعض النسّابين ممن لا علم لديه بطبايع الكاينات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصّوا بلون السواد لدعوة كانت من ابيه ظهر اثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرقّ فى عقبه ودعاء نوح على ولده حام قد وقع فى التورية وليس فيه ذكر السواد وانّما دعا عليه بان يكون ولده عبيد لولد اخوته لا غير وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحرّ والبرد واثرهما فى الهواء وفيما يتكوّن فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم مرّتين فى كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامّة الفصول ويكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم فتسودّ جلودهم لافراط الحرّ ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلهما من الشمال الاقليم

السابع والسادس شمل سكّانهما ايضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقهم فى دايرة مرائى العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحرّ فيها ويشتدّ البرد عامّة الفصول فتبيض الوان اهلها وتنتهى الى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسّط بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها فى الاعتدال الذى هو مزاج المتوسّط حظّ وافر والرابع ابلغها فى الاعتدال غاية للنهاية فى التوسّط كما قدّمناه فكان لاهله من الاعتدال فى خَلقهم وخُلقهم ما اقتضاه مزاج اهويتهم وتبعه من جانبيه الخامس والثالث وان لم يبلغا نهاية التوسّط لميل هذا قليلا الى الجنوب الحارّ وهذا قليلا الى الشمال البارد الا انهما لم ينتهيا الى الانحراف وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة واهلها كذلك فى خَلقهم وخُلقهم فالاول والثانى للحرّ والسواد والسادس والسابع للبرد والبياض وسمى سكّان الجنوب من الاقاليم الاول والثانى باسم الحبشة والزنج والسودان اسماء مترادفة على الامّة المتغيّرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصّا منهم بمن تجاه مكّة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه الاسماء لهم من جهة انتسابهم الى ادمى اسود

لا حام ولا غيره وقد نجد من السودان اهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل والسابع المنحرف الى البياض فتبيضّ الوان اعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع بالجنوب فتسود الوان اعقابهم وفى ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا فى ارجوزته فى الطبّ

بالزنج حرّ غيّر الاجسادا حتى كسى جلودها سوادا
والصقلب (1) اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

واما اهل الشمال فلم يسموا باعتبار الوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة الواضعة للاسماء فلم تكن فيه غرابة تحمل على اعتباره فى التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكّانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الافرنجة وياجوج وماجوج امما متفرقة واجيالا متعددة مسمين باسماء متنوّعة واما اهل الاقاليم المتوسّطة من اهل الاعتدال فى خَلقهم وخُلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتماد (2) لديهم من المعاش والمساكن والصنايع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوات والملل (3) والدول

(1) Man. C. et D. اكتسست. Man. D. ابيضاضا.

(2) Man. C. et D. للاعتمار. (3) Man. A. et B. الملك.

والشرايع والعلوم والبلدان والامصار والمبانى والغراسة والصنايع الفايقة وساير الاحوال المعتدلة واهل هذه الاقاليم الذين وقفنا على اخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونانيين واهل السند والصين ولما راى النسّابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعايرها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا اهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا فى الوانهم فتكلّفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا اهل الشمال كلهم او اكثرهم من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة وهم اهل الوسط (1) المنتحلون للعلوم والصنايع والملل والشرايع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحقّ فى انتساب هولاء فليس ذلك بقياس مطّرد انّما هو إخبار عن الواقع لا انّ تسمية اهل الجنوب بالسودان والحبشان من اجل انتسابهم الى حام الاسود وما ادّاهم الى هذا الغلط الّا اعتقادهم ان التمييز بين الامم انّما يقع بالانساب (2) فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل او للامّة يكون بالنسب فى بعضهم كما للعرب وبنى اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسِمَة كما للزنج والحبشان والصقالبة والسودان ويكون بالعوايد والشعاير مع النسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من احوال الامم وخواصّهم ومميّزاتهم

(1) Man. A. واسط.

(2) Man. A. et B. بالانساب.

فتعميم القول فى اهل جهة معينة من جنوب او شمال بانّهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من لون او نحلة او سِمَة وجدت لذلك الاب انما هو من الاغاليط التى اوقع فيها الغفلة عن طبايع الاكوان والجهات وان هذه كلها تتبدّل فى الاعقاب ولا يجب استمرارها سنّة الله فى الاعقاب ولا يجب استمرارها سنّة الله فى عباده ولن تجد لسنّة الله تبديلا

المقدّمة الرابعة فى اثر الهواء فى اخلاق البشر

قد راينا من خُلق السودان على العموم الخفّة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق فى كل قطر والسبب الصحيح فى ذلك انه تقرّر فى موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشّيه وطبيعة الحزن بالعكس وهى انقباضه وتكاثفه وتقرّر ان الحرارة مفشّية للهواء والبخار مخلخلة له زايدة فى كمّيّته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية من التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه فيتفشّى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفّسوا فى هوائها واتّصلت حرارة

الهواء بارواحهم فتسخّنت لذلك حدث لهم فرح وربّما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين فى الاقليم الحار واستولى الحرّ على امزجتهم وفى اصل تكوينهم كان فى ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح اهل الاقليم الرابع اشدّ حرارة (1) فتكون اكثر تفشّيا فتكون اسرع فرحا وسرورا واكثر انبساطا ويجئ الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية (2) لما كان هواءها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من اضواء بسيط البحر واشعّته كانت حصّتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفّة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك فى اهل البلاد الجريدية من الاقليم الثالث لتوفّر الحرارة فيها وفى هواءيها لانها عريقة فى الجنوب من الارياف والتلول واعتبر ذلك باهل مصر فانها فى مثل عرض البلاد الجريدية وقريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفّة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يذخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامّة مأكلهم من اسواقهم ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغّل فى التلول الباردة كيف ترى اهلها مطرقين اطراق

(1) Man. C. et D. حرّا.

(2) Man. A. et B. المنحرفة.

الحزن وكيف افرطوا فى نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليذخر اقوات سنين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة ان يرزاء شياء من مدخره وتتبع ذلك فى الاقاليم والبلدان تجد فى الاخلاق اثرا من كيفيات الهواء والله الخلّاق العليم وقد تعرّض المسعودى للبحث عن السبب فى خفّة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت فيه بشئ اكثر من انه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندى ان ذلك لضعف ادمغتهم وما نشاء عنه من ضعف عقولهم وهذا الكلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدى من يشاء

المقدّمة الخامسة فى اختلاف احوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشاء عن ذلك من الآثار فى ابدان البشر واخلاقهم

اعلم ان هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد له الخصب ولا كل سكّانها (1) فى رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الارض

(1) Man. A. et B. ساكنها.

الحرّة التى لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكّانها فى شظف من العيش مثل اهل الحجاز واليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب واطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هولاء يفقدون الحبوب والادم جملة وانما اغذيتهم واقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب الجايلين فى القفار فانهم وان كانوا ياخذون الحبوب والادم من التلول الا ان ذلك فى الاحايين وتحت رقبة من حاميتها وعلى الاقلال لقلّة وجدهم فلا يتوصّلون منه الا الى سدّ الخلّة ودونها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون فى غالب احوالهم على الالبان وتعوّضهم عن الحنطة احسن معاض وتجد مع ذلك هولاء الفاقدين للحبوب والادم من اهل القفار احسن حالا فى جسومهم واخلاقهم من اهل التلول المنغمسين فى العيش فالوانهم اصفى وابدانهم انقى واشكالهم اتمّ واحسن واخلاقهم ابعد من الانحراف واذهانهم اثقب فى المعارف والادراكات هذا امر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين واهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب فى ذلك والله اعلم ان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد فى الجسم فضلات رديّة ينشاء عنها بعد اقطاره فى غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة

ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطى الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من ابخرتها الرديّة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك فى حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والمهى والنعام والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعى الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا فى صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضايها وحدّة مداركها فالغزال اخو المعز والزرافة اخو البعير والحمار والبقر هو الحمار والبقر والبون بينهما ما رايت وما ذلك الا لاجل ان الخصب فى التلول فعل فى ابدان هذه من الفضلات الرديّة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثره والجوع لحيوان القفر حسن فى خَلقها واشكالها ما شاء واعتبر ذلك فى الادميين ايضا فانّا نجد اهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتّصف اهلها غالبا بالبلادة فى اذهانهم والخشونة فى اجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين فى الادم والحنطة مع المتقشفين فى عيشهم المقتصرين على الشعير او الذرّة مثل المصامدة منهم واهل السوس وغمارة فتجد هولاء احسن حالا فى عقولهم وجسومهم وكذلك اهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين فى

الادم والبرّ مع الاندلس المفقود بارضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرّة فتجد لاهل الاندلس من ذكاء العقل وخفّة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لهم وكذا اهل الضواحى من المغرب بالجملة مع اهل الحضر والامصار فان اهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين فى العيش الا ان استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف (1) بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرقّ قوامها وعامّة مآكلهم لحمان الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقلّ الرطوبات لذلك فى اغذيتهم ويخفّ ما تؤدّيه لاجسامهم من الفضلات الرديّة فلذلك تجد جسوم اهل الامصار الطف من جسوم اهل البادية المخشنين فى العيش وكذلك نجد المتعوّدين للجوع من اهل البادية فانهم لا فضلات فى جسومهم غليظة ولا لطيفة واعلم ان اثر هذا الخصب ليظهر حتى فى حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من اهل البادية والحاضرة ممن ياخذ نفسه بالجوع والتجافى عن الملاذّ احسن دينا واقبالا على العبادة من اهل الترف والخصب بل نجد اهل الدين قليلين فى المدن والامصار لما يعمّها من القساوة والغفلة المتّصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البرّ ويختصّ وجود

(1) Man. C. التلطّف.

العبّاد والزهّاد لذلك بالمتقشّفين فى غذائهم من اهل البوادى وكذلك نجد حال المدينة الواحدة فى ذلك يختلف باختلاف حالها فى الترف والخصب وكذلك نجد هولاء المخصبين العيش المنغمسين فى طيّباته لا من اهل البادية ولا من اهل الحاضرة والامصار اذا نزلت بهم السنون واخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك اكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب واهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب اهل القفر والصحراء ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل اهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت واهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرّة والزيت فان هولاء وان اخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من اولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب فى ذلك والله اعلم ان المنغمسين فى الخصب المتعوّدين للادم والسمن خصوصا تكتسب معاهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجيّة حتى تجاوز حدّها فاذا خولف بها العادة بقلّة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء اسرع الى المعاء اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف فى الغاية ولهذا عُدّ فى المقاتل فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه بسرعة فالهالكون فى المجاعات انّما قتلهم

الشبع المعتاد السابق لا الجوع اللاحق واما المتعوّدون للعيمة وترك الادم والسمن فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدّها من غير زيادة وهى صالحة على جميع الاغذية الطبيعية فلا يقع فى معاهم بتبدّل الاغذية يبس ولا انحراف فيسلمون فى الغالب من الهلاك الذى يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الادم فى المأكل واصل هذا كله ان تعلم ان الاغذية وايلافها او تركها انما هو بالعادة فمن عوّد نفسه غذاء ولايمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدّل به داء ما لم يخرج عن عرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع وما افرط فى الانحراف فاما ما وجد فيه التغذّى والملايمة فيصير غذاء مألوفا بالعادة فاذا اخذ الانسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا عن الحنطة والحبوب حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن اهل الرياضات فانّا نسمع عنهم فى ذلك اخبارا غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب فى ذلك العادة فان النفس اذا الفت شيئا صار من خلقها وجبلّتها وطبيعتها لانها كثيرة التلوّن فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة وطبيعة لها وما يتوهّمه الاطبّاء من ان الجوع مهلك فليس على ما يتوهّمونه

الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فحينئذ ينحسم (1) المعا ويناله المرض الذى يخشى معه الهلاك واما اذا كان ذلك تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيًا فشيًا كما يفعله المتصوّفة فهو بمعزل عن الهلاك وهذا التدريج ضرورى حتى فى الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدئ فى الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع اربعين يوما وصالا واكثر وحضر اشياخنا فى دولة السلطان ابى الحسن وقد رفع اليه امراءتان من اهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا انفسهما عن الاكل جملة من سنين (2) وشاع امرهما ووقع اختبارهما فصحّ شأنهما واتّصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا ورأينا كثيرا من اصحابنا ايضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها فى بعض النهار او عند الافطار ويكون ذلك غذاؤه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولاتستنكرن ذلك واعلم ان الجوع اصلح للبدن من اكثار الاغذية بكل وجه لمن قدر عليه او على الاقلال منها وان له اثرا فى الاجسام والعقول فى صفايها (3) وصلاحها كما قلنا واعتبر ذلك بآثار الاغذية التى تحصل عنها فى الجسوم فقد

(1) Man. C. et D. ينحسم. (2) Man. A. et B. سنتين. (3) Man. A. et B. صفاها.

راينا المغتذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشاء اجيالهم كذلك وهذا مشاهد فى اهل البادية مع اهل الحاضرة وكذا المغتذون بالبان الابل ولحومها ايضا مع ما يُؤثّر فى اخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال كما هو للابل وتنشأ معاهم ايضا على نسبة معا الابل فى الصحّة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضارّ الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل نضجه والدرياس والفربيون ولا ينال معاهم منها ضرر وهى لو تناولها اهل الحضر الرقيقة معاهم بما نشأت عليه من لطيف (1) الاغذية لكان الهلاك اسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمّيّة ومن تأثير الاغذية فى الابدان ما ذكره اهل الفلاحة وشاهده اهل التجربة ان الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة فى بعر الابل واتّخذ بيضها ثم حضّنت عليه جاء الدجاج منها اعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر (2) مع البيض المحضن فتجىء دجاجها فى غاية العظم وامثال ذلك كثيرة فاذا راينا هذه الآثار من الاغذية فى الابدان فلا شك ان للجوع ايضا آثار فى الابدان لان الضدّين على نسبة واحدة فى التأثير وعدمه

(1) Man. A. et B. لطف.   (2) Man. A. et B. البعض.

فيكون تأثير الجوع فى نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا فى وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

المقدّمة السادسة فى اصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة او بالرياضة ويتقدّمه الكلام فى الوحى والرؤياء

اعلم ان الله سبحانه اصطفى من البشر اشخاصا فضّلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسايل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرصون على هدايتهم وياخذون بحجزاتهم عن النار ويدلّونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم من المعارف ويظهره على السنتهم من الخوارق الاخبار بوقوع الكاينات المغيبة عن البشر التى لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم الا وانى لا اعلم الا ما علّمنى الله واعلم ان خبرهم فى ذلك من خاصّته وضرورية الصدق لما يتبيّن لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر ان يوجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين مع غطيط كانّها غشى او اغماء فى رائ العين وليست منهما فى شئ انما هى بالحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانىّ بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلّية ثم

يتنزّل الى المدارك البشريّة امّا بسماع دوى من الكلام فيتفهّمه او يتمثّل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما القى عليه قال صلى الله عليه وسلم قد سُئل عن الوحى احيانا ياتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشدّ علىّ فيفصم عنّى وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثّل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول ويدركه اثناء ذلك من الشدّة والغطّ ما لا يعبر عنه ففى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عايشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصّد عرقا وقال تعالى انّا سنلقى عليك قولا ثقيلا ولاجل هذه الحالة فى تنزّل الوحى كان المشركون يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رائ او تابع من الجنّ وانما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الحال ومن يضلل الله فما له من هاد ومن علاماتهم ايضا انه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والذكاء ومجانبة المذمومات والرجس اجمع وهذا هو معنى العصمة وكانّه مفطور على التنزّه عن المذمومات والمنافرة لها وكانّها منافية لجبلّته وفى الصحيح انه حمل الحجارة وهو غلام مع عمّه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى ازاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره ودعى الى مجمع لوليمة وفيها عرس ولعب فاصابه غشى النوم

الى ان طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم بل نزّهه الله تعالى عن ذلك بجبلّته حتى انه ليتنزّه عن المطعومات المستكرهة فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل ولا الثوم فقيل له فى ذلك فقال انّى اناجى من لا تناجون وانظر لما اخبر النبىء صلى الله عليه وسلم خديجة بحال الوحى اول ما فجئه وارادت اختباره فقالت له اجعلنى بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب النساء وكذا سألته عن احبّ الثياب اليه ان ياتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك بمعنى ان الخضرة والبياض من الوان الخير والملائكة والسواد من الوان الشرّ والشياطين وامثال ذلك (ومن) علاماتهم ايضا دعاؤهم الى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلّت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك ابو بكر ولم يحتاجا فى امره الى دليل خارج عن حاله وخلقه وفى الصحيح ان هرقل حين جاءه كتاب النبىء صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام احضر من وجد ببلده من قريش وفيهم ابو سفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل ان قال بِمَ يامركم فقال ابو سفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف الى آخر ما سأل واجابه فقال ان يكن ما

يقول حقّا انه نبئ وسيملك ما تحت قدمىّ هاتين والعفاف الذى اشار اليه هرقل هو العصمة فانظر كيف اخذ من العصمة والدعاء الى الدين والعبادة دليلا على صحّة النبوة ولم يحتج الى معجزة فدلّ على ان ذلك من علامات النبوة (ومن) علاماتهم ايضا ان يكونوا ذوى حسب فى قومهم وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه وفى رواية اخرى فى ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفى مسائلة هرقل لابى سفيان كما هو فى الصحيح قال كيف هو فيكم فقال ابو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسل تبعث فى احساب قومهم ومعناه ان تكون له عصبية (1) وشوكة تمنعه من اذى الكفّار حتى يبلغ رسالات ربّه ويتمّ مراد الله من اكمال دينه وملته (ومن) علاماتهم ايضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهى افعال تعجز البشر عن مثلها فسميت معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانّما تقع فى غير محلّ قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الانبياء خلاف فالمتكلّمون بناء على القول بالفاعل المختار قايلون بانّها واقعة بقدرة الله تعالى لا بفعل النبئ وان كانت افعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم الّا ان المعجزة لا تكون من جنس افعالهم وليس للنبئ فيها

(1) Man. D. عصبة.

عند الجميع الّا التحدّى بها باذن الله تعالى وهو ان يستدلّ بها النبئ قبل وقوعها على صدقه فى مدّعاه فتنزل منزلة القول الصريح من الله بانّه صادق وتكون دلالتها على الصدق قطعيّة فالمعجزة الدالّة مجموع الخارق والتحدّى ولذلك كان التحدّى جزءا منها وعبارة المتكلمين صفة نفسها وهو واحد لانه معنى الذاتى عندهم والتحدّى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر اذ لا حاجة فيهما الى التصديق فلا وجود للتحدّى الا وجد اتّفاقا وان وقع التحدّى فى الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فانّما هى على الولاية وهى غير النبوة ومن هنا منع الاستاذ ابو اسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدّى بالولاية وقد اريناك المغايرة بينهما وانّه يتحدّى لغير ما يتحدّى به النبئ فلا لبس على ان النقل عن الاستاذ ليس صريحا وربّما حمل على انكار ان يقع خوارق الانبياء لهم بناء على اختصاص كلّ من الفريقين بخوارقه وامّا المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم ان الخوارق ليست من افعال العباد وافعالهم معتادة فلا خارق واما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال امّا عند الاشعريّة فلانّ صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة واقول والتصديق كذبا

واستحالت الحقايق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وامّا عند المعتزلة فلانّ وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله وامّا الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبىّ ولو كان فى غير محلّ القدرة بناء على مذهبهم فى الايجاب الذاتىّ ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقّف على الشروط والاسباب الحادثة مستندة اخيرا الى الواجب بالذات الفاعل بالذات لا بالاختيار وان النفس النبويّة عندهم لها خواصّ ذاتيّة منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين والنبىّ عندهم مجبول على التصريف فى الاكوان متى توجّه اليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبىّ كان التحدّى او لم يكن وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرّف النبىّ فى الاكوان الذى هو من خواصّ النفس النبويّة عندهم لا بانّه يتنزّل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها قطعيّة كما هى عند المتكلمين ولا يكون التحدّى جزءا من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر ان النبىّ مجبول على افعال الخير مصروف عن افعال الشرّ فلا يُلمّ الشرّ بخوارقه والساحر على الضدّ فافعاله كلّها شرّ وفى مقاصد الشرّ وفارقها عن الكرامة ان خوارق النبىّ مخصوصة

كصعود السماء والنفوذ فى الاجسام الكثيفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء وخوارق الولىّ دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وامثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء وياتى النبىء بمثل خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرّر ذلك المتصوّفة فيما كتبوه فى طريقتهم ونقلوه عن مواجدهم (1) واذا تقرّر ذلك فاعلم ان اعظم المعجزات واشرفها واوضحها دلالة القران الكريم المنزل على نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه لانّ الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقّاه النبىء وتاتى المعجزة شاهدة به وهذا ظاهر والقران هو بنفسه الوحى المدّعا (2) وهو الخارق المعجز ودلالته فى عينه ولا يفتقر الى دليل اجنبىّ عنه كساير الخوارق مع الوحى فهو اوضح دلالة لاتّحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبىء من الانبياء الّا واوتى من الآيات ما مثله امن عليه البشر وانّما كان الذى اوتيته وحيا اوحى الىّ فانا ارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيمة يشير الى ان المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوّة الدلالة وهو كونها نفس الوحى كان المصدق لها اكثر لوضوحها فكثر المصدق والمومن وهم التابع والامّة والله سبحانه اعلم ويدلك هذا

(1) Man. D. لقوه عمّن اخبرهم.   (2) Man. D. المدعى.

كله على انّ القران من بين الكتب الالهيّة انّما تلقّاه نبيُّنا
صلوات الله وسلامه عليه متلوا كما هو بكلماته وتراكيبه
بخلاف التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماويّة فانّ
الانبياء يتلقّونها فى حال الوحى معانى ويعبرون عنها بعد
رجوعهم الى الحالة البشريّة بكلامهم المعتاد لهم ولذلك
لم يكن فيها اعجاز فاختصّ الاعجاز بالقران وتلقّيهم لكتبهم
مثلها يتلقّى نبيُّنا المعانى التى يسندها الى الله تعالى كما
يقع فى كثير من رواية الاحاديث قال صلى الله عليه
وسلم فيما يحكى عن ربّه ويشهد لتلقّيه القران متلوا قوله
لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرانه
وسبب نزولها ما كان يقع له من بدارة الى تدارس الآية
خشية من النسيان وحرصا الى حفظ ذلك المتلو المنزّل
فتكفّل الله له بحفظه بقوله انّا نحن نزلنا الذكر وانّا له
لحافظون هذا هو معنى الحفظ الذى اختصّ به القران لا ما
ذهب اليه العامّة فانّه بمعزل عن المراد وكثير من الآى يشهد
لك بانه نزّل قرانا متلوا معجزا بسورة منه ولم يقع لنبينا
صلوات الله عليه من المعجزات اعظم منه ومن ايلاف العرب
على دعوته لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين
قلوبهم ولكن الله الف بينهم فاعلم هذا وتذكره تجده صحيحا
كما قررت لك وتامّل ما يشهد لك به من ارتفاع

رتبته على الانبياء وعلو مقامه صلى الله عليه وسلم
(ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة) على ما شرحه كثير من المحقّقين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرويا ثم شأن العرّافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول اعلم ارشدنا الله وإياك انّا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسبّبات واتّصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقضى عجايبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجسمانى واولا عالم العناصر المشاهد كيف تدرّج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متّصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعدّ ان يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها الطف مما قبله الى ان ينتهى الى عالم الافلاك وهى الطف من الكل وعلى طبقات اتّصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدى بعضهم الى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التى لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر افق المعادن متّصل باول افق النبات مثل الحشايش وما لا بزر له وآخر افق النبات مثل

النخل والكرم متّصل باول افق الحيوان كالحلزون والصدف لم توجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتّصال فى هذه المكونات ان آخر افق منها مستعدّ بالاستعداد القريب لان يصير اول افق من الذى بعده واتّسع عالم الحيوان وتعددت انواعه انتهى فى تدريج (1) التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية يرتفع اليه من عالم القردة الذى استجمع فيه الكيس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك فى اول افق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم انّا نجد فى العوالم على اختلافها آثارا متنوعّة ففى عالم الحسّ آثار من حركة الافلاك والعناصر وفى عالم التكوين آثار من حركات النمو والادراك تشهد كلها بان لها مؤثرا مباينا للاجسام فهو روحانىّ ومتّصل بالمكونات لوجود اتّصال هذه العوالم فى وجودها وذلك هو النفس المدركة المحرّكة ولا بدّ فوقها من موجود اخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتّصل بها ايضا وتكون ذواته ادراكا صرفا وتعقّلا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك ان يكون النفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات وفى لمحة من اللمحات وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانيّة بالفعل كما نذكره بعد ويكون

(1) Man. A. et B. تدرّج.

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

لها اتّصال بالافق الذى بعدها شأن الموجودات المترتّبة كما قدّمناه فلها فى الاتّصال جهتا العلوّ والسفل هى متّصلة بالبدن من اسفل (1) منها ومكتسبة به المدارك الحسّيّة التى تستعدّ بها للحصول على التعقّل بالفعل ومتّصلة من جهة الاعلا منها بافق الملائكة ومكتسبة منه المدارك العلميّة والغيبيّة فان علم الحوادث موجود فى ذواتهم من غير زمان وهذا على ما قدّمناه من الترتيب المحكم فى الوجود باتّصال ذواته وقوة بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غايبة عن العيان وآثارها ظاهرة فى البدن وكانّه وجميع اجزايه مجتمعة ومتفرّقة آلات للنفس ولقواها اما الفاعلة فالبطش باليد والمشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلّيّة بالبدن متدافعا واما المدركة وان كانت قوى الادراك مترتّبة ومرتقية الى القوة العليا منها وهى المفكرة التى يعبّرون عنها بالناطقة فقوى الحسّ الظاهر بآلانه من البصر والسمع وسايرها ترتقى الى الباطن واوله الحسّ المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها فى حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحسّ الظاهر لانّ المحسوسات لا تزدحم عليها فى الوقت الواحد ثم يوديه الحسّ المشترك الى الخيال وهو قوة تمثل الشىء المحسوس

(1) Man. C. بالذى اسفل.

فى النفس كما هو مجرّدا عن الموادّ الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين فى تصرّفهما البطن الاول من الدماغ مقدّمة للاولى ومؤخّرة للثانية ثم يرتقى الخيال الى الوهمية والحافظة فالوهمية لادراك المعانى المتعلّقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الذئب والحافظة لايداع المدركات كلها متخيّلة وغير متخيّلة وهى لها كالخزانة تحفظها الى وقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين فى تصرّفهما البطن المؤخّر من الدماغ اوله للاخرى ومؤخره للاخرى ثم يرتقى جميعها الى قوة الفكر وآلته البطن الاوسط من الدماغ وهو القوة التى تقع بها حركة الروية (1) والتوجّه نحو التعقل تتحرّك النفس بها دايما بما ركب فيها من النزوع الى ذلك لتتخلّص من درك القوة والاستعداد الذى للبشرية وتخرج الى الفعل فى تعقّلها متشبّهة بالملا الاعلى الروحانىّ وتصير فى اول مراتب الروحانيات فى ادراكها بغير الآلات الجسمانيّة فهى متحرّكة دايما ومتوجّهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلّية من البشريّة وروحانيّتها الى الملكيّة من الافق الاعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلّة والفطرة الاولى فى ذلك والنفوس البشريّة فى ذلك على ثلاثة اصناف صنف عاجز بالطبع من الوصول الى الادراك

(1) Man. D. الرويا.

الروحانى فيقنع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسّيّة والخياليّة وتركيب المعانى من المحافظة الوهميّة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصوّريّة (1) والتصديقيّة (2) التى للفكر فى البدن وكلها خيالىّ منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهى الى الأوّليّات ولا يتجاوزها وان فسدت فسد ما بعدها وهذا هو فى الاغلب نطاق الادراك البشرىّ الجسمانىّ واليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ اقدامهم وصنف متوجّه بتلك الحركة الفكريّة نحو التعقّل الروحانىّ والادراك الذى لا يفتقر الى آلات البدن بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتّسع نطاق ادراكه عن الأوّليّات التى هى نطاق الادراك الاول البشرىّ ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنة وهى وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك الاولياء اهل العلوم اللدنيّة والمعارف الربانيّة وهى الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة فى البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشريّة جملة جسمانيها وروحانيها الى الملكيّة من الافق الاعلى ليصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملاء الاعلى فى افقهم وسماع الكلام النفسانىّ والخطاب الآلهى فى تلك اللمحة وهولاء هم

(1) Man. B. التصويرية.

(2) Man. D. التصريفيّة.

الانبياء صلوات الله عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشريّة في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم عليها وجبلّة صوّرهم فيها ونزّههم عن موانع البدن وعوايقه ما داموا ملابسين لها بالبشريّة بما ركب في غرايزهم من العصمة والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبايعهم رغبة في العبادة تكتنف (1) بتلك الوجهة وتشيّع نحوها فهم يتوجّهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فاذا توجّهوا وانسلخوا عن بشريّتهم وتلقّوا في ذلك الملاء الاعلى ما يتلقّوه عاجوا به على المدارك البشريّة متنزّلا في قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة بسماع دوى كانه رمز من الكلام ياخذ منه المعنى الذي القى اليه فلا ينقضي الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثّل له الملك الذي يلقى اليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقّي من الملك والرجوع على المدارك البشريّة وفهمه ما القى عليه كله كانّه في لحظة واحدة بل اقرب من لمح البصر لانه ليس في زمان بل كلها تقع جميعها فتظهر كانّها سريعة ولذلك سمّيت وحيا لان الوحي في اللغة الاسراع (واعلم) ان الاولى وهي حالة الدوى هي رتبة الانبياء غير المرسلين على ما

(1) Man. A. et D. تكشف.

حقّقوه والثانية وهى حالة تمثّل الملك رجلا يخاطب هى رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت اكمل من الاولى وهذا معنى الحديث الذى فسّر فيه النبئ صلى الله عليه وسلم لما سأله الحرث بن هشام وقال كيف ياتيك الوحى فقال احيانا ياتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشدّ علىّ فيفصم عنّى وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثّل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول وانما كانت الاولى اشدّ لانّها مبدأ الخروج فى ذلك الاتّصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشريّة اختصّت بالسمع وصعب ما سواه وعند ما يتكرّر الوحى ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتّصال فعند ما يعوج الى المدارك البشريّة ياتى على جميعها وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفى العبارة عن الوحى فى الاول بصيغة الماضى وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى ان الكلام جاء مجئ التمثيل لحالتى الوحى فتمثلت الحالة الاولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام واخبر ان الفهم والوعى يتبعه غبّ انقضايه فناسب عند تصوير انقضايه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك فى الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع

المقتضى للتجدّد واعلم ان فى حالة الوحى كلها على الجملة صعوبة وشدّة قد اشار اليها القران قال تعالى انّا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقالت عايشة كان مما يعانى من التنزيل شدّة وقالت كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وان جبينه ليتفصّد عرقا ولذلك ما كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب ذلك ان الوحى كما قررناه مفارقة البشريّة الى المدارك الملكيّة وتلقى كلام النفس فتحدث عنه شدّة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من افقها الى ذلك الافق الاخر وهذا هو معنى الغطّ الذى عبّر به فى مبدء الوحى فى قوله فغطنى حتّى بلغ منّى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ قلت ما انا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما فى الحديث وقد يفضى الاعتياد فيه بالتدريج شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القران وسوره وآياته حين كان بمكّة اقصر منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل فى نزول سورة برآة فى غزوة تبوك وانّها انزلت او اكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد ان كان بمكّة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل فى وقت وينزل الباقى فى حين اخر وكذلك كان من آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهى ما هى فى

الطول بعد ان كانت الآيات تنزل بمكّة مثل آيات سورة الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والعلق وامثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكّى والمدنىّ من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل امر النبوّة (واما الكهانة) فهى ايضا من خواصّ النفس الانسانيّة وذلك انه قد تقدّم لنا فى جميع ما مرّ ان للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ عن البشريّة الى الروحانيّة التى فوقها وانه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الانبياء عليهم السلام بما فطروا عليه من ذلك وتقرّر انه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة شئ من المدارك ولا من التصوّرات ولا من الافعال البدنيّة كلاما او حركة ولا بامر من الامور انّما هو انسلاخ من البشريّة الى الملكيّة بالفطرة فى لحظة اقرب من لمح البصر واذا كان ذلك وكان الاستعداد موجودا فى الطبيعة البشريّة فيعطى التقسيم العقلىّ ان هنا صنفا اخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضدّ عن ضدّه الكامل لانّ عدم الاستعانة فى ذلك الادراك ضدّ للاستعانة فيه وشتّان ما بينهما فاذن اعطى تقسيم الوجود ان هنا صنفا اخر من البشر مفطور على ان يتحرّك قوته العقليّة حركتها الفكريّة بالارادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلّة فيكون بها بالجبلّة عند ما يعوقها العجز عن ذلك

تشبّث بامور جزئيّة محسوسة او متخيّلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوان وسجع الكلام وما يسنح من طير او حيوان يستديم ذلك الاحساس او التخيّل مستعينا به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ويكون كالمشيّع له وهذه القوة التى فيهم مبداء لذلك الادراك هى الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها فى الجزئيّات اكثر من الكلّيّات وتكون متشبّهة بها غافلة عن الكليات ولذلك ما تكون المتخيّلة فيهم فى غاية القوة لانها آلة الجزئيّات فتنفذ فيها نفوذا تامّا فى نوم او يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المتخيّلة وتكون لها كالمراءة تنظر فيها دايما ولا يقوى الكاهن على الكمال فى ادراك المعقولات لانّ وحيه من وحى الشياطين وارفع احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواسّ ويقوى بعض الشئ على ذلك الاتّصال الناقص فيهجس فى قلبه عن تلك الحركة والذى يشيّعها من ذلك الاجنبى ما يقذفه على لسانه فربّما صدق ووافق الحقّ وربّما كذب لانه يتمّم نقصه بامر اجنبيّ عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملايم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ويكون غير موثوق به وربّما يفزع الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه

وتمويها على السايلين واصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهّان لانّهم ارفع ساير اصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مثله هذا من سجع الكهّان فجعل السجع مختصّا بهم بمقتضى الاضافة وقال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار كيف ياتيك هذا الامر فقال ياتينى صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعنى ان النبوّة خاصّيّتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانّها اتّصال من ذات النبىّ بالملاء الاعلى من غير مشيّع ولا استعانة باجنبى والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصوّرات الاجنبيّة فكانت داخلة فى ادراكه والتسبّب بالادراك الذى توجّه اليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع ان يكون نبوّة وانما قلنا ان ارفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معين السجع اخفّ من ساير المعينات من المرئيات والمسموعات ويدلّ خفّة المعين على قرب ذلك الاتّصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشئ (وقد) زعم بعض الناس ان هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوّة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة وان ذلك كان لمنعهم من خبر السما كما وقع فى القران والكهّان انّما يتعرّفون اخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من

ذلك دليل لانّ علوم الكهّان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم كما قررناه وايضا فالآية انّما دلّت على منع الشياطين من نوع واحد من اخبار السماء وهو ما يتعلّق بخبر البعثة ولم يمنعوا ممّا سوى ذلك وايضا فانّما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوّة فقط ولعلّها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لانّ هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوّة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لانّ النبوّة هى النور الاعظم الذى يخفى معه كل نور او يذهب (وقد) زعم بعض الحكماء انّها انّما توجد بين يدى النبوّة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوّة وقعت لانّ وجود النبوّة لا بدّ له من وضع فلكىّ يقتضيه وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوّة التى دلّ عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه ناقصه وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل ان يتمّ ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن امّا واحدا امّا متعدّدا فاذا تمّ ذلك الوضع تمّ وجود النبىّ بكماله وانقضت الاوضاع الدالّة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شئ بعد وهذا بناء على ان بعض الوضع الفلكىّ يقتضى بعض اثره وهو غير مسلّم فلعلّ الوضع انما يقتضى ذلك الاثر بهيئة الخاصّة ولو نقص بعض اجزائها

فلا يقتضى شيًا الّا انه يقتضى ذلك الاثر ناقصا كما قالوه ثم ان هولاء الكهّان اذا عاصروا زمن النبوّة فانّهم عارفون بصدق النبئ ودلالة معجزته لانّ لهم بعض الوجدان من امر النبوّة كما لكل انسان من امر النوم ومعقوليّة تلك النسبة موجودة للكاهن باشدّ ممّا للنايم ولا يصدّهم عن ذلك فى التكذيب الّا وسواس المطامع بانّها نبوّة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لامية بن ابى الصلت فانّه كان يطمع بان يكون نبيًا وكذا وقع لابن صيّاد ولمسيلمة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الامانى آمنوا احسن ايمان كما وقع لطليحة الاسدى وقارب بن الاسود وكان لهما فى الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان (واما الرؤيا) فتحقيقها مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانيّة لمحة من صور الواقعات فانها عند ما تكون روحانيّة تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانيّة كلها وتصير روحانيّة بان تتجرّد عن الموادّ الجسمانيّة والمدارك البدنيّة وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس فيها علم ما تتشوّف اليه من الامور المستقبلة وتعود به الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلىّ عانيته بالمحاكاة والمثال فى الخيال لتحصيله فيحتاج من اجل تلك المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا تستغنى

فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه من الخيال والمثال والسبب فى وقوع هذه اللمحة للنفس انها ذات روحانيّة بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقّلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانيّة مدركة بغير شئ من الآلات البدنيّة الا ان نوعها فى الروحانيّات دون نوع الملائكة اهل الافق الاعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشئ من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت فى البدن ومنه خاصّ كالذى للاولياء ومنه عامّ للبشر على العموم وهو امر الرؤيا (واما) الذى للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشريّة الى الملكيّة المحضة التى هى اعلا الروحانيّات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرّرا فى حالات الوحى وهو عند ما يعوج على المدارك البدنيّة ويقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال النوم شبها بيّنا وان كان حال النوم ادون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرويا بانها جزء من ستّة واربعين جزءا من النبوة وفى رواية ثلاثة واربعين وفى رواية سبعين وليس العدد فى جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه وهى للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم فى رواية ستّة واربعين من ان الوحى كان فى مبدئه بالرويا ستة اشهر وهى نصف سنة

ومدّة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستّة واربعين فكلام بعيد عن التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ومن اين لنا ان هذه المدّة وقعت لغيره من الانبياء مع ان ذلك انما يعطى نسبة زمن الرويا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبيّن لك ما ذكرناه اوّلا علمت ان معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاوّل الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاصّ بصنف الانبياء الفطرىّ لهم صلوات الله عليهم ثم ان هذا الاستعداد البعيد وان كان عامّا فى البشر فمعه عوايق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن اعظم تلك الموانع الحواسّ الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواسّ بالنوم الذى هو جبلّى لهم فتتعرّض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوّف اليه فى عالم الحقّ فتدرك فى بعض الاحيان لمحة يكون فيها الظفر بالمقصود ولذلك ما جعل الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرويا الصالحة يراها الرجل الصالح او ترى له (واما) سبب ارتفاع حجاب الحواسّ بالنوم فعلى ما اصفه لك وذلك ان النفس الناطقة انما ادراكها وافعالها بالروح الحيوانىّ الجسمانىّ وهو بخار لطيف مركزه فى التجويف الايسر

من القلب على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحسّ والحركة وساير الافعال البدنيّة ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده ويتمّم افعال القوى التى فى بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتفعل بهذا الروح البخاريّ وهى متعلّقة به بما اقتضته حكمة التكوين فى ان اللطيف لا يؤثر فى الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين الموادّ البدنيّة صار محلّا لآثار الذات المباينة له فى جسمانيّته وهى النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة فى البدن بوساطته وقد كنّا قدّمنا ان ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو الحواسّ الخمس وادراك فى الباطن وهو بالقوى الدماغيّة وان هذا الادراك كله صارف لها عن ادراكها ما فوقها من ذوات الروحانيات التى هى مستعدّة له بالفطرة ولما كانت الحواسّ الظاهرة جسمانيّة كانت معرضة للوهن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرّف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجدّد الادراك على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانيّ من الحواسّ الظاهرة كلها ورجوعه الى الحسّ الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزيّة اعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه

فتكون مشيّعة مركبها وهو الروح الحيوانى الى الباطن ولذلك ما كان النوم للبشر فى الغالب انما هو بالليل فاذا انخنس الروح عن الحواسّ الظاهرة رجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحسّ وموانعه ورجعت الى الصور التى فى الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل (1) صورا خيالية واكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريبا ثم تنزلها الى الحسّ المشترك الذى هو جامع الحواسّ الظاهرة فيدركها على انحاء الحواسّ الخمس وربّما التفتت النفس لفتة الى ذاتها الروحانيّة مع منازعة القوى الباطنة فتدرك بادراكها الروحانىّ لانّها مفطورة عليه وتقتبس من صور الاشياء التى صارت متعلّقة فى ذاتها حينئذ ثم ياخذ الخيال تلك الصورة المدركة فيمثلها بالحقيقة او المحاكاة فى القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هى المحتاجة الى التعبير وتصرّفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة (2) قبل ان تدرك من تلك اللمحة ما تدرك هى اضغاث الاحلام وفى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رويا من الله ورويا من الملك ورويا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلىّ من الله والمحاكاة الداعية

(1) Man. A. et B. التخييل.　(2) Man. A. et B. والصور الحافظة.

الى التعبير من الملك واضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرويا وما يسبّبها (1) ويشيّعها من النوم وهى خواصّ للنفس الانسانيّة موجودة فى البشر على العموم لا يخلو عنها احد منهم بل كل واحد من الاناسى فقد راى فى نومه ما صدق له فى يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع ان النفس مدركة الغيب فى النوم ولا بدّ واذا جاز ذلك فى عالم النوم فلا يمتنع فى غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصّها عامّة فى كل حال والله الهادى الى الحق (فصل) ووقوع ما يقع من ذلك للبشر غالبا انها هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانها تكون النفس مستشرفة للشئ فتقع لها تلك اللمحة فى النوم لا انها تقصد الى ذلك فتراه وقد وقع فى كتاب الغاية وغيره من كتب اهل الرياضات ذكر اسماء تذكر عند النوم فيكون عنها الرويا فيما يتشوّف (2) اليه ويسمّونها الحالومة ذكر منها مسلمة فى كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التامّ وهى ان يقال عند النوم وبعد فراغ السرّ وصحّة التوجّه هذه الكلمات الاعجميّة وهى تَماغِس بَعْدان يَسْوادّ وغْداس نَوفناغادِس ويذكر حاجته فانه يرى الكشف عما يسئل عنه فى النوم

(1) Man. A. et B. يشبهها.

(2) Man. A. et B. يتشوّق.

وحكى ان رجلا فعل ذلك بعد رياضة ليال فى ماكله وذكره فتمثّل له شخص يقول انا طباعك التامّ فسئل واخبره عمّا كان يتشوّف اليه وقد وقع لى انا بهذه الاسماء مراء عجيبة واطّلعت بها على امور كنت انشوّف اليها من احوالى وليس ذلك بدليل على ان القصد الى الرويا يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا فى النفس لوقوع الرويا فاذا قوى الاستعداد كان اقرب لحصول ما يستعدّ له وللشخص ان يفعل من الاستعداد ما احبّ ولا يكون دليلا على ايقاع المستعدّ له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشئ فاعلم ذلك وتدبّره فيما تجد من امثاله والله الحكيم الخبير (فصل) ثم انا نجد فى النوع الانسانىّ اشخاصا يخبرون بالكاينات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميّز فيها صنفهم عن ساير الناس ولا يرجعون فى ذلك الى صناعة ولا يستدلّون عليه باثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها وذلك مثل العرّافين والنّظارين فى الاجسام الشفّافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين فى قلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الزجر فى الطير والسباع واهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة فى عالم الانسان لا يسع احدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين

تلقى على السنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النايم والميت لاول موته او نومه يتكلم بالغيب وكذلك اهل الرياضة من المتصوّفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة ونحن الان نتكلّم على هذه الادراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتى عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدّم على ذلك مقدّمة فى ان النفس الانسانيّة كيف تستعدّ لادراك الغيب فى جميع الاصناف التى ذكرناها (وذلك) انّها ذات روحانيّة موجودة بالقوة من بين ساير الروحانيّات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن واحواله وهذا امر مدرك لكل احد وكل ما بالقوة فله مادّة وصورة وصورة هذه النفس التى يتمّ بها وجودها هو عين الادراك والتعقّل فهى توجد اوّلا بالقوة مستعدّة للادراك وقبول الصور الكلّية والجزئية ثم يتمّ نشوُها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعوّدها بورود مدركاته المحسوسة عليها وما تنتزع هى من تلك الادراكات من المعانى الكلّية فتتعقّل (1) الصورة مرّة بعد اخرى حتى يحصل لها الادراك والتعقّل صورة بالفعل فتتمّ ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد واحدة ولهذا نجد الصبى فى اول نشوُه لا يقتدر على

(1) Man. A. تستفعل. C. تغفل. D. تعقل.

الادراك الذى لها من ذاتها لا فى نوم ولا يكشف ولا بغيرهما وذلك صورتها التى هى عين ذاتها وهى الادراك والتعقّل لم تتمّ بعدُ بل يتمّ لها انتزاع الكّليات ثم اذا تمّت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بآلات الجسم توديه اليها المدارك البدنيّة وادراك بذاتها من غير واسطة وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواسّ وشواغلها لانّ الحواسّ ابدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه اولا من الادراك الجسمانىّ وربّما تنغمس عن الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة امّا بالخاصية التى هى للانسان على الاطلاق مثل النوم او بالخاصّية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق او بالرياضة مثل اهل الكشف من الصوفيّة فتلتفت حينئذ الى الذوات التى فوقها من الملاء الاعلى لما بين افقها وافقهم من الاتّصال فى الوجود كما قررناه قبل وتلك الذوات روحانيّة وهى ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقايقها كما مرّ فيتجلّى فيها شئ من تلك الصورة وتقتبس منها علما وربّما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فتصرفه فى القوالب المعتادة ثم تراجع الحسّ بما ادركت اما مجرّدا او فى قوالبه فتخبر به هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبى ولنرجع الى ما

وعدنا به من بيان اصنافه (فامّا) الناظرون فى الاجسام الشفّافة من المرايا والطساس والمياه وقلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهّان الا انهم اضعف رتبة فيه فى اصل خلقهم لان الكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحسّ الى كبير معاناة وهولاء يعانونه بانحصار المدارك الحسّيّة كلها فى نوع واحد منها واشرفها البصر فيعكف به على المرئ البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر عنه وربّما يظنّ ان مشاهدة هولاء لما يرونه هو فى سطح المراءة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المراءة الى ان يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين المراءة حجاب كانه غمام تتمثّل فيه صور هى مدركاتهم فتشير اليهم بالمقصود فيما يتوجّهون الى معرفته من نفى او اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما ادركوه (واما المراءة) وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال وانّما ينشأ لهم بها هذا النوع الاخر من الادراك وهو نفسانىّ ليس من ادراك البصر بل يتشكّل به المدرك النفسانى للحسّ (1) كما هو معروف ومثل ذلك يعرض للناظرين فى قلوب الحيوان واكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وامثال ذلك وقد شاهدنا من هولاء من يشغل الحسّ بالبخور فقط

(1) Man. A et B. الحسى.

ثم بالعزايم للاستعداد ثم يخبر عمّا ادرك ويزعمون انهم يرون الصور متشخّصة فى الهواء تحكى لهم احوال ما يتوجّهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغيبة هولاء من الحسّ اخفّ من الاولين والعالم ابو الغرايب (واما الزجر) وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلّم بالغيب عند سنوح طاير او حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهى قوة فى النفس تبعث على الحدس والفكر فيما زجر فيه من مرئ او مسموع وتكون قوته المتخيّلة كما قدّمناه قوية فيبعثها فى البحث مستعينا بما راٰه او سمعه فيوديه ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة المتخيّلة فى النوم وعند ركود الحواسّ تتوسّط بين المحسوس المرئ فى يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرويا (وامّا المجانين) فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلّق بالبدن لفساد امزجتهم غالبا وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستغرقة بالحواسّ ولا منغمسة فيها بما شغلها فى نفسها من الم النقص ومرضه وربّما زاحمها على التعلّق به روحانية اخرى شيطانيّة تتشبّث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبّط فاذا اصابه ذلك التخبّط اما لفساد مزاجه من فساد النفس فى ذاتها او لما زاحمه من النفوس الشيطانيّة فى تعلّقه غاب عن حسّه (1) جملة

(1) Man.D. جسمه.

فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربّما نطق على لسانه فى تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هولآء كلهم مشوب فيه الحقّ بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتّصال وان فقدوا الحسّ الا بعد الاستعانة بالتصوّرات الاجنبيّة كما قررناه ومن ذلك يجئ الكذب فى هذه المدارك (وامّا العرّافون) فهم المتعلّقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتّصال فيسلطون الفكر على الامر الذى يتوجّهون اليه وياخذون فيه بالظنّ والتخمين بنآء على ما يتوهّمونه من مبادئ ذلك الاتّصال والادراك ويدّعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا) تحصيل هذه الامور وقد تكلّم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا اصابه ويظهر من كلام الرجل انه كان بعيدا عن الرسوخ فى المعارف فينقل ما سمع من اهله ومن غير اهله وهذه الادراكات التى ذكرناها موجودة كلها فى نوع البشر فقد كان العرب يفزعون الى الكهّان فى تعرّف الحوادث ويتنافرون اليهم فى الخصومات ليعرفوهم بالحقّ فيها من ادراك غيبهم وفى كتب اهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم فى الجاهليّة شقّ من انمار بن نزار وسطيح من مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

ومن مشهور الحكايات عنهما تاويلهما رويا ربيعة بن نصر وما اخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمديّة فى قريش وكذا رويا الموبذان التى اوّلها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فاخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرّافون كان منهم فى العرب كثير وذكروهم فى اشعارهم فقال

فقلت لعرّاف اليمامة داونى   فانّك ان داويتنى لطبيب

وقال اخر

جعلت لعرّاف اليمامة حكمة   وعرّاف نجد انْ هما شفيانى
فقالا شفاك الله والله ما لنا   بما حملت منك الضلوع يدان

وعرّاف اليمامة هو رباح بن عجلة وعرّاف نجد الابلق الاسدى (ومن) هذه المدارك الغيبيّة ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشئ الذى يتشوّف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا فى مبادى النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار فى الكلام فيتكلّم كانه مجبول على النطق وغايته ان يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة روسهم واوساط ابدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن

بعض الجبابرة الظالمين انهم قتلوا من سجونهم اشخاصا ليتعرّفوا من كلامهم عند القتل عواقب امورهم فى انفسهم فاعلموهم بها يستبشع وذكر مسلمة فى كتاب الغاية له فى مثل ذلك ان ادميا اذا جعل فى دنّ مملوٌ بدهن السمسم ومكث فيه اربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤن راسه فيخرج من ذلك الدهن وحين يجفّ عليه الهواء يجيب عن كل شئ يسال عنه من عواقب الامور الخاصّة والعامّة وهذا فعل من مناكير افعال السحرة لكن تفهم منه عجايب العالم الانسانى (ومن) الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبى بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا باماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التى تلوّنت (1) بها النفس وذلك يحصل بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع انه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحسّ وحجابه واطّلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت منه ما يقع بعد الموت وتطلع النفس على المغيّبات (ومن هولاء اهل الرياضة السحريّة) يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيّبات والتصرّف فى العالم واكثر هولاء فى الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا وخصوصا بلاد الهند ويسمون

(1) Man. C. et D. تلوّثت.

هناك الجوكية ولهم كتب فى كيفيّة هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم فى ذلك غريبة (واما المتصوّفة) فرياضتهم دينيّة وعريّة من هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمّة والاقبال على الله بالكلّيّة لتحصل اذواق العرفان والتوحيد ويزيدون فى رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتمّ وجهتهم فى هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت اقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانيّة وحصول ما يحصل من معرفة الغيب او التصرّف لهولآء المتصوّفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من اول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانّما هى لقصد التصرّف والاطلاع على الغيب واخسر بها صفقة فانها فى الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشئ سواه وان حصل اثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفرّ منه اذا عرض له ولا يحفل به وانّما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمّون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرّف كرامة وليس شئ من ذلك بنكير فى حقّهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ ابو اسحق الاسفراينى وابو محمد بن

ابى زيد المالكى فى اخرين فرارا من التباس المعجزة بغيرها والمعوّل عند المتكلّمين حصول التفرقة بالتحدّى فهو كافٍ وقد ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انّ فيكم محدّثين وان منهم عمر وقد وقع للصحابة من ذلك وقايع معروفة تشهد بذلك فى مثل قول عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قايدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق ايام الفتوحات وتورّط مع المشركين فى معترك وهم بالانهزام وكان بقربه جبل يتحيّز اليه فرفع (1) لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية بمكانه وراى شخصه هنالك والقصّه معروفة ووقع مثلها ايضا لابى بكر فى وصيّته عايشة ابنته رضى الله عنها فى شأن ما نحلها (2) من اوسق التمر من حديقته ثم نبّهها على جدادة لتحوّزه عن الورثة فقال فى سياق كلامه وانما هما اخوك واختاك فقالت انما هى اسماء فمن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خارجة اراها جارية فكانت جارية وقع (3) فى الموطا فى باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقايع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين واهل الاقتداء الا ان المتصوّفة يقولون انه يقلّ

(1) Man. A. B. et D. فوقع.

(2) Man. C. يحليها. A. et B. يخلها.

(3) Man. D. رفع.

فى زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حاله بحضرة النبى حتى انهم يقولون ان المريد اذا جاء الى المدينة النبوّية سُلِب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله تعالى يرزقنا الهداية ويرشدنا الى الحقّ

(فصل) ومن هولآء المريدين من المتصوّفة قوم بهاليل معتوهون اشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحّت لهم مقامات الولاية واحوال الصدّيقين وعلم ذلك من احوالهم من يفهم عنهم من اهل الذوق مع آنّهم غير مكلّفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجايب لانهم لا يتقيّدون بشىٔ فيطلقون كلامهم فى ذلك وياتون منه بالعجايب وربّما ينكر الفقهاء انّهم على شىٔ من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو غلط فانه فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقّف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانيّة ثابتة الوجود فان الله تعالى يخصّهم بما شاء من مواهبه وهولاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف وهو صفة خاصّة للنفس وهى علوم ضروريّة للانسان يستدّ بها نظره ويعرف احوال معاشه واستقامة منزله وكانّه اذا ميّز احوال معاشه لم يبق له عذر فى قبول التكاليف لاصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود

الحقيقة معدوم العقل التكليفىّ الذى هو معرفة المعاش ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقّف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شئ من التكاليف واذا صحّ ذلك فاعلم انه ربّما يلتبس حال هولاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهايم ولك فى تمييزهم علامات منها ان هولاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها اصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعيّة لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجد لهم وجهة اصلا ومنها انّهم يخلقون على البله من اول نشؤهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد برهة من العمر لعوارض بدنيّة طبيعيّة فاذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرّفهم فى الناس بالخير والشرّ لانّهم لا يتوقّفون على اذن لعدم التكليف فى حقّهم والمجانين لا تصرّف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد الى الصواب

(فصل) وقد يزعم بعض الناس ان هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحسّ فمنهم المنجمون القايلون بالدلالات النجوميّة ومقتضى اوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتادّى من ذلك المزاج الى الهواء وهولاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شئ انّما هى ظنون حدسيّة وتخمينات مبنية

على التأثير النجوميّ وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد الحدس يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيّات فى العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك فى محلّه ان شاء الله تعالى ولو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه فى شئ (ومن) هولاء قوم من العامّة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرّف الكاينات صناعة سمّوها خطّ الرمل نسبة الى المادّة التى يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة انّهم صيّروا من النقط اشكالا ذات اربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجيّة والفرديّة واستوايها فيها فكانت ستّة عشر شكلا لانّها ان كانت ازواجا كلها او افرادا فشكلان وان كان الفرد فيها فى مرتبة واحدة فقط فاربعة اشكال وان كان الفرد فى مرتبتين فستّة اشكال وان كان فى ثلاث مراتب فاربعة اشكال جاءت ستّة عشر شكلا ميّزوها كلّها باسمايها ونوّعوها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستّة عشر بيتا طبيعيّة بزعمهم وكانّها البروج الاثنى عشر التى للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكل بيتا وخطوطا ودلالة على صنف من عالم العناصر يختصّ به واستنبطوا من ذلك فنّا حاذوا به فنّ النجامة ونوع قضايه الا ان احكام النجامة مستندة الى دلالات طبيعيّة كما زعم بطليموس وهذه انما دلالاتها وضعيّة وذلك

ان بطليموس انما تكلّم فى المواليد والقرانات التى هى عنده من آثار الكواكب والاوضاع (1) الفلكيّة فى عالم العناصر وتكلّم المنجمون من بعده فى المسائل استخراج الضماير وتقسيمها على بيوت الفلك والحكم عليها باحكام ذلك البيت النجوميّة وهى التى ذكرها بطليموس واعلم ان الضماير امور نفسيّة ليست من عالم العناصر فليست من آثار الكواكب ولا الاوضاع الفلكيّة ولا دلالة لهما عليها نعم ان صار لفنّ المسائل مدخل فى صناعة النجامة من حيث الاستدلال بالكواكب والاوضاع الّا انّه فى غير مدلوله الطبيعىّ فلما جاء اهل الخطّ عدلوا عن الكواكب والاوضاع استعصا (2) بالمعاناة والارتفاع بالالآت وتعديل الكواكب بالحسبان واستخرجوا هذه الاشكال الخطّيّة وفرضوها ستّة عشر بيتا من بيوت الفلك واوتاده ونوّعوها الى سعد ونحس وممتزج شأن الكواكب السيّارة واقتصروا على التسديس من المناظرة ونزلوا الاحكام النجوميّة عليها كما فى المسائل لان دلالة كل منهما غير طبيعيّة كما قدّمناه وانتحل هذه الصناعة كثير من البطّالين للمعاش فى المدن وصنّفوا فيها التصانيف المحصلة لقواعدها واصولها كما فعله الزناتى منهم وغيره (وقد) يكون من اهل هذه الصناعة من يتعرّض بها لادراك الغيب باشغال

(1) Man. A. et D. اوضاع.

(2) Man. A. استصعا.

الحسّ بالنظر فى اشكال تلك الخطوط فيعتريه حالة الاستعداد
كما يعترى المفطورين على ذلك كما نذكره بعد وهؤلاء
اشرف اهل هذه الصناعة وهم على الجملة يزعمون ان اصل
ذلك من النبوات القديمة فى العالم وربّما ينسبوها
الى ادريس او دانيال صلوات الله عليهما شأن الصنايع كلها
وربّما يدّعون مشروعيّتها ويحتجّون لذلك بقوله صلى الله
عليه وسلم كان نبى يخطّ فمن وافق خطّه فذاك وليس
فى الحديث دليل على مشروعيّة خطّ الرمل كما يزعمه
بعضهم لان معنى الحديث كان نبى يخط فياتيه الوحى
عند ذلك الخطّ ولا استحالة فى ان يكون ذلك عادة لبعض
الانبياء فانهم صلوات الله عليهم متفاوتون فى ادراك
الوحى قال تعالى تلك الرُسُل فضّلنا بعضهم على بعض
فمنهم من ياتيه الوحى ويكلمه الملك ابتداء من غير
طلب والوجهة ولذلك ومنهم من يتوجّه فيما يعرض له
من امور البشر بسوال امّته عن مشكل او تكليف او نحو
ذلك فيتوجّه وجهة ربّانيّة يتعرّض بها لكشف ما يريد من
ذلك من الله ويعطى التقسيم هنا قسما اخر ان وجد لان
الوحى قد يكون وهو لا يستعدّ له بشئ من الاحوال كالذى
ذكرناه وقد يكون وهو مستعدّ ببعض الاحوال كما نقل فى
الاسرائيلات ان بعض الانبياء كان يستعدّ لنزول الوحى

بسماع الاصوات الطيّبة الملحنة وهذا النقل وان لم يكن متمكّنا فى الصحّة الّا انه غير بعيد فالله تعالى يخصّ انبياءه ورسله بما شاء (نسخة) وقد نقل لنا ذلك عن بعض الكبار من المتصوّفة فى التعرّض للغيبة عن الحسّ بسماع الغنا يتجرّد بذلك لمداركه فى مقامه دون النبوة وما منا الا له مقام معلوم) واذا تقرر ذلك وقد كنّا قدّمنا ان فى اصحاب خطّ الرمل من يتعرّض للكشف به باشغال الحسّ بالنظر فى تلك الخطوط والاشكال فيعتريه حينئذ الادراك الغيبىّ الوجدانى (1) بالتفرّغ عن الحسّ جملة ويفارق المدارك البشريّة الى المدارك الروحانيّة وقد مرّ تفسيرهما وهذا من الكهانة من نوع النظر فى العظام والمياه والمرايا بخلاف من يقتصر فى ذلك منهما على الامر الصناعىّ الذى يحصل به على الغيب بالحدس والتخمين وهو لم يفارق المدارك الجسمانيّة بعد جايلا فى مرامى الظنون فقد يكون شأن بعض الانبياء الاستعداد بالخطّ فى مقامه النبوىّ لخطاب الملك كما يستعدّ به من ليس بنبى للادراك الروحانىّ ومفارقة المدارك البشريّة الا ان ادراكه روحانىّ فقط وادراك النبى ملكىّ بالوحى من عند الله واما مقامات اهل صناعة الخطّ فى مدارك الحدس والتخمين فحاشا للانبياء منها فانهم

(1) Man. B. الوجدان.

لا يشرعون التكلّم بالغيب ولا الخوض فيه لاحد من البشر وقوله فى الحديث فمن وافق خطّه فذاك اى فهو صحيح من بين الخطّ بما عضده من الوحى لذلك النبى الذى كانت عادته ان ياتيه الوحى عند الخطّ او تكون الاشارة بذلك الى تعظيمه وعلو شأنه فى اتّحاد خطوط الرمل بل لا نسبة بينه وبينها اذا كان على ذلك الوجه الذى كان النبى يستعدّ به للوحى فياتى على وفاقه واما اذا اخذ ذلك عن الخطّ مجرّدا من غير موافقة وحى فلا صحّة فيه وهذا معنى الحديث والله اعلم وليس فيه دلالة على مشروعيّة خطّ الرمل ولا جواز انتحاله لتعرف الغيب كما هو شأن اهله فى المدن وان مال الى ذلك بعضهم بناء على ان فعل النبى شريعة متبعة فيكون مشروعا على مذهب من يرى ان شرع من قبلنا شرع لنا وليس هذا بمطابق لذلك فان الشرع انما هو للرسل المشرعين للامم والحديث لم يدلّ على ذلك وانما دلّ على ان هذه الحالة تحصل لبعض الانبياء ويحتمل ان يكون غير مشروع فلا يكون ذلك شرعا لا خاصّا بامّته ولا عامّا لهم ولغيرهم وانما يدلّ على انها حالة تقع لبعض الانبياء خاصّة فلا تتعدّاه للبشر وهذا آخر ما اردنا تحقيقه هنا والله الملهم للصواب فاذا ارادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس او رمل او دقيق فوضعوا النقط

سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرّروا ذلك اربع مراتب فتجئ ستّة عشر سطرا ثم يطرحون النقط ازواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان او فردا فى مرتبة على الترتيب فتجئ اربعة اشكال يضعونها فى سطر متتالية ثم يولدون منها اربعة اشكال اخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى بازايه وما يجتمع فيها من زوج او فرد فتكون ثمانية اشكال موضوعة فى سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتهما باعتبار ما يجتمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين ايضا من زوج او فرد فتكون اربعة اخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر الستّة عشر ثم يحكمون على الخطّ كله بما اقتضته اشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على اصناف الموجودات وساير ذلك تحكّما غريبا وكثرت هذه الصناعة فى العمران ووضعت فيها التواليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدّمين والمتأخّرين وهى كما رايت تحكّم وهوًى والتحقيق الذى ينبغى ان يكون نصب فكرك ان الغيوب لا تدرك بصناعة البتّة ولا سبيل الى تعرّفها الّا للخواصّ من البشر المفطورين

على الرجوع عن عالم الحسّ الى عالم الروح ولذلك سمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى اصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخطّ وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من اهل هذه الخاصيّة وقصد بهذه الامور التى ينظر فيها من النقط والعظام او غيرها اشغال الحسّ لترجع النفس الى عالم الروحانيّات لحظه فهو من باب الطرق بالحصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفّافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة فهذر من القول والعمل والله يهدى من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها اهل هذا الادراك الغيبىّ انهم عند توجّههم الى تعرّف الكاينات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعيّة كالتثاوب (1) والتمطط ومبادى الغيبة عن الحسّ ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامات فليس من ادراك الغيب من شئ وانّما هو ساع فى تنفيق كذبه (فصل) ومنهم طوايف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذى هو من مدارك النفس الروحانيّة ولا من الحدس المبنى على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظنّ والتخمين الذى يحاول عليه

(1) Man. A. التشاوب.

العرّافون وانما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست اذكر من ذلك الا ما ذكره المصنّفون وولع به الخواصّ (فمن) تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك وهو ان تحسب الحروف التى فى اسم احدهما بحساب الجمل المصطلح عليه فى حروف ابجد من الواحد الى الالف آحاد وعشرات ومئين والوفا فاذا حسبت الاسم وتحصّل لك منه عدد فاحسب اسم الاخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كانا مختلفين فى الكميّة وكانا معا زوجين او فردين فصاحب الاقلّ منهما الغالب وان كان احدهما زوجا والاخر فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين فى الكميّة وهما معا زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معا فردين فالطالب هو الغالب ونقل هنالك بيتين فى هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما

اری الزوج الافراد يسمّو اقلّها واكثرها عند التخالف غالب
ويغلب مطلوب اذا الزوج ومند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما يبقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا

معروفا عندهم فى طرح تسعة وذلك بان يجمعوا الحروف الدالّة على الواحد فى المراتب الاربع وهى (ا) الدالّة على الواحد و(ى) الدالّة على العشرة وهى واحد فى مرتبة العشرات و(ق) الدالّة على الماية لانها واحد فى مرتبة المئين و(ش) الدالّة على الالف وهى واحد فى مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هى آخر ابجد ثم رتبوا هذه الحروف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعيّة وهى (ايقش) ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالّة على اثنين فى المراتب الثلاث واسقطوا مرتبة الآلاف منها لانّها كانت آخر حروف ابجد فكان مجموع حروف الاثنين فى المراتب ثلثة حروف وهى (ب) الدالّة على الاثنين فى الآحاد و(ك) الدالّة على اثنين فى العشرات وهى عشرون و(ر) الدالّة على اثنين فى المئين وهى مايتان وصيّروها كلمة واحدة ثلاثيّة على نسق المراتب وهى (بكر) ثم فعلوا ذلك فى الحروف الدالّة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة (جلش) وكذلك الى آخر حروف ابجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهى ايقش × بكر × جلش × دمت × هنث × وصخ × زعد × حفظ × طضغ + مرتّبة على توالى الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فالواحد لكلمة (ايقش) والاثنان لكلمة (بكر) والثلاثة لكلمة (جلش) وكذلك الى التاسعة التى هى (طضغ)

فتكون لها التسعة فاذا ارادوا طرح الاسم بتسعة نظروا لكل
حرف منه فى اى كلمة من هذه الكلمات واخذوا عددها
مكانه ثم يجمعون الاعداد التى ياخذونها بدلا من حروف
الاسم فان كانت زايدة على التسعة اخذوا ما فضل عنها
والا اخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الاخر وينظرون
بين الخارجين بما قدّمناه والسرّ فى هذا القانون بيّن
وذلك ان الباقى فى كل عقد من عقود الاعداد بطرح
تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصّة من كل
مرتبة فصارت اعداد العقود كلّها كانّها آحاد فلا فرق بين
الاثنين والعشرين والمأتين والالفين وكلها اثنان وكذلك
الثلاثة والثلاثون والثلاثماية والثلاثة الاف كلها ثلاثة فوضعت
الاعداد على التوالى دالّة على اعداد العقود لا غير وجعلت
الحروف الدالّه على اصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد
والعشرات والمئين والالوف وصار عدد الكلمة الموضوع عليها
نايبا عن كل حرف فيها سواء دلّ على الآحاد والعشرات
اوالمئين اوالالوف فيوخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف
التى فيها وتجتمع كلها الى آخرها كما قلناه وهذا هو العمل
المتداول بين الناس فيها منذ الامر القديم وكان بعض من
لقيناه من شيوخنا يرون ان الصحيح فيها كلمات اخرى
تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون فيها الطرح

بتسعة مثل ما يفعلون بالاخرى سواء وهى هذه ارب + يسفك × جزلط × مدوص × هف × تحذن × غش × خع تضظ × تسع كلمات على توالى العدد وفيها الثلاثى والرباعى والثناى وليست جارية على اصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من النجامة والسيميا واسرار الحروف وهو ابو العباس ابن البنا ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم اصحّ من العمل بكلمات ايقش فالله اعلم كيف ذلك وهذه كلّها مدارك الغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو الى ارسطو عند المحقّقين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك فتصفّحه ان كنت من اهل الرسوخ (ومن) هذه القوانين الصناعيّة لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة زايرجة العالم المعزوة الى ابى العباس السبتى من اعلام المتصوّفة بالمغرب كان فى آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهى غريبة العمل صنعية وكثير من الخواصّ يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرصون لذلك على حلّ رمزه وكشف غامضه لذلك وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دايرة عظيمة فى داخلها دواير

متوازية منها للافلاك وللعناصر وللمكوّنات وللروحانيّات ولغير ذلك من اصناف الكاينات والعلوم وكل دايرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج واما العناصر او غيرها وخطوط كل قسم مارّة الى المركز ويسمونها الاوتار على كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم الزمام التى هى اشكال الاعداد عند اهل الدواوين والحسبان بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة وفى داخل الزايرجة وبين الدواير اسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظهر الدواير جدول متكثّر البيوت المتقاطعة طولا وعرضا يشتمل على خمسة وخمسين بيتا فى العرض وماية واحدى وثلاثين فى الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد واخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الاعداد فى اوضاعها ولا القسمة التى عيّنت (1) البيوت العامرة من الخالية وحفافى الزايرجة ابيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل فى استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الا انها من قبيل الالغاز فى عدم الوضوح والجلاء وفى بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض اكابر اهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اهل اشبيليّة كان فى الدولة اللمتونيّة ونصّ البيت

(1) Man. A. et B. عنت.

سوال عظيم الخلق حزت فصن اذن   غريب غرايب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم فى العمل لاستخراج الجواب من السوال فى هذه الزايرجة وغيرها فاذا ارادوا استخراج الجواب عمّا يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم اخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا الى الزايرجة ثم الى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من اوله مارّا الى المركز ثم الى محيط الدايرة قبالة الطالع فياخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من اوّله الى آخره والاعداد المرسومة بينها ويصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون آحادها الى العشرات وعشراتها الى المئين وبالعكس فيها كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من اوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون حروف البيت الذى هو اصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم الذكر ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع فى اسّ البرج واسّه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الاسّ عند اهل صناعة الحساب فانّه عندهم البعد عن اول

المراتب ثم يضربونه فى عدد آخر يسمونه الاسّ الاكبر والدور الاصلىّ ويدخلون بما يجتمع لهم من ذلك فى بيوت الجدول على قوانين معروفة واعمال مذكورة وادوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون اخرى ويقابلون بما معهم فى حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السوال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف باعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون فى كل دور الحرف الذى ينتهى عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الادوار المعيّنة عندهم لذلك فتخرج آخرها حروف متقطعة وتولف على التوالى فتصير كلمات منظومة فى بيت واحد على وزن البيت الذى يقابل به العمل ورويّه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم حسبما نذكر ذلك كله فى فصل العلوم عند كيفيّة العمل بهذه الزايرجة وقد راينا كثيرا من الخواصّ يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الاعمال ويحسبون ان ما وقع من مطابقة الجواب للسوال فى توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانّه قد مرّ لك ان الغيب لا يدرك بامر صناعىّ البتّة وانما المطابقة التى فيها بين الجواب والسوال من حيث الافهام والتوافق فى الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما وموافقا للسوال ووقوع ذلك بهذه الصناعة فى تكسير الحروف المجتمعة

من السوال والاوتار (1) والدخول فى الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول واطراح اخرى ومعاودة ذلك فى الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالى غير مستنكر وقد يقع الاطّلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فتقع له معرفة المجهول منها فالتناسب بين الاشياء هو سرّ الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيّما من اهل الرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة فى الفكر وقد مرّ لك تعليل ذلك غير مرّة ومن اجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة فى الغالب لاهل الرياضة فهذه منسوبة للسبتى ووقفت على اخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمرى انها من الاعمال الغريبة والمعاناة (2) العجيبة والجواب الذى يخرج منها فالسرّ فى خروجه منظوما فيما يظهر لى انّما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويّه ويدلّ عليه انّا وجدنا اعمالا اخرى لهم فى مثل ذلك اسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك فى موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق

(1) Man. A. et B. الاوتاد.

(2) Man. A. et B. المعايات.

بهذا العمل ونفوذه الى المطلوب فينكر صحّتها ويحسب انها من التخييلات والايهامات وان صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذى ينظمه كما يريد بين اثناء حروف السوال والاوتار ويفعل تلك الصناعة على غير نسبة ولا قانون ثم يجئ بالبيت ويوهم ان العمل جاء به على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهّم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعلومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكنّ من شأن كل مدرك ان ينكر ما ليس فى طوقه ادراكه ويكفينا فى ردّ ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعىّ بانّها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح ولا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له مزيد ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعاناة (1) فى العدد الذى هو اوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعد النسبة فيه وخفايها فما ظنّك مثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها (فلنذكر) مسئلة من المعاناة (2) يتّضح لك بها شئ ممّا ذكرناه مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التى اخذت واشتر بها طايرا ثم اشتر بالدراهم طيورا بسعر ذلك الطاير فكم الطيور المشتراة فجوابه ان تقول هى تسعة لانّك

(1) Man. A. et C. المعايات. B. المعاياة. (2) Man. A. et C. المعايات. B. المعاياة.

تعلم ان فلوس الدراهم اربعة وعشرون وان الثلاثة ثمنها وان عدّة اثمان الواحد ثمانية فكانك جمعت الثمن من كل درهم الى الثمن من الاخر فكان كله ثمن طاير فهى ثمانية طيور عدّة اثمان الواحد وتزيد على الثمانية طايرا اخر وهو المشترى بالفلوس الماخوذة اولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسرّ التناسب الذى بين اعداد المسئلة والوهم اول ما يلقى اليك هذه وامثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذى لا يمكن معرفته فظهر ان التناسب بين الامور هو الذى يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو فى الواقعات الحاصلة فى الوجود او العلم واما الكائنات المستقبلة اذا لم نعلم اسباب وقوعها ولا ثبت لنا خبر صادق عنه فهو غيب لا يمكن معرفته واذا تبيّن لك ذلك فالاعمال الواقعة فى هذه الزايرجة كلها انما هى استخراج الفاظ الجواب من الفاظ السؤال لانها كما رأيته استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب اخر وسرّ ذلك انما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسّر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدلّ فى مقام اخر من حيث وضوع الفاظه وتراكيبه على وقوع احد طرفى السؤال من نفى او

اثبات وليس هذا من المقام الاول بل انما يرجع الى مطابقة الكلام لها فى الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وانتم لا تعلمون

الفصل الثانى من الكتاب الاوّل فى العمران البدوى والامم الوحشيّة والقبايل وما يعرض فى ذلك من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات

فصل فى ان اجيال البدو والحضر طبيعيّة

اعلم ان اختلاف الاجيال فى احوالهم انّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فانّ اجتماعهم انّما هو للتعاون (1) على تحصيله والابتداء بما هو ضرورىّ منه وبسيط قبل الحاجىّ والكمالىّ فمنهم من ينتحل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاء والبقر والمعز والنحل والدود للقزّ لنتاجها واستخراج فضلاتها وهولاء القايمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بدّ الى البدو لانّه متّسع لما لا يتّسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح

(1) Man C. et D المتعاون.

للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هولاء البدو امرا ضروريّا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجات معاشهم وعمرانهم من القوت والكنّ والدفء انّما هو بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويحصّل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك ثم اذا اتّسعت احوال هولاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا فى الزايد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتانّق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحصّن ثم تزيد احوال الرفه والرغد فتجئ عوايد الترف البالغة مبالغها فى التانّق فى علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة فى انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالات البيوت والصروح واحكام وضعها فى تنجيدها والانتهاء فى الصنايع فى الخروج من القوة الى الفعل الى غايتها فيتّخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون فى صروحها وتنجيدها ويختلفون فى استجادة ما يتّخذونه لمهنهم من لبوس او فراش او آنية او ماعون وهولاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان ومن هولاء من ينتحل فى معاشه الصنايع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم انما و ارفه من اهل البدو لان

احوالهم زايدة على الضرورىّ ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبيّن ان احوال البدو والحضر طبيعيّة لا بدّ منها كما قلناه

فصل فى ان جيل العرب فى الخليقة طبيعىّ

قد قدّمنا فى الفصل قبله ان اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعىّ من الفلح والقيام على الانعام وانهم مقتصرون على الضرورىّ فى الاقوات والملابس والمساكن وساير الاحوال والعوايد ومقتصرون عمّا فوق ذلك من حاجىّ او كمالىّ فيتّخذون البيوت من الشعر او الوبر او الشجر او من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكنّ لا ما وراءه وقد يأوون الى الغيران والكهوف واما اقواتهم فيتناولونها بيسير العلاج او بغير علاج البتّة الّا ما مسّته النار فمن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به اولى من الظعن وهولاء سكّان المداشر والقرى والجبال وهم عامّة البربر والاعاجم ومن كان معاشه فى السايمة مثل البقر والغنم فهم ظواعن فى الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيوانهم اذ التقلّب فى الارض اصلح بها ويسمّون شاوية ومعناه القايمون على الشاء والبقر ولا يبعدون فى القفر لفقدان المسارح الطيّبة به وهولاء مثل البربر والترك واخوانهم من التركمان والصقالبة (واما) من كان معاشهم

فى الابل فهم اكثر ظعنا وابعد فى القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى به الابل فى قوام حياتها عن مرعى الشجر فى القفر وورود مياهه المالحة والتقلّب فصل الشتاء فى نواحيه فرارا من اذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لمفاحص النتاج فى رماله اذ الابل اصعب الحيوان فصالا ومخاضا واحوجها فى ذلك الى الدفء فاضطرّوا الى ابعاد النجعة وربّما ذادتهم الحامية عن التلول ايضا فاوغلوا فى القفار نفرة عن النصفة منهم والجزاء بعداوتهم فكانوا لذلك اشدّ الناس توحّشا وتنزّلوا من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات العجم وهولاء هم العرب وفى معناهم ظواعن البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق الّا ان العرب ابعد نجعة واشدّ بداوة لانّهم مختصّون بالقيام على الابل فقط وهولاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها فقد تبيّن لك ان جيل العرب طبيعىّ لا بدّ منه فى العمران والله الخلّاق العليم

فصل فى ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار ومدد لها

قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضرورىّ فى احوالهم

العاجزين عمّا فوقه وان الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال فى احوالهم وعوايدهم ولا شكّ ان الضروريّ اقدم من الحاجيّ والكماليّ وسابق عليه وكان الضروريّ اصل والكماليّ فرع ناشئ عنه فالبدو اصل للمدن والحضر سابق عليها لانّ اول مطالب الانسان الضروريّ ولا ينتهى الى الترف والكمال الّا اذا كان الضرورى حاصلا فخشونة البداوة قبل رقه الحضارة ولهذا نجد التمدّن غاية للبدويّ يجرى اليها وينتهى بسعيه الى مقترحه (1) منها ومتى حصل على الرياش الذى تحصل به احوال الترف وعوايده عاج الى الدعة وامكن نفسه من قياد المدينة وهكذا شأن اهل القبايل المبتدية كلهم والحضريّ لا يتشوّف الى احوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها او لتقصير عن احوال اهل مدينته (ومما) يشهد لنا ان البدو اصل للحضر ومتقدّم عليه أنّا اذا فتشنا اهل مصر من الامصار وجدنا اوّليّة اكثرهم من اهل البدو الذين بضاحية ذلك المصر وفى قراه وانهم ايسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذى فى الحضر وذلك يدلّ على ان احوال الحضارة ثانية عن احوال البداوة وانها اصل لها فتفهّمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فربّ حيّ اعظم من حيّ

(1) Man. C. مفترجة.

وقبيلة اعظم من قبيلة ومصر اوسع من مصر ومدينة اكثر عمرانا من مدينة وقد تبيّن ان وجود البدو متقدّم على وجود المدن والامصار واصل لها كما ان وجود المدن والامصار من عوايد الترف والدعة الذى هو متاخّر عن عوايد الضرورة المعاشيّة

فصل فى ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيّئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شرّ قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهوّدانه او ينصّرانه او يمجّسانه وبقدرما يسبق اليها من احد الخلقين تبعد عن الاخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوايد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشرّ وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشرّ اذا سبقت اليه ايضا عوايده واهل الحضر لكثرة ما يعانونه من فنون الملاذّ وعوايد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوّثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشرّ وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدرما حصل لهم من ذلك حتّى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى احوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون فى اقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين

كبرائهم واهل محارمهم لا يصدّهم عنه وازع الحشمة لما اخذتهم به عوايد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملا واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه فى المقدار الضرورىّ لا فى الترف ولا فى شىء من اسباب الشهوات واللذّات ودواعيها فعوايدهم فى معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقلّ بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عمّا ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوايد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر وهو ظاهر وقد نوضح فيما بعد ان الحضارة هى نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشرّ والبعد عن الخير فقد تبيّن ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر والله يحبّ المتّقين ولا يعترض على ذلك بما ورد فى حديث البخارى من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع وقد بلغه انه خرج الى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعرّبت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لى فى البدو فاعلم ان الهجرة افترضت اول الاسلام على اهل مكّة ليكونوا مع النبى صلى الله عليه وسلم حيث حلّ من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على امره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الاعراب اهل البادية لان

اهل مكة يمسّهم من عصبيّة النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهرة والحراسة ما لا يمسّ غيرهم من بادية الاعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرّب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد بن ابى وقاص عند مرضه بمكّة اللهمّ امض لاصحابى هجرتهم ولا تردّهم على اعقابهم ومعناه ان يوفّقهم لملازمة المدينة وعدم التحوّل عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التى ابتدوا بها وهو من باب الرجوع على العقب فى السعى الى وجه من الوجوه وقيل ان ذلك كان خاصّا بما قبل الفتح وحين كثر المسلمون واعتزّوا وتكفّل الله لنبيه بالعصمة من الناس فان الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح قيل سقط انشاوها عمّن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمّن اسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على انها بعد الوفاة ساقطة لان الصحابة افترقوا من يومئذ فى الآفاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكنى فى المدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعرّبت نعى عليه فى ترك السكنى بالمدينة بالاشارة الى الدعاء المأثور الذى قدّمناه وهو قوله ولا تردّهم على اعقابهم وبقوله تعرّبت الى انه صار من العرب الذين لا يهاجرون واجاب

سلمة بانكار ما الزمه من الامرين وان النبى صلى الله عليه وسلم اذن له فى البدو ويكون ذلك خاصّا به كشهادة خزيمة وعناق ابى بردة او يكون الحجاج انّما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة بان اغتنامه لاذن النبى صلى الله عليه وسلم اولى وافضل فما اثره به واختصّه الا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس فيه دليل على مذمّة البدو الذى عبّر عنه بالتعرّب لان مشروعيّة الهجرة انما كان كما علمت لمظاهرة النبى صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمّة البدو فليس فى النعى على ترك هذا الواجب بالتعرّب دليل على مذمّة التعرّب والله اعلم

فصل فى ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب فى ذلك ان اهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا امرهم فى المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولّت حراستهم واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم لا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارّون آمنون قد القوا السلاح وربيت على ذلك منهم اجيال وتنزّلوا منزلة النساء والولدان الذين

هم عيال على ابى مثواهم حتّى صار ذلك خلقا لهم يتنزّل منزلة الطبيعة واهل البدو لتفرّدهم عن المجتمع وتوحّشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قايمون بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دايما يحملون السلاح ويتلفّتون (1) عن كل جانب فى الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب يتوجّسون للنبأة والهيعات (2) وينفردون فى القفر والبيداء مدلّين بباسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم الباس خلقا والشجاعة سجيّة يرجعون اليها متى دعاهم داع او استفزّهم صارخ واهل الحضر مهما خالطوهم فى البادية اوصاحبوهم فى السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شئا من امر انفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى فى معرفة النواحى والجهات وموارد الماء ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه واصله ان الانسان ابن عوايده ومالوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذى الفه من الاحوال حتى صار له خلقا وملكة وعادة تنزل (3) منزلة الطبيعة والجبلّة واعتبر ذلك فى الادميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء وهو الخلّاق العليم

(1) Man. D. يلتفتون. (2) Man. D. الصعاب. (3) Man. C. تتنزّل.

فصل فى ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك انه ليس كل احد مالكا امر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب ان يكون الانسان فى ملكة غيره ولا بدّ فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لايعانا منها حكم ولا منع وصدّ كان من تحت يدها مدلّين بما فى انفسهم من شجاعة او جبن واثقين بعدم الوازع حتّى صار لهم الادلال جبلّة لهم لا يعرفون سواها واما اذا كانت الملكة واحكامها بالقهر والسطوة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل فى النفوس المضطهدة كما نبيّنه وقد نهى عمر سعدا رضى الله عنهما عن مثلها لما اخذ زهرة بن حويّة سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين الفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله واخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال هلا (1) انتظرت فى اتباعه اذنى وكتب الى عمر يستاذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقى عليك ما بقى من حربك فتكسر قرنه وتفسد قلبه وامضى له عمر سلبه واما اذا كانت الاحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة

(1) Man. A. B. et C. الا.

التى تكسر من سورة بأسه بلا شكّ وامّا اذا كانت الاحكام تاديبيّة وتعليميّة واخذت من عهد الصبا اثرت فى ذلك بعض الشئ لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلّا ببأسه ولهذا نجد المتوحّشين من العرب اهل البدو اشدّ بأسا ممّن تاخذه الاحكام ونجد ايضا الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم فى التأديب والتعليم فى الصنايع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدافعون عن انفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشايخ والايمّة الممارسين للتعليم والتاديب فى مجالس الوقار والهيبة فتفهم هذه الاحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكرنّ (1) ذلك بما وقع فى الصحابة من اخذهم باحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا اشدّ الناس بأسا لان الشارع صلوات الله عليه لما اخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعه فيه من انفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعىّ ولا تاديب تعليمىّ انّما هى احكام الدين وآدابه المتلقّاة نقلا يأخذون انفسهم بها بما رسخ فيهم من عقايد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها اظفار التأديب والحكم

(1) Man. A. et D. يستنكرون. B. يستنكرن.

قال عمر رضى الله عنه من لم يودّبه الشرع ولا ادّبه الله حرصا على ان يكون الوازع لكل احد من نفسه ويقينا بان الشارع اعلم بمصالح العباد (ولها) تناقص الدين فى الناس واخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يوخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبيّن ان الاحكام السلطانيّة والتعليميّة مفسدة للبأس لان الوازع فيها اجنبىّ وامّا الشرعيّة فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتىّ ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانيّة والتعليميّة مما يؤثر فى اهل الحواضر فى ضعف نفوسهم وخضد (1) الشوكة منهم بمعاناتها فى وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن احكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال ابو محمد بن ابى زيد فى كتابه احكام المعلّمين والمتعلّمين انه لا ينبغى للمؤدّب ان يضرب احدا من الصبيان فى التعليم فوق ثلاثة اسواط نقله عن شريح القاضى واحتجّ له بعضهم بما وقع فى حديث بدء الوحى من شأن الغطّ وانه كان ثلاث مرّات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغطّ ان يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

(1) Man. B. حضد. C. خضل. D. حصد.

فصل فى ان سكنى البدو لا يكون الّا للقبايل اهل العصبيّة

اعلم ان الله سبحانه ركب فى طباع البشر الخير والشرّ كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال تعالى فالهمها فجورها وتقواها والشرّ اقرب الخلال اليه اذا اهمل فى مرعى عوايده ولم يهذّبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفّقه الله ومن اخلاق الشرّ فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدّت عينه الى متاع اخيه امتدّت يده الى اخذه الى ان يصدّه وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

فامّا المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض يدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على ايدى من تحتهم من الكافة ان يمتدّ بعضهم الى بعض او يعدو عليه فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه وامّا العدوان الذى من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة او الغرّة ليلا او العجز عن المقاومة نهارا ويدفعه ذياد الحامية من اعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة (واما) احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر فى نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلّة وامّا حللهم فانّما يذود عنها من خارج حامية الحىّ من انجادهم وفتيانهم

المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبيّة واهل نسب واحد لانّهم بذلك تشتدّ شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل احد على نسبته وعصبيّته اهمّ وما جعل الله فى قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى ارحامهم وقرباهم موجود فى الطباع البشريّة وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القران عن اخوة يوسف حين قالوا لابيه لئن اكله الذئب ونحن عصبة انّا اذا لخاسرون والمعنى انه لا يتوهّم العدوان على احد مع وجود العصبيّة له وامّا المنفردون فى انسابهم فقلّ ان يصيب احدا منهم نعرة على صاحبه فاذا اظلم الجوّ بالشرّ يوم الحرب تسلّل كل واحد منهم يبغى النجاة بنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقتدرون من اجل ذلك على سكنى القفر لما انهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الامم سواهم واذا تبيّن ذلك فى السكنى التى تحتاج الى المدافعة والحماية فبمثله يتبيّن لك فى كل امر يحمل الناس عليه من نبوة او اقامة ملك او دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتمّ بالقتال عليه لما فى طباع البشر من الاستعصاء ولا بدّ فى القتال من العصبيّة كما ذكرناه انفا فاتّخذه اماما تقتدى به فيما نورده عليك من بعد والله الموفّق

فصل فى ان العصبيّة انّما تكون من الالتحام بالنسب او ما فى معناه

وذلك ان صلة الرحم طبيعىّ فى البشر الّا فى الاقلّ ومن صلتها النعرة على ذوى القربى واهل الارحام ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة فان القريب يجد فى نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعيّة فى البشر مذ كانوا فاذا كان النسب الواصل بين المتناصرين قريبا جدّا بحيث حصل به الالتحام والاتّحاد كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرّدها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشئ فربّما تنوسى بعضها وتبقى منه شهرة فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التى يتوهّمها فى نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه (ومن) هذا الباب الولاء والحلف اذ نعرة كل احد على اهل ولايه وحلفه للانفة التى تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلّموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم بمعنى ان النسب انّما فايدته

هذا الالتحام الذى يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب امر وهمىّ لا حقيقة له ونفعه له انّما هو فى هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انّما استفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فايدته وصار الشغل به مجانا ومن اعمال اللهو المنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فايدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التى تحمل عليها العصبيّة فلا منفعة حينئذ فيه والله تعالى اعلم

فصل فى ان الصريح من النسب انّما يوجد للمتوحّشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم

وذلك لما اختصّوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء الموطن حملتهم عليها الضرورة التى عيّنت لهم تلك القسمة وهى بما كان معاشهم من القيام على الابل ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحّش فى القفر لرعيها من شجره ونتاجها فى رماله كما تقدّم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفا وعادة وربيت فيها اجيالهم حتى

تمكّنت خلقا وجبلّة فلا ينزع اليهم احد من الامم ان يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم احد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وامكنه ذلك لما تركه فيومن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني اسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا اهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من ارياف الشام والعراق ومعادن الادم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب (واما) العرب الذين كانوا في التلول في معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعة واياد فاختلطت انسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وانّما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانّما هذا للعرب فقط قال عمر تعلّموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا هذا الى ما لحق هولاء العرب اهل الارياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيّب والمراعي الخصبة فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام

الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب امر النسب وانّما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتّى عرفوا بها وصارت لهم علامة زايدة على النسب يتميّزون بها عند امرائهم ثم وقع الاختلاط فى الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبيّة فاطرحت ثم تلاشت القبايل ودثرت فدثرت العصبيّة بدثورها وبقى ذلك فى البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى اختلاط الانساب كيف يقع

انّه من البيّن انّ بعضا من اهل الانساب يسقط الى اهل نسب اخر بنزوع اليهم او حلف او ولاء او لفرار من قومه بجناية اصابها فيدّعى بنسب هولاء ويعدّ منهم فى ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وساير الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكانّه وجد لانّه لا معنى لكونه من هولاء او من هولاء الا جريان احكامهم واحوالهم عليه وكانّه التحم بهم ثم انه قد يتناسا النسب الاول بطول الزمان ويذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر فما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين فى الجاهليّة والاسلام والعرب

والعجم وانظر خلاف الناس فى نسب المنذر وغيرهم تتبيّن شيًا من ذلك (ومنه) شأن بجيلة فى عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا نزيف اى دخيل ولصيق وطلبوا ان يولى عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا امير المومنين انا رجل من الازد اصبت دما فى قومى ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتّى ترشّح للريّاسة عليهم لولا علم بعضهم بوشايجه ولو غفلوا عن ذلك وامتدّ الزمان لتنوسى بالجملة وعدّ منهم بكل وجه ومذهب فافهم واعتبر سرّ الله فى خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود

فصل فى ان الريّاسة على اهل العصبيّة لا تكون فى غير نسبهم

وذلك انّ الريّاسة لا تكون الا بالغلب والغلب انّما يكون بالعصبيّة كما قدّمناه فلا بدّ فى الريّاسة على القوم ان تكون من عصبيّة غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لانّ كل عصبيّة منهم اذا احسّت بغلبة عصبيّة الرئيس لهم اقرّوا بالاذعان والاتباع والساقط فى نسبهم بالجملة لا تكون له عصبيّة بالنسب انّما هو ملصق نزيف وغاية التعصّب له

بالولاء والحلق وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتّة وان فرضنا انه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهده الاول من الالتصاق ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام او لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة فى منبت واحد يعيّن له الغلب بالعصبيّة فالاوليّة التى كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالصاق من الرياسة حينيذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق والرياسة لا بدّ وان تكون موروثة عن مستحقّها لما قلناه من التغلّب بالعصبيّة (وقد) يتشوّف كثير من الرؤساء على القبايل والعصايب (1) الى انساب يلحقون (2) بها امّا لخصوصيّة فضيلة كانت فى اهل ذلك النسب من شجاعة او كرم او ذكر كيف اتّفق فينزعون الى ذلك النسب ويتورّطون بالدعوى فى شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه انفسهم من القدح فى رياستهم والطعن فى شرفهم وهذا كثير للناس فى هذا العهد (ومن ذلك) ما تدّعيه زناتة جملة انهم من العرب ومنه ادّعاء اولاد رباب المعروفين بالحجازين من بنى عامر احدى شعوب زغبة انهم من بنى سليم ثم من الشريد منهم لحق جدّهم ببنى عامر نجارا يصنع الحرجان واختلط

(1) Man. A. et B. العصبيّات. (2) Man. A. et B. يلهجون. C. يلتهجون.

بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازى (ومن) ذلك ادّعاء بنى عبد القوى بن العباس من توجين انّهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة فى هذا النسب الشريف وغلطا باسم العباس بن عطية ابى عبد القوى ولم يعلم دخول احد من العباسيّين الى المغرب لانّه كان منذ اول دولتهم على دعوة العلويين اعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العبّاسىّ الى احد من شيعة العلويين (وكذلك) ما يدّعيه ابناء زيان ملوك بنى عبد الواد انّهم من ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر فى نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتىّ ايت القاسم اى بنو القاسم ثم يدّعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس او القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه فرّ من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تتمّ له الرياسة عليهم فى باديتهم وانّما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الدوران فى الادارسة فتوهموا ان قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فانّ منالهم للملك والعزّة انّما كان بعصبيّتهم ولم يكن بادّعاء علويّة ولا عبّاسيّة ولا شئ من الانساب وانّما يحمل على هذا المتقرّبون الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الردّ (فلقد) بلغنى عن يغمراسن بن زيان موثل سلطانهم

انه لمّا قيل له ذلك نكره وقال بلغته الزناتيّة ما معناه امّا الدنيا والملك فنلناه بسيوفنا لا بهذا النسب وامّا نفعه فى الآخرة فمردود الى الله واعرض عن المتقرّب اليه بذلك (ومن) هذا الباب ما يدّعيه بنو سعد شيوخ بنى يزيد من زغبة انهم من ولد ابى بكر الصديق رضى الله عنه وبنو سلامة شيوخ بنى يَدْلَلْتُن من توجين انهم من سليم وكذا الذواودة شيوخ رياح انّهم من اعقاب البرامكة وكذلك بنو مهنا امراء طى بالمشرق يدّعون فيما بلغنا انهم من اعقابهم وامثال ذلك كثير ورياستهم فى قومهم مانعة من ادّعاء هذه الانساب كما ذكرناه بل يعين ان يكونوا من صريح ذلك النسب واقوى عصباته فاعتبره واجتنب المغالطة فيه ولا يجعل من هذا الباب الحاق مهدى الموحدين بنسب العلويّة فان المهدى لم يكن من منبت الرياسة فى هرغة قومه وانّما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبايل المصامدة فى دعوته وكان مع ذلك من اهل المنابت المتوسّطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

فصل فى ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبيّة ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك ان الشرف والحسب انّما هو بالخلال ومعنى

البيت ان يعدّ الرجل فى ابائه اشرافا مذكورين يكون له بولادتهم اياه والانتساب اليه تجلّة فى اهل جلدته لما وقر فى نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلالهم والناس فى نشوُهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم فى الجاهليّة خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا فمعنى الحسب راجع الى الانساب وقد بيّنّا ان ثمرة الانساب وفايدتها انّما هى العصبيّة للنعرة والتناصر فحيث تكون العصبيّة مرهوبة ومخشية والمنبت فيها ذكى محمى تكون فايدة النسب اوضح وثمرتها اقوى وتعديد الاشراف من الاباء زايدا فى فايدتها فيكون الحسب والشرف اصيلا فى اهل العصبيّة لوجود ثمرة النسب وتتفاوت البيوت فى هذا الشرف بتفاوت العصبيّة لانه سرّها ولا يكون للمنفردين من اهل الامصار بيت الا بالمجاز وان توهّموه فزخرف من الدعاوى واذا اعتبرت الحسب فى الامصار وجدت معناه ان الرجل منهم يعدّ سلفا فى خلال الخير ومخالطة اهله مع الركون على العافية ما استطاع وهذا مغاير لسرّ العصبيّة التى هى ثمرة النسب وتعديد الآباء لكنّه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز بعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسبا بالحقيقة وعلى الاطلاق (وقد) يكون للبيت شرف اوّل بالعصبيّة والخلال ثم

ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدّم ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدّون به انفسهم من اشراف البيوتات اهل العصايب وليسوا منها فى شئ لذهاب العصبيّة جملة وكثير من اهل الامصار الناشئين فى بيوت العرب او العجم لاول عهدهم موسوسون بذلك واكثر ما رسخ الوسواس لذلك لبنى اسرائيل فانه كان لهم بيت من اعظم بيوت العالم بالمنبت اوّلا لما تعدّد فى سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى صاحب ملّتهم وشريعتهم ثم بالعصبيّة ثانيا وما اتاهم الله به من الملك الذى وعدهم به ثم انسلخوا عن ذلك اجمع وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الارض وانفردوا بالاستعباد والكفر آلافا من السنين ثم ما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هرونى هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبيّة ورسوخ الذلّ فيهم منذ احقاب متطاولة وكثير من اهل الامصار غيرهم المنقطعين فى انسابهم عن العصبيّة يذهب الى هذا الهذيان (وقد) غلط ابو الوليد ابن رشد فى هذا لما ذكر الحسب فى كتاب الخطابة من تلخيص كتب العلم الاول فقال والحسب هو ان يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرّض لما

ذكرناه وليت شعرى ما الذى ينفعه قدم نزلهم بالمدينة ان لم يكن لهم عصابة يرهب بها جانبه ويحمل غيرهم على القبول منه فكانه اطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع ان الخطابة انّما هى استمالة من توثر استمالته وهم اهل الحل والعقد وامّا من لا قدرة له البتّة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة احد ولا يستمال هو واهل الامصار من الحضر بهذه المثابة الّا انّ ابن رشد ربى فى جيل وبلد لم يمارسوا العصبيّة ولا انسوا احوالها فبقى فى امر البيت والحسب على الامر المشهور من تعديد الآباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبيّة وسرّها فى الخليقة والله بكل شئ عليم

فصل فى ان البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انّما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك انّا قدّمنا الآن ان الشرف بالاصالة والحقيقة انّما هو لاهل العصبيّة فاذا اصطنع اهل العصبيّة قوما من غير نسبهم او استرقوا العبدى والموالى والتحموا بهم كما قلناه ضرب معهم اولئك الموالى والمصطنعون بسهم فى تلك العصبيّة ولبسوا جلدتها كانّها عصبيّتهم وحصل لهم من

الانتظام فى العصبيّة مساهمة فى نسبها كما قال صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رقّ او مولى اصطناع وحلف وليس نسب ولادته نافع له فى تلك العصبيّة اذ هى مباينة لذلك النسب وعصبيّة ذلك النسب مفقودة لذهاب سرّها عند التحامه بهذا النسب الاخر وفقدان اهل عصبيّتها (1) فيصير من هولاء ويندرج فيهم فاذا تعدّدت له الآباء فى هذه العصبيّة كان له بينهم شرف وبيت على نسبته فى ولائه واصطناعه لا يتجاوزه الى شرفهم بل يكون ادون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى فى الدول والخدمة كلهم فانهم انّما يشرفون بالرسوخ فى ولاء الدولة وخدمتها وتعدّد الآباء فى ولايها الا ترى الى موالى الترك فى دولة بنى العبّاس والى بنى برمك من قبلهم وبنى نوبخت كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ فى ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من اعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب فى الفرس وكذا موالى كل دولة وخدمتها انّما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ فى ولايها والاصالة فى اصطناعها ويضمحلّ نسبة الاقدم ان كان من غير نسبها ويبقى ملقى لا عبرة به فى اصالته

(1) Man. A. et B. عصبتها.

ومجده وانّما المعتبر نسبة ولايه واصطناعه اذ فيه سرّ العصبيّة التى بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقّا من شرف مواليه وبيته من بنائهم (1) فلم ينفعه نسب الولادة وانّما بناء مجده نسب الولاء فى الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسبة الاول فى لحمة عصبيّة ودولة فاذا ذهبت وصار ولاه واصطناعه فى اخرى لم ينفعه الاول لذهاب عصبيّته وانتفع بالثانى لوجودها وهذا حال بنى برمك اذ المنقول انهم كانوا اهل بيت فى الفرس من سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بنى العباس لم يكن بالاول اعتبار وان كان شرفهم من حيث ولايهم فى الدولة واصطناعهم وما سوى ذلك فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه واكرمكم عند الله اتقاكم

فصل فى ان الحسب فى العقب الواحد اربعة آباء

اعلم ان العالم العنصرىّ بما فيه كاين فاسد لا من ذواته ولا من احواله فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كاينة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانيّة فالعلوم تنشأ ثم

(1) Man. A. et B. بيانهم.

تدرس وكذلك الصنايع وامثالها والحسب من العوارض التى تعرض للادميّين فهو كاين فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من اهل الخليقة شرف متّصل فى آبايه من لدن آدم اليه الّا ما كان من ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على الشرفيّة (1) واول كل شرف خارجيّة كما قيل وهى الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه ان كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم ان نهايته فى اربعة ابناء من عقبه وذلك ان بانى المجد عالم بما عاناه فى بنايه ومحافظ على الخلال التى هى اسباب كونه وبقايه وابنه من بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك واخذه عنه الا انه مقصّر فى ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعاين ثم اذا جاء الثالث كان حظّه الاقتفاء والتقليد خاصّة فقصّر عن الثانى تقصير المقلّد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصّر عن طريقتهم جملة واضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهّم ان ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف وانّما هو امر واجب لهم منذ اول النشاءة بمجرّد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلّة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهّم انه النسب

(1) Man. A. B. C. السرفيه.

فقط فيرباء بنفسه عن اهل العصبيّة ويرى الفضل عليهم وثوقا بما ربى فيه عن استتباعهم وجهلا بما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال التى منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم لذلك فينتقضون (1) عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه فى غير ذلك العقب للاذعان بعصبيّتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوى فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا فى الملوك وهكذا فى بيوت القبايل والامراء واهل العصبيّة اجمع ثم فى بيوت اهل الامصار اذا انحطّت بيوت نشأت بيوت اخرى من ذلك النسب ان يشاء يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز (واشتراط) الاربعة فى الاحساب انّما هو فى الغالب والّا فقد يدثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتّصل امرها الى الخامس والسادس الّا انه فى انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بانٍ ومباشر له ومقلّد وهادم وهو اقلّ ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة فى نهاية الحسب فى باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم اشارة الى انه بلغ فى المجد وفى

(1) Man. B. ينتقصون. D. ينتفضون.

التورية ما معناه انا الله ربّك طابق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهو يدلّ على ان الاربعة الاعقاب غاية فى الانساب والحسب (ومن) كتاب الاغانى فى اخبار عُوَيف القوافى ان كسرى قال للنعمان هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال باى شئ قال من كانت له ثلاثة آباء متواليه روساء ثم اتّصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده الّا فى ال حذيفة بن بدر الفزارى وهم بيت قيس وآل حاجب بن زرارة بيت تميم وآل ذى الجدين بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة فجمع هولاء الرهط ومن تبعهم من عشايرهم واقعد لهم الحكّام العدول فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان ثم بسطام ابن قيس من شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيّد يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هى المذكورة بالشرف فى العرب بعد بنى هاشم ومعهم بيت بنى الديان من بنى الحرث بن كعب بيت اليمن وهذا كلّه يدلّ على ان الاربعة آبا نهاية فى الحسب والله اعلم

فصل فى ان الامم الوحشيّة اقدر على التغلّب من سواها

اعلم انه لما كانت البداوة سببا فى الشجاعة كما قلناه فى المقدّمة الثالثة لا جرم كان هذا الجيل الوحشىّ اشدّ شجاعة من الجيل الاخر فهم اقدر على التغلّب وانتزاع ما فى ايدى سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف احواله فى ذلك باختلاف الاعصار فكلّما نزلوا الارياف وتبنكوا النعيم والفوا عوايد الخصب فى المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحّشهم وبداوتهم واعتبر ذلك فى الحيوانات العجم فى دواجن الظباء والبقر الوحشيّة والحمر اذا زال توحّشها بمخالطة الادميّين واخصب عيشها كيف يختلف حالها فى الانتهاض والشدّة حتّى فى مشيّتها وحسن اديمها وكذلك الادمى المتوحّش اذا انس والف وسببه ان تكون السجايا والطبايع انّما هو عن المالوفات والعوايد واذا كان الغلب للامم انّما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال اعرق فى البداوة واكثر توحّشا كان اقرب الى التغلّب على سواه اذا تقاربا فى العدد وتكافا فى القوة والعصابة وانظر فى ذلك شان مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة الموطنين ارياف العراق ونعيمه لما بقى مضر فى بداوتهم وتقدّمهم الاخرون الى

خصب العيش وغضارة النعيم كيف ارهفت البداوة حدّهم فى التغلّب فغابوهم على ما فى ايديهم وانتزعوه منهم وهكذا حال بنى طى وبنى عامر بن صعصعة وبنى سليم بن منصور من بعدهم لمّا تاخّروا فى باديتهم عن ساير قبايل مضر واليمن ولم يلتبسوا (1) بشىء من دنياهم كيف امسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيّتهم ولم يخلقها مذاهب الترف حتّى صاروا اغلب على الامر منهم وكذا كل حىّ من العرب يلى نعيما وعيشا خصبا دون الحىّ الاخر فان الحىّ المبتدى يكون اغلب له واقدر عليه اذا تكافا فى القوة والعدد سنّة الله فى خلقه

فصل فى ان الغاية التى تجرى اليها العصبيّة هى الملك

وذلك لانّا قدّمنا ان العصبيّة بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه وقدّمنا ان الادميّين بالطبيعة الانسانيّة يحتاجون فى كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بدّ ان يكون متغلّبا عليهم بتلك العصبيّة والا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلّب هو الملك وهو امر زايد على الرياسة انّما هى سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر فى احكامه واما الملك فهو التغلّب والحكم بالقهر وصاحب العصبيّة اذا بلغ الى رتبة السودد والاتباع

(1) Man. C. et D. يكتسبوا.

ووجد السبيل الى التغلّب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتمّ اقتدارها عليه الّا بالعصبيّة التى يكون بها متبوعا فالتغلّب الملكىّ غاية العصبيّة كما رايت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيّات متعدّدة فلا بدّ من عصبيّة اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيّات فيها وتصير كانّها عصبيّة واحدة كبرى والّا وقع الافتراق المفضى (1) الى الاختلاف والتنازع ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض (ثم) اذا حصل التغلّب بتلك العصبيّة على قومها طلبت بطبعها التغلّب على اهل عصبيّة اخرى بعيدة عنها فان كافانها او مانعتها كانوا اقتالا وانظارا ولكل واحدة منها التغلّب على حوزتها وقومها شان القبايل والامم المفترقة فى العالم وان غلبتها او استتبعتها التحمت بها ايضا وزادتها قوة فى التغلّب الى قوتها وطلبت غاية من التغلّب والتحكم اعلى من الغاية الاولى واجدّ وهكذا دايما حتى تكافى بقوتها قوة الدولة فان ادركت الدولة فى هرمها ولم يكن لها ممانع من اولياء الدولة اهل العصبيّات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك اجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة انما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل

(1) Man. A. et B. المقتضى.

العصبيّات انتظمتها الدولة فى اوليايها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك اخر دون الملك المستبدّ وهو كما وقع للترك فى دولة بنى العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلويّة والعباسيّة فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبيّة وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيل الملك اما بالاستبداد او بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ الغاية عوايق كما نبيّنه وقفت فى مكانها الى ان يقضى الله بامره

فصل فى ان من عوايق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم

وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيّتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت اهل النعيم والخصب فى نعمتهم وخصبهم وضربت معهم فى ذلك بسهم وحصّة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع احد فى انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوّغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شئ من منازع الملك ولا اسبابه انما همهم النعيم والكسب وخصب

العيش والسكون فى ظلّ الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك فى المبانى والملابس الاستكثار من ذلك والتأنّق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبيّة والبسالة ويتنعمون فيما اتاهم الله من البسط وينشأ بنوهم واعقابهم فى مثل ذلك من الترفّع عن خدمة انفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن ساير الامور الضروريّة فى العصبيّة حتّى يصير ذلك خلقا لهم وسجيّة فتنقص عصبيّتهم وبسالتهم فى الاجيال بعدهم بتعاقبها الى ان تنقرض العصبيّة فيتاذّنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سورة العصبيّة التى بها التغلّب واذا انقرضت العصبيّة قصّر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم فقد تبيّن ان الترف من عوايق الملك والله يؤتى ملكه من يشاء

فصل فى ان من عوايق الملك حصول المذلّة للقبيل والانقياد لسواهم

وسبب ذلك ان المذلّة والانقياد كاسران لسورة العصبيّة وشدّتها فان انقيادهم ومذلّتهم دليل على فقدانها فما رئموا

للمذلّة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فاولى ان يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك فى بنى اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام واخبرهم ان الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبّارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها اى يخرجهم الله منها بضرب من قدرته غير عصبيّتنا ويكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجّوا وارتكبوا العصيان وقالوا اذهب انت وربّك فقاتلا وما ذلك الّا لما انسوا من انفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الاية وما يؤثر فى تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذلّ للقبط احقابا حتى ذهبت العصبيّة منهم جملة مع انهم لم يؤمنوا حقّ الايمان بما اخبرهم به موسى من ان الشام لهم وان العمالقة الذين كانوا باريحا فريستهم بحكم من الله قدّره لهم فاقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من انفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من المذلّة وطعنوا فيما اخبرهم به نبيهم من ذلك وما امرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو انهم اقاموا فى قفر من الارض ما بين الشام ومصر اربعين سنة لم ياوُوا فيها لعمران ولا نزلوا مصرا كما قصّه القران لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ولعجزهم عن

مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآيه ومفهومها ان حكمة ذلك التيه مقصودة وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذلّ والقهر والفوه وتخلّقوا به وافسد من عصبيّتهم حتى نشاء فى ذلك التيه جيل اخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر ولا يسام بالمذلّة فنشاءت لهم بذلك عصبيّة اخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلّب ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة اقلّ ما يتاتى فيها فناء جيل ونشاءة جيل اخر سبحان الحكيم العليم وفى هذا اوضح دليل على شأن العصبيّة وانها التى تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وان من فقدها عجز عن جميع ذلك

ويلتحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلّة للقبيل شأن المغارم والضرايب

فان القبيل الغارمين ما اعطوا اليد لذلك حتى رضوا بالمذلّة فيه لان فى المغارم والضرايب ضيما ومذلّة لا تحتملها النفوس الابية الا اذا استهونته عن القتل والتلف وان عصبيّتهم حينيذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيّته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة او المطالبة وقد حصل له الانقياد للذلّ والمذلّة عايقة كما قدّمناه ومنه فى الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم فى شأن الحرث لما راى سكّة

المحراث فى بعض دور الانصار فقال ما دخلت هذه دار قوم الا دخلهم الذلّ فهو دليل صريح على ان المغرم موجب للذلّ هذا الى ما يصحب ذلّ المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر ففى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستعيد من المغرم فسئل عن ذلك فقال ان الرجل حدث فكذب ووعد فاخلف (فاذا) رايت القبيل بالمغارم فى ربقة من الذلّ فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ومن هنا يتبيّن لك غلط من يزعم ان زناتة بالمغرب كانوا شاوية يودون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رايت اذ لو وقع ذلك لما استثبت (1) لهم ملك ولا تمّت لهم دولة وانظر فى هذا مقالة شهربراز (2) ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما اطل عليه وسأل شهربراز امانه على ان يكون له فقال انا اليوم منكم يدى فى ايديكم وصفوى معكم فمرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبّون ولا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كافٍ

(1) Man. C. استثبت. D. استنبت.   (2) Man. C. شهربراز. D. سهرنزار.

فصل فى ان من علامات الهلك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعيّا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشرّ باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لانّ البشر انها جاءه من قبل القوى الحيوانيّة التى فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصّة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه وهى التى تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا ان المجد له اصل ينبنى عليه وتتحقّق به حقيقته وهو العصبيّة والعشير وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية العصبيّة فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهى الخلال لانّ وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء او ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبيّة فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا فى اهل البيوت والاحساب فما ظنّك باهل الملك الذى هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وايضا فالسياسة والملك هو كفالة للخلق وخلافة لله فى العباد فى الاحكام واحكام الله فى خلقه وعباده انما هى بالخير

ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرايع واحكام الشرّ انما هى من الجهل والشيطان بخلاف قدره سبحانه وقدرته فانه فاعل للخير والشرّ معا ومقدّرهما اذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبيّة الكفيلة بالقدرة وانست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ احكام الله فى خلقه فقد تهيّاء للخلافة فى العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحيّة لذلك وهذا البرهان اوثق من الاول واوضح مبنى فقد تبيّن ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبيّة فاذا نظرنا الى اهل العصبيّة ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحى والامم فوجدناهم يتنافسون فى الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلّات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدوم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال فى صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدونه لهم من فعل او ترك وحسن الظنّ بهم واعتقاد اهل الدين والتبرّك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد للحقّ مع الداعى اليه وانصاف المستضعفين من انفسهم والتبذّل فى احوالهم والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتديّن بالشرايع والعبادات والقيام عليها وعلى اسبابها والتجافى عن الغدر

والمكر والخديعة ونقض العهد وامثال ذلك علمنا ان هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقّوا بها ان يكونوا ساسة لمن تحت ايديهم او على العموم وانه خير ساقه الله اليهم مناسب لعصبيّتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك انسب الخيرات والمراتب لعصبيّتهم فعلمنا بذلك ان الله تاذّن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تاذّن الله بانقراض الملك من امّة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذايل وسلوك طرقها فتفقد الفضايل السياسية منهم جملة ولا تزال فى انتقاص الى ان يخرج الملك من بين ايديهم ويتبدّل به سواهم ليكون نعيا عليهم فى سلب ما كان الله قد اتاهم من الملك وجعل فى ايديهم من الخير واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا واستقر ذلك وتتبّعه فى الامم السالفة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم) ان من خلال الكمال الذى تتنافس فيه القبايل اولو العصبيّة وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف واهل الحسب واصناف التجّار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك ان اكرام القبايل واهل العصبيّات والعشاير لمن يناهضهم فى الشرف ويجاذبهم حبل العشير

والعصبيّة ويشاركهم فى اتّساع الجاه امر طبيعىّ يحمل عليه فى الاكثر الرغبة فى الجاه او المخافة من قوم الهكرم او التماس مثلها منه واما امثال هولاء مهن ليس له عصبيّة تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشكّ فى شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم انه للمجد وانتحال الكمال فى الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام اقتاله وامثاله ضرورى فى السياسة الخاصّة بين قبيلة ونظرايه واكرام الطارين من اهل الفضايل والخصوصيّات كما فى السياسة العامّة فالصالحون للدين والعلماء للحاجة اليهم فى اقامة مراسم الشريعة والتجّار للترغيب حتى تعمّ المنفعة بهم والغرباء من مكارم الاخلاق ومن الترغيب ببعض الوجوه وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من اهل عصبيّة انتماوهم للسياسة العامّة وهى الملك وان الله قد تاذّن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا فان اول ما يذهب من القبيل اهل الهلك اذا تاذّن الله بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رايته قد ذهب من امّة من الامم فاعلم ان الفضايل قد اخذت فى الذهاب وارتقب زوال الهلك منهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له

فصل فى انه اذا كانت الامّة وحشيّة كان ملكها اوسع

وذلك لانهم اقدر على التغلّب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوايف لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهولاء مثل العرب وزناتة ومن فى معناهم من الاكراد والتركمان واهل اللثام من صنهاجة وايضا فهولاء المتوحّشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاوره من البلاد ولا يقفون عند حدود افقهم بل يطفرون (1) الى الاقاليم البعيدة ويتغلّبون على الامم النائية وانظر ما يحكى فى ذلك عن عمر رضى الله عنه لما بويع وقام يحرّض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه اهله الا بذلك اين الطراء المهاجرون عن موعد الله سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب ان يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك ايضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون فيها نقل من اليمن الى المغرب مرّة والى الهند والعراق اخرى ولم يكن ذلك لغير العرب

(1) Man. A. et B. يظفرون. D. يطيرون.

من الامم وكذا حال الهاشميين بالمغرب لما نزعوا الى الملك ظفروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه فى جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس فى ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الامم الوحشيّة فلذلك تكون دولتهم اوسع نطاقا وابعد من مراكزها نهاية والله سقدّر الليل والنهار

فصل فى ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امّة فلا بدّ من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبيّة

والسبب فى ذلك ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من ساير الامم سواهم فيتعيّن منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاحمة وللغيرة التى تجدع انوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعيّن اولئك القايمون بالدولة انغمسوا فى النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجيل وانفقوهم فى وجوه الدولة ومذاهبها وبقى الذين بعدوا عن الامر وكبحوا عن المشاركة فى ظلّ من عزّ الدولة التى شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف واسبابه فاذا استولت على الاولين الايام واباد غضراهم الهرم

وطحنتهم الدولة واكل الدهر عليهم وشرب بما ارهف من النعيم من حدهم واشتفت غريزة (1) الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدّن الانسانىّ والتغلّب السياسىّ

كدود القزّ ينسج ثم يفنى بمركز نسيجه فى الانعكاس

وكانت حينئذ عصبيّة الاخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم فى الغلب معلومة فتسمو آمالهم الى الملك الذى كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيّتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم وكذا يتّفق فيهم مع من بقى ايضا منتبذا عنه من عشاير امّتهم فلا يزال الملك ملجا فى الامّة الى ان تنكسر سورة العصبيّة منها او تفنى ساير عشايرها سنّة الله فى الحيوة الدنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين واعتبر هذا بما وقع فى الامم لما انقرض ملك عاد قام من بعدهم اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير ايضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس انقرض امر الكينيّة فهلك من بعدهم الساسانية حتى تاذّن الله بانقراضهم اجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب

(1) Man. B. عزيزة. C. عريرة. *it.* D.

لما انقرض امر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم رجع الى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقى من شعوب زناتة وهكذا سنّة الله فى عباده وخلقه واصل هذا كله انما يكون بالعصبيّة وهى متفاوتة فى الاجيال والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد فاذا انقرضت دولة فانما يتناول الامر منهم من له عصبيّة مشاركة لعصبيّتهم التى عرف لها التسليم والانقياد وانس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك انما يوجد فى النسب القريب منهم لان تفاوت العصبيّة بحسب ما قرب من ذلك النسب التى هى فيه او بعد حتّى اذا وقع فى العالم تبديل كبير من تحويل ملّة او ذهاب عمران او ما شاء الله من قدرته فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذى تاذّن الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على الامم والدول واخذوا الامر من ايدى اهل العالم بعد ان كانوا مكبوحين عنه احقابا

فصل فى ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيّه ونحلته وساير احواله وعوايده

والسبب فى ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بها وقر عندها من تعظيمه

او لما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعيّ انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتّصل لها صار اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو الاقتداء او لما تراه والله اعلم من ان غلب الغالب لها ليس بعصبيّة ولا قوة بأس وانما هو بما انتحلته من العوايد والمذاهب تغالط ايضا بذلك عن الغلب وهذا راجع الى الاول فلذلك ترى المغلوب يتشبّه ابدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتّخاذها واشكالها بل وفى ساير احواله وانظر ذلك فى الابناء مع ابائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دايما وما ذاك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على اهله زىّ الحامية وجند السلطان فى الاكثر لانهم الغالبون لهم حتّى انه اذا كانت امّة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبه والاقتداء حظّ كبير كما هو فى الاندلس لهذا العهد مع امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبّهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوايدهم واحوالهم حتّى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه علامة الاستيلاء والامر لله وتامّل فى هذا سرّ قولهم العامّة على دين الملك فانه من بابه اذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه

اقتداء الابناء بابائهم والمتعلّمين بمعلّميهم والله العليم الحكيم

فصل فى ان الامّة اذا غلبت وصارت فى ملكة غيرها اسرع اليها الفناء

والسبب فيه والله اعلم ما يحصل فى النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف والتناسل والاعتمار انّما هو من حدّة الامل وما يحدث عنه من النشاط فى القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبيّة ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك او لم يحصلوا وفيه والله اعلم سرّ اخر وهو ان الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى جعل له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزّه تكاسل حتى عن شبع بطنه وريّ كبده وهذا موجود فى اخلاق الاناسى ولقد يقال مثله للحيوانات المفترسة وانها لا تسافد اذا كانت فى ملكة الادميين فلا يزال هذا القبيل المملوك امره عليه فى تناقص واضمحلال الى ان ياخذهم الفناء

والبقا لله وحده واعتبر ذلك فى امّة الفرس كيف كانت قد ملاءت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم فى ايام العرب بقى منهم كثير واكثر من الكثير يقال ان سعدا احصى من وراء المداين فكانوا مابة الف وسبعة وثلاثين الفا منهم سبعة وثلاثون الفا ربّ بيت ولما تحصّلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاوهم الا قليلا ودثروا كانْ لم يكونوا ولا تحسبن ذلك لظلم نزل بهم او عدوان شملهم فملكة الاسلام فى العدل ما علمت وانّما هى طبيعة فى الانسان اذا غلب على امره وصار آلة لغيره ولهذا فانّما يذعن للرقّ فى الغالب امم السودان لنقص الانسانيّة فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه او من يرجو بانتظامه فى ربقة الرقّ حصول رتبة او افادة مال او عزّ كما يقع للترك بالمشرق والمعلوجا من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يانفون من الرقّ لما يؤمّلونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله اعلم

فصل فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسايط

وذلك انهم بطبيعة التوحّش التى فيهم اهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرّون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة (1) والمحاربة الا اذا

(1) Man. A. مراجفة. B. مراجعة. D مزاحمة.

دافعوا بذلك عن انفسهم فكل معقل اومستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما سهل عنه ولا يعرضون له والقبايل الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة عن عيثهم وفسادهم لانهم لا يتسنّمون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر واما البسايط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم وطعمة لاكلهم يردّدون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى ان يصبح اهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدى وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه

فصل فى ان العرب اذا تغلّبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب

والسبب فى ذلك انهم امّة وحشيّة باستحكام عوايد التوحّش واسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلّة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العاديّة كلها عندهم الرحلة والتقلّب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومنافٍ له فالحجر مثلا حاجتهم اليه لنصبه اثافى للقدور فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب ايضا انّما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتّخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون

السقف عليها لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو اصل العمران هذا فى حالهم على العموم وايضا فطبيعتهم انتهاب ما فى ايدى الناس وان رزقهم فى ظلال رماحهم وليس عندهم فى اخذ اموال الناس حدّ ينتهون اليه بل كلّما امتدّت اعينهم الى مال او متاع او ماعون انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلّب او الملك بطلت السياسة فى حفظ اموال الناس وخرب العمران وايضا فلانهم يكلفون على اهل الاعمال من الصنايع والحرف اعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والاعمال كما سنذكره هى اصل المكاسب وحقيقتها فاذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال فى المكاسب وانقبضت الايدى عن العمل واندعر الساكن وفسد العمران وايضا فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض انما همّتهم (1) ماياخذونه من اموال الناس نهبا او مغرما فاذا توصّلوا الى ذلك وحصلوا عليه اعرضوا عمّا بعده من تسديد احوالهم والنظر فى مصالحهم وقهر بعضهم عن اعراض المفاسد وربّما فرضوا العقوبات فى الاموال حرصا على تحصيل الفايدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس بمغن فى دفع المفاسد وزجر المتعرّض

(1) Man. A. et B. همّتهم. C. هممهم.

لها بل يكون ذلك زايدا فيها لاستسهال العزم فى جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا فى ملكتهم كانها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من ان وجود الملك خاصيّة طبيعيّة للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدّم ذلك اول الفصل وايضا فهم متنافسون فى الرياسة وقلّ ان يسلّم احد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا فى الاقلّ وعلى كره من اجل الحياء فيتعدّد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدى على الرعية فى الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابى الوافد على عبد الملك لما ساله عن الحجاج واراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس اجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما اجاز اليهما بنو هلال وبنو سليم منذ عهد المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثماية وخمسين من السنين قد لحقا بهما وعادت بسايطه خرابا كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمرانا يشهد بذلك آثار العمران فيه

من العالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداثر والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل فى ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة (1) دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب فى ذلك انهم لخلق التوحّش الذى فيهم اصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمّة والمنافسة فى الرياسة فقلّ ما تجتمع اهواوهم فاذا كان الدين بالنبوات او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبى او الولى الذى يبعثهم على القيام بامر الله تعالى ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق وياخذهم بمحمودها ويولف كلمتهم لاظهار الحقّ ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلّب والملك وهم مع ذلك اسرع الناس قبولا للحقّ والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحّش القريب المعاناة المتهئ لقبول الخير ببقايه على الفطرة الاولى وبعده عمّا ينطبع فى النفس من قبيح العوايد وسوء الملكات فان

(1) Man. B et D. صبغة. C. صنعة.

كل مولود يولد على الفطرة كما ورد فى الحديث وقد تقدّم

فصل فى ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

والسبب فى ذلك انّهم اكثر بداوة من ساير الامم وابعد مجالا فى القفر واغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحّش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبيّة التى بها المدافعة فكان مضطرّا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم ليلّا يختلّ عليه شأن عصبيّته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضى ان يكون السايس وازعا بالقهر والّا لم تستقم سياسة وايضا فمن طبيعتهم كما قدّمناه اخذ ما فى ايدى الناس خاصّة والتجافى عمّا سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا امّة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع باخذ ما فى ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربّما جعلوا العقوبات على المفاسد فى الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوايد فلا يكون ذلك وازعا وربّما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من ماله فى جانب عرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الامّة كانها فوضى مستطيلة ايدى بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران

ويخرب سريعا شأن الفوضى كما قدّمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة (1) دينيّة تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من انفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم فى الملّة لما شيّد لهم الدين امر السياسة بالشريعة واحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم كان رستم لما راى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول اكل عمر كبدى يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة اجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شأن عصبيّتهم مع اهل الدولة ببعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحّشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا انه للخلفاء وهم من جيلهم ولما ذهب امر الخلافة وامتحا رسمها انقطع الامر جملة من ايديهم وغلب عليه العجم دونهم واقاموا بادية فى قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسة بل قد يجهل الكثير منهم انهم كان لهم ملك فى القديم وما كان لاحد من الامم فى الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتتابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر فى

(1) Man. B. et D. صيغة. C. صفة.

الاسلام بنى امية وبنى العباس لكن بعدهم عهد بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى اصلهم من البداوة وقد يحصل لهم فى بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كما فى المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدّمناه والله خير الوارثين

فصل فى ان البوادى من القبايل والعصايب مغلوبون لاهل الامصار

قد تقدّم لنا ان عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضروريّة فى العمران ليس كلها موجودا لاهل البدو وانما يوجد لديهم وفى مواطنهم امور الفلح وموادّها معدومة ومعظمها الصنايع فلا يوجد لديهم بالكلية من نجّار وخيّاط وحدّاد وامثال ذلك مما يقيم لهم ضرورات معاشهم فى الفلح وغيره وكذا الدراهم والدنانير مفقودة لديهم وانّها بايديهم اعواضها من مغلّ الزراعة واعيان الحيوان اوفضلاته البانا واوبارا واشعارا واهابا مما يحتاج اليه اهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الا ان حاجتهم الى الامصار فى الضروريّ وحاجة اهل الامصار اليهم فى الحاجيّ والكماليّ فهم محتاجون الى الامصار فى الضرورى بطبيعة وجودهم فما داموا فى البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء

على الامصار فهم محتاجون الى اهلها ومتصرّفون فى مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به فان كان فى المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن فى المصر ملك فلا بدّ فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض اهله على الباقين والا انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعى فى مصالحه اما طوعا ببذل المال لهم ثم يبيح لهم ما يحتاجون اليه من الضرورات فى مصره فيستقيم عمرانهم وامّا كرها ان تمّت قدرته على ذلك ولو بالتضريب بينهم حتى يحصل له فريق منهم يغالب به الباقين فيضطرّ الاخرين الى طاعته بما يتوقّعون لذلك من فساد عمرانهم وربّما لا يسعهم مفارقة تلك النواحى الى جهات اخرى لان كل النواحى والجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم فلا يجد هولاء ملجاء الا طاعة المصر واهله فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله القاهر فوق عباده لا ربّ غيره ولا معبود سواه

بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله ربّ العالمين) وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

الفصل الثالث من الكتاب الاول فى الدول

والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمّمات

فصل فى ان الملك والدول العامّة انما تحصل بالقبيل والعصبيّة والشوكة

وذلك انه قد قررنا فى الفصل الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبيّة لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنيّة والملاذّ النفسانيّة فيقع فيه التنافس غالبا وقلّ ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضى الى الحرب والقتال والمغالبة وشئ منها لا يقع الا بالعصبيّة كما ذكرناه ايضا وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدول منذ اولها وطال امد مرباهم فى الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله اول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة قد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبيّة فى تمهيد امرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من اوله وما لقى اولهم من المتاعب دونه وخصوصا اهل الاندلس فى نسيان هذه العصبيّة واثرها لطول الامد واستغنائهم فى الغالب

عن قوة العصبيّة بما تلاشى وطنهم وخلا من العصايب والله قادر على ما يشاء

فصل فى انه اذا استقرّت الدولة وتمهّدت فقد تستغنى عن العصبيّة

والسبب فى ذلك ان الدول العامّة فى اولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قويّة من الغلب للغرابة وان الناس لم يالفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرّت الرياسة فى اهل النصاب المخصوص بالملك فى الدولة وتوارثوه واحدا بعد اخر فى اعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شان الاوليّة واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ فى العقايد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على امرهم قتالهم على العقايد الايمانيّة فلم يحتاجوا حينئذ فى امرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولاسر ما يوضع الكلام فى الامامة آخر الكلام فى العقايد الايمانيّة كانه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالى والمصطنعين الذين نشؤا فى ظلّ العصبيّة (1) وغيرها واما بالعصايب الخارجين عن نسبها الداخلين فى ولايتها ومثل

(1) Man. A. B. D. غيرها.

هذا وقع لبنى العباس فان عصبيّة العرب كانت فسدت
لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك
انما كان بالموالى العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم
ثم تغلّب العجم والاولياء على النواحى وتقلّص ظل الدولة
فلم يكن تعدو اعمال بغداذ حتى زحف اليها الديلم وملكوها
وصارت الخلايف فى حكمهم ثم انقرض امرهم وملك
السلجوقية من بعدهم فصاروا فى حكمهم ثم انقرض
امرهم وزحف اخر الططر فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة
وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيّتهم منذ المائة الخامسة
او ما قبلها واستمرّت لهم الدولة متقلّصة الظلّ بالمهدية
وبجاية والقلعة وساير ثغور افريقيّة وربّما انتزى بتلك الثغور
من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع
ذلك مسلم لهم حتى تاذّن الله بانقراض الدولة وجاء
الموحدون بقوة قوية من العصبيّة فى المصامدة فمحوا آثارهم
وكذا دولة بنى امية بالاندلس لما فسدت عصبيّتها من
العرب استولى ملوك الطوايف على امرها واقتسموا خطّتها
وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم
على ما كان فى ولايته وشمخ بانفه وبلغهم شأن العجم مع
الدولة العباسيّة فتلقّبوا بالقاب الملك ولبسوا شاراته وامنوا
ممن ينقض ذلك عليهم او بغيره لان الاندلس ليست بدار

عصايب ولا قبايل كما سنذكره واستمرّ لهم ذلك كما قال ابن شرف

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتصم فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخا صورة الاسد

فاستظهروا على امرهم بالموالى والمصطنعين والطراء على الاندلس من ارض العدوة من قبايل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر امرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبيّة العرب استبدّ ابن ابي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبدّ كل واحد فيها بجانب من الاندلس وحظّ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى اجاز اليهم البحر المرابطون اهل العصبيّة القويّة من لمتونة فاستبدلوا بهم وازالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبيّة لديهم فبهذه العصبيّة يكون تمهيد الدولة وحمايتها من اولها (وقد) ظنّ الطرطوشي ان حامية (1) الدول باطلاقهم الجند اهل العطاء المفروض مع الاهلّة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تاسيس الدول العامّة في اولها وانّما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل انّما ادرك الدول عند هرمها

(1) Man. A. et B. حماية. D. حاشية.

وخلق جدّتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالى والصنايع ثم الى المستخدمين من ورايهم بالاجر على المدافعة فانه انّما ادرك دول الطوايف وذلك عند اختلال دولة بنى امية وانقراض عصبيّتها من العرب واستبداد كل امير بقطره وكان فى ايالة المستعين بن هود وابنه المظفّر اهل سرقسطة ولم يكن بقى لهم من امر العصبيّة شئ لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثماية من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدّا بالملك عن عشايره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقيّة العصبيّة فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على امره بالاجراء من المرتزقة فاطلق الطرطوشى القول فى ذلك ولم يتفطّن لكيفيّة الامر منذ اول الدولة وانه لا يتمّ الا لاهل العصبيّة فتفطّن انت له وافهم سرّ الله فيه والله يوتى ملكه من يشاء

فصل فى انه قد تحدث لبعض اهل النصاب الملكى دولة تستغنى عن العصبيّة

وذلك انه اذا كان لعصبيّته غلب كبير على الامم والاجيال وفى نفوس القايمين بامره من اهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقرّ ملكه ومنبت عزّه اشتملوا عليه وقاموا بامره وظاهروه على شانه وعنوا بتمهيد

دولته يرجون استقراره فى نصابه وتناوله الامر من يد اعياصه ولا يطمعون فى مشاركته فى شى من سلطانه تسليما لعصبيّته وانقيادا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب فى العالم وعقيدة ايمانيّة استقرّت فى الاذعان لهم فلو راموا معه او دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للادارسة بالمغرب الاقصى والعبيديّين بافريقية ومصر لما انتبذ الطالبيّون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقرّ الخلافة وسموا الى طلبها من ايدى آل العباس بعد ان استحكمت الصبغة لبنى عبد مناف لبنى امية اولا ثم لبنى هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقاموا بامرهم البرابرة مرّة بعد اخرى فاروية ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديّين فشيّدوا دولتهم ومهدوا بعصايبهم امرهم واقتطعوا من ممالك العباسيّين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظلّ الدولة يتقلّص وظلّ العبيديين يمتدّ الى ان ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم فى الممالك الاسلاميّة شقّ الابلمة وهولاء البرابرة القايمون بالدولة مع ذلك كله مسلمون للعبيديّين امرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا ينافسون فى الرتبة ضدّهم خاصّة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبنى هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على ساير الامم فلم يزل الملك فى اعقابهم الى

انقراض دولة العرب باسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل فى ان الدول العامّة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حقّ

وذلك لان الملك انّما يحصل بالتغلّب والغلب انما يكون بالعصبيّة واتّفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتاليفها انما يكون بمعونة من الله فى اقامة دينه قال تعالى لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الّفت بين قلوبهم وسرّه ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحقّ ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتّحدت وجهتها فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتّسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدول كما نبيّن لك بعد

فصل فى ان الدعوة الدينيّة تزيد الدولة فى اصلها قوة على قوة العصبيّة التى كانت لها من عددها

والسبب فى ذلك كما قدّمناه ان الصبغة الدينيّة تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى اهل العصبيّة وتفرّد الوجهة

الى الحقّ فاذا حصل لهم الاستبصار فى امرهم لم يقف لهم شئ لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عند جميعهم وهم مستميتون عليه واهل الدولة التى هم طالبوها وان كانوا اضعافهم فان اغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا اكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذلّ كما قدّمناه وهذا كما وقع للعرب فى صدر الاسلام فى الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين الفا فى كل معسكر وجموع فارس ماية وعشرين الفا بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدى اربعماية الف فلم يقف للعرب احد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بايديهم واعتبر ذلك ايضا فى دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبايل كثير مما يقاومهم فى العدد والعصبيّة او يشقّ عليهم الا ان الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيّتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شئ واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصبيّة وحدها دون زيادة الدين فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصايب المكافية لها او الزايدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها وكانوا اكثر عصبيّة منها او اشدّ بداوة واعتبر هذا فى

الموحدين مع زناتة لما كان زناتة ابدا من المصامدة واشدّ توحّشا وكان للمصامدة الدعوة الدينيّة باتباع المهدى فلبسوا صبغتها وتضاعف قوة عصبيّتهم بها فغلبوا على زناتة اولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبيّة والبداوة اشدّ منهم فلما حالوا عن تلك الصبغة الدينيّة انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه والله غالب على امره

فصل فى ان الدعوة الدينيّة من غير عصبيّة لا تتمّ

وهذا لما قدّمناه من ان كل امر يحمل عليه الكافة فلا بدّ له من العصبيّة وفى الحديث كما مرّ ما بعث الله نبيا الا فى منفعة من قومه واذا كان هذا فى الانبياء وهم اولى الناس بخرق العوايد فما ظنّك بغيرهم ان لا تخرق له العادة فى الغلب بغير عصبيّة وقد وقع هذا لابن قسى شيخ المتصوّفة وصاحب كتاب خلع النعلين فى التصوّف ثار بالاندلس داعيا الى الحقّ وسمى اصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدى فاستتبّ له الامر قليلا بشغل لمتونة بما دهمهم من امر الموحدين ولم يكن هناك عصايب ولا قبائل يدفعونه عن شانه فلم يلبث حتى استولى الموحدون على المغرب ان اذعن ودخل فى دعوتهم بايعهم من معقله

بحصن اركش وامكنهم من ثغره وكان اول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين (ومن) هذا الباب احوال الثوار القايمين بتغيير المنكر من العامّة والفقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون الى القيام على اهل الجور من الامراء داعيين الى تغيير المنكر والنهى عنه والامر بالمعروف رجاء فى الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتلبسون بهم من الغوغاء والدهما ويعرضون بانفسهم فى ذلك للمهالك واكثرهم يهلكون فى تلك السبيل مازورين غير ماجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من راى منكم منكرا فليغيّره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه واحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناها الا المطالبة القوية التى من ورايها عصبيّة القبائل والعشاير كما قدّمناه وهكذا كان حال الانبياء فى دعوتهم الى الله بالعصايب والعشاير وهم المويّدون من الله لو شاء لايّدهم بالكون كله لكنه انما اجرى الامور بحكمته على مستقرّ العادة فاذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقّا قصر به الانفراد عن العصبيّة فطاح فى هوة الهلاك واما ان كان من الملبسين بذلك فى طلب الرياسة فاجدر ان تعوقه العوايق وينقطع

به الهلاك لانه امر الله لا يتمّ الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشكّ فى ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة واول من ابتدا هذه النزعة فى الملّة ببغداذ حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وابطاء المامون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلى بن موسى الرضى من آل الحسين فكشف بنو العباس وجه النكير (1) عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المامون والاستبدال منه وبويع ابراهيم بن المهدى فوقع الهرج ببغداذ وانطلقت ايدى الدعارة بها من الشطّار والحربيّة على اهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت ايديهم من نهاب الناس وباعوها علانيّة فى الاسواق واستعدا اهلها الحكّام فلم يعدوهم فتواسر اهل الدين والصلاح على منع الفسّاق وكفّ عاديتهم وقام ببغداذ رجل يعرف بخالد الدريوش ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فاجابه خلق وقاتل اهل الدعارة وغلبهم واطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل (ثم) قام من بعده رجل اخر من سواد اهل بغداذ يعرف بسهل بن سلامة الانصارى ويكنى ابا حاتم وعلق مصحفا فى عنقه ودعا الى الامر بالمعروف النهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنّة نبيه

(1) Man. D. التكبّر.

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بنى هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتّخذ الديوان وطاف ببغداذ ومنع كل من اخاف (1) المارّة ومنع الخفارة لاولئك الشطّار وقال له خالد الدريوش انا لا اعيب على السلطان فقال له سهل لكنّى اقاتل كل من خالف الكتاب والسنّة كاينا من كان وذلك سنة احدى ومايتين وجهز ابراهيم بن المهدى اليه العساكر فغلبه واسره وانحلّ امره سريعا وذهب ونجا بدما نفسه (ثم) اقتداه بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين ياخذون انفسهم باقامة الحقّ ولا يعرفون ما يحتاجون فى اقامته من العصبيّة ولا يشعرون بمغبّة امرهم ومآل احوالهم والذى يحتاج اليه فى امر هولا امّا المداواة ان كانوا من اهل الجنون وامّا التنكيل بالقتل او الضرب ان احدثوا هرجا واما اذاعة (2) السخرياء منهم وعدّهم فى جملة الصناعين (3) (وقد) ينتسب بعضهم الى الفاطمى المنتظر امّا بانه هو او داع له وليس مع ذلك على علم من امر الفاطمى ولا ما هو واكثر المنتحلين لمثل هذا نجدهم موسوسين او مجانين او ملبسين (4) يطلبون بمثل هذا الدعوى رياسة امتلاءت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصّل اليها بشىّ من اسبابها

(1) Man. A. et B. اضاف.

(2) Man. C. ازاغة.

(3) Man. A. et C. الصغاعين. D. الصباعين.

(4) Man. C. ملتبسين. D. مبلسين.

العاديّه فيحسبون ان هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يوملونه من ذلك ولا يحتسبون ما ينالهم من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوّفة يدعى التويزرى عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم انه الفاطمى المنتظر تلبيسا على العامّة هنالك بما ملاء قلوبهم من الحدثان بانتظاره وان من ذلك المسجد يكون اصل دعوته فتهافت عليه طوايف من عامّة البربر تهافت الفراش ثم خشى رؤساوهم اتّساع نطاق الفتنة فدسّ اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوى من قتله فى فراشه (وكذلك) خرج فى غمارة لاول هذه المائة ايضا رجل يعرف بالعباس وادّعى مثل هذه الدعوى واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من امصارهم فدخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى فى الهالكين الاولين وامثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبيّة فى مثلها واما ان كان التلبيس فاحرى ان لا يتمّ له امر وان يبوُ باثمه وذلك جزاء الظالمين

فصل فى ان كل دولة لها حصّة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها

والسبب فى ذلك ان عصابة الدولة وقومها القايمين بها الممهّدين لها لا بدّ من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التى تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء احكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزّعت العصائب كلهم على الثغور والممالك فلا بدّ من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغرا للدولة وتخما لوطنها ونطاقا لمركز ملكها فان تكلّفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقى دون حامية وكان موضعا لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددهم فى توزيع الحصص على الثغور والنواحى بقى فى الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والعلّة الطبيعيّة فى ذلك ان قوة العصبيّة هى من ساير القوى الطبيعيّة وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشأنها ذلك فى فعلها والدولة فى مركزها اشدّ ممّا تكون فى الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذى هو الغاية عجزت وقصرت عمّا

وراءه شأن الاشعّة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدواير المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم اذا ادركها الهرم والضعف فانّما تاخذ فى التناقص من جهة الاطراف ولا يزال المركز محفوظا الى ان يتاذّن الله بانقراض الامر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب الذى ينبعث منه الروح فاذا غلب القلب وملك انهزم جميع الاطراف (وانظر) هذا فى الدولة الفارسية فان مركزها المداين فلما غلب المسلمون على المداين انقرض امر فارس اجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقى بيده من اطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون على الشام تحيّزوا الى مراكزهم بالقسطنطينية ولم يضرّهم انتزاع الشام من ايديهم فلم يزل ملكهم متّصلا بها الى ان تاذّن الله بانقراضه وانظر ايضا شأن العرب اول الاسلام لما كانت عصابتهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة والافريقية والمغرب ثم الى الاندلس فلما تفرّقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم فى تلك التوزيعات اقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى امر الاسلام ولم يتجاوز

تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تاذّن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القايمين بها فى القلّة والكثرة عند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنّة الله فى خلقه

فصل فى ان عظم الدولة واتّساع نطاقها وطول امدها على نسبة القايمين بها فى القلّة والكثرة

والسبب فى ذلك ان الملك انما يكون بالعصبيّة واهل العصبيّة هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة واقطارها ويقتسمون عليها فما كان من الدول العامّة قبيلها واهل عصابتها اكثر كانت اقوى واكثر ممالك واوطانا وكان ملكها اوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما آلّف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ماية الف وعشرين (1) الف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل الى من اسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجّهوا لطلب ما فى ايدى الامم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين فى العالم لعهدهم والترك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس

(1) Man.-C. et D. عشرة آلاف.

وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولوا على الاقاليم السبعة (ثم) انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديّين قبلهم لما كان قبيل كتامة القايمين بدولة العبيديّين اكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم اعظم فملكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم اقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ اول امرهم (ثم) اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد الزناتة بنى مرين وبنى عبد الواد لما كان عدد بنى مرين لاول ملكهم اكثر من بنى عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها واوسع نطاقا وكان لهم عليها الغلب مرّة بعد اخرى يقال ان عدد بنى مرين لاول ملكهم كانوا ثلاثة آلاف وان عدد بنى عبد الواد كانوا الفا الا ان الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من اعدادهم وهى على هذه النسبة فى اعداد المتغلّبين لاول الملك يكون انساع الدولة وقوتها (واما) طول امدها ايضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدولة انما هو بالعصبيّة فاذا كانت العصبيّة قوية كان المزاج تابعا لها وكان امد العمر طويلا والعصبيّة انما هى بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح فى ذلك ان النقص

انما يبدا الدولة من الاطراف فاذا كانت ممالكها كثيرة كانت اطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بدّ له من زمن فتكثر ازمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون امدها طويلا وانظر ذلك فى دولة العرب الاسلاميّة كيف كان امدها اطول الدول لا بنو العباس اهل المركز ولا بنو امية المنتبذون بالاندلس ولم ينتقص امر جميعهم الا بعد الاربع ماية من الهجرة ودولة العبيديّين كان امدها قريبا من مايتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد مُعَدّ المعز امر افريقية لبلكين بن زيرى سنة ثمان وخمسين وثلثماية الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسماية ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مايتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول فى اعمارها على نسبة القايمين بها سنّة الله التى قد خلت فى عباده

فصل فى ان الاوطان الكثيرة القبايل والعصايب قل ان تستحكم فيها دولة

والسبب فى ذلك اختلاف الاراء والاهواء وان وراء كل راى منها وهوى عصبيّة تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها فى كل وقت وان كانت ذات عصبيّة لان كل عصبيّة ممن تحت يدها تظنّ فى نفسها

منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد فان ساكن هذه الاوطان من البربر اهل قبايل وعصبيّات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذى كان لابن ابى سرح عليهم وعلى الفرنجة شيا وعاودوا بعد ذلك الثورة والردّة مرّة بعد اخرى وعظم الاثخان من المسلمين فيهم ولما استقرّ الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرّات عديدة قال ابن ابى زيد ارتدّت البرابرة بالمغرب اثنى عشر مرّة ولم تستقرّ كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر رضى الله عنه ان افريقية مفرقة لقلوب اهلها اشارة الى ما فيها من كثرة العصايب والقبايل الحامل لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام انما كانت حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء (1) اهل مدن وامصار فلما غلبهم المسلمون على الامر وانتزعوه من ايديهم لم يبق ممانع ولا مشاقّ والبربر قبايلهم بالمغرب اكثر من ان تحصى وكلهم بادية واهل عصايب وعشاير وكلما هلكت قبيلة عادت الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردّة فطال امر العرب فى تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب وكذلك

(1) Man. A. et B. وهما.

كان الامر بالشام لعهد بنى اسرائيل كان فيه من قبايل فلسطين وكنعان وبنى عيصو وبنى مدين وبنى لوط وادوم والارمن والعمالقة واكريكش (١) والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوّعا فى العصبيّة فصعب على بنى اسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ امرهم واضطرب عليهم الملك مرّة بعد اخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطّد ساير ايامهم الى ان غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر امرهم عند الجلا والله غالب على امره وبعكس هذا ايضا الاوطان الخلوة من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وادعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبيّة كما هو الشأن فى مصر والشام لهذا العهد اذ هى خلو من القبايل والعصبيّات كان لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر فى غاية الدعة والرسوخ لقلّة الخوارج واهل العصايب انما هو سلطان ورعيّة ودولتها قايمة بملوك الترك وعصايبهم يغلبون على الامر واحدا بعد واحد وينتقل الامر فيهم من منبت الى منبت والخلافة مسماة للعباسى من اعقاب الخلفاء ببغداذ وكذا شأن الاندلس لهذا العهد فان عصبيّة ابن احمر سلطانها

(١) Man. D. البرنطس.

لم تكن لاول دولتهم بقوية ولا كانت لها كثرة انما كانوا اهل بيت من بيوت العرب اهل الدولة الاموية بقوا من ذلك الفلّ وذلك ان اهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربيّة منهم وملكها البربر من لمتونة والموحدين سيموا ملكتهم وثقلت وطاءتها عليهم فاشربت القلوب بغضاهم ونكراهم وامكن الموحدون السادة فى آخر الدولة كثيرا من الحصون للطاغية فى سبيل الاستظهار بهم على شأنهم من تملّك حضرة مراكش فاجتمع من كان بقى بها من اهل العصبيّة القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحضارة والامصار بعض الشئ ورسوخا فى الجنديّة مثل ابن هود وابن الاحمر وابن مَرْدَنِيش فقام ابن هود بالامر ودعى بدعوة الخلافة العباسيّة بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا اليهم العهد واخرجوهم واستقلّ ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الاحمر للامر وخالف ابن هود فى دعوته فدعا هو لابن ابى حفص صاحب افريقية من الموحّدين وقام بالامر وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمّونهم الرؤساء ولم يحتج لاكثر منها لقلّة العصايب بالاندلس وانها سلطان ورعيّة (ثم) استظهروا بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز اليه البحر من اعياص زناتة فصاروا معه عصبة على الثاغرة والرباط ثم سما لصاحب

المغرب من ملوك زناتة امل فى الاستيلاء على الاندلس وصار اولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى ان تأثّل امره ورسخ والفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته واورثه اعقابه لهذا العهد فلا تظنّن انه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة الا انها قليلة وعلى قدر الحاجة فان وطن الاندلس لقلّة العصايب والقبايل فيه يستغنى عن كثرة العصبيّة فى التغلّب عليهم والله غنىّ عن العالمين

فصل فى ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد والتوغّل فى الترف وايثار الدعة والسكون

اما الانفراد بالمجد فلانّ المجد كما قدّمناه انما هو بالعصبيّة والعصبيّة متالّفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها اقوى من الاخر كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا فى ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسرّه ان العصبيّة العامّة للقبيل هى مثل المزاج للمتكّون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبيّن فى موضعه ان العناصر اذا اجتمعت متكافية فلا يقع منها مزاج اصلا بل لا بدّ يكون واحد منها غالبا على الاخر وبغلبته عليها يقع الامتزاج وكذلك العصبيّات لا بدّ ان تكون واحدة منها هى الغالبة على الكل حتى تجمعها وتولفها

وتصيرها عصبيّة واحدة شاملة لجميع العصبيّات وهى موجودة فى ضمنها وتلك العصبيّة الكبرى انما تكون لقوم اهل بيت ورياسة فيهم ولا بدّ ان يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعيّن رئيسا للعصبيّات كلها لغلب منبته بجميعها واذا تعيّن له ذلك (ومن) الطبيعة الحيوانيّة خلق الكبر والانفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة فى استتباعهم والتحكّم فيهم ويجئ خلق التالّه الذى فى طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكّام لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فيجدع حينئذ انوف العصبيّات ويكبح شكايمهم عن ان يسموا الى مشاركته فى التحكّم ويقرع عصبيّتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم فى الامر ناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته فيه وقد يتمّ ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتمّ للثانى او الثالث على قدر ممانعة العصبيّات وقوتها الا انه امر لا بدّ منه فى الدول سنّة الله فى عباده (واما) التوغّل فى الترف فلان الامّة اذا تغلبت وملكت ما بايدى اهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوايدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوايدهم واحوالهم

ويصير لتلك النوافل عوايد ضرورية فى تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الامم فى اكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفارة ويناغى خلفهم فى ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظّهم من ذلك وترفهم فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التى للدول ان تبلغها بحسب قوتها وعوايد من قبلها سنّة الله فى خلقه (واما) ايثار الدعة والسكون فلان الامّة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعى اليها

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها　　فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التى كانوا يتكلّفونها فى طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المبانى والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون باحوال الدنيا ويوثرون الراحة على المتاعب ويتانّقون فى احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويالفون ذلك ويورثونه من بعدهم من اجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى ان يتاذّن الله بامره

فصل فى انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه الاول انها تقتضى الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت هممهم فى التغلّب على الغير والذبّ عن الحوزة اسوة فى طموحها وقوة شكايمها ومرماهم الى العز جميع فهم يستطيبون الموت فى بناء مجدهم ويوثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيهم وكبح من اعنّتهم واستاثر بالاموال دونهم فتكاسلوا عن العز (1) وفشل ريحهم وريموا المذلّة والاستعباد ثم ربى الجيل الثانى على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء اجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجرى فى عقولهم سواه وقلّ ان يستأجر احد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا فى الدولة وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحى الضعف والهرم لفساد العصبيّة بذهاب الباس من اهلها الوجه الثانى ان طبيعة الملك تقتضى الترف كما قدّمناه فتكثر عوايدهم وتزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفى دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ثم يزداد ذلك

(1) Man. A. et B. الغزو.

فى اجيالهم المتأخرة الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوايده وتمسّهم الحاجة ويطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم فى الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات وينزعون ما فى ايدى الكثير منهم يستأثرون به عليهم او يوثرون به ابناءهم وصنايع دولتهم فيضعفون هم لذلك عن اقامة احوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وايضا اذا كثر الترف فى الدولة وصار عطاوهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذى هو السلطان الى الزيادة فى اعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم والجباية مقدارها معلوم لا يزيد ولا ينقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ عمّا كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا الى ان يعود العسكر الى اقلّ الاعداد فتضعف الحامية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول او من تحت ايديها من العصايب (1) والقبايل ويتأذن الله فيها بالفناء الذى كتبه على خليقته وايضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل

(1) Man. A. et B. العصبيات.

فى النفس من الشر والسفسفة وعوايدها كما يأتى فى فصل الحضارة فيذهب منهم خلال الخير التى كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتّصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك فى خليقته وتاخذ الدولة مبادى العطب وتتضعضع احوالها وتنزل بها امراض مزمنة من الهرم الى ان يقضى عليها الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضى الدعة كما ذكرناه واذا اتّخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلّة شأن العوايد كلها وايلافها فتربا اجيالهم الحادثة فى عضارة (1) العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحّش وينسون عوايد البداوة التى كان بها الملك من شدّة البأس وتعوّد الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر (2) فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر الا فى الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وينخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلوّنون (3) بعوايد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقّة الحاشية فى جميع احوالهم وينغمسون فيها وهم فى ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئا فشيئا

(1) Man. A. et B. غضادة.

(2) Man. D. هواية القفر.

(3) Man. D. يتلوثون.

وينسون خلق البسالة التى كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية اخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك فى الدولة التى اخبارها فى الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير ريبة وربّما يحدث فى الدولة اذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة ان يتخيّر صاحب الدولة انصارا وشيعا من غير جلدتهم ممّن تعوّد الخشونة فيتّخذهم جندا يكونون اصبر على الحروب واقدر على معاناة الشدايد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذى عساه يطرقها حتى يتأذّن الله فيها بامره وهذا كما وقع فى دولة الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالى من الترك فيتخيّر ملوكهم من اولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون اجرا على الحرب واصبر على الشظف من ابناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا فى ماء النعيم والسلطان وظلّه وكذلك فى دولة الموحدين بافريقية فان صاحبها كثيرا ما يتّخذ اجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك اهل الدولة المتعوّدين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا اخر سالما من الهرم والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الدولة لها اعمار طبيعيّة كالاشخاص

اعلم ان العمر الطبيعىّ للاشخاص على ما زعم الاطبّاء والمنجمون

مایة وعشرون سنة وهی سنو القمر الکبری عند المنجمین ویختلف العمر فی کل جیل بحسب القرانات فیزید عن هذا وینقص منه فتکون اعمار بعض اهل القرانات مایة تامّة وبعضهم خمسین او ثمانین او سبعین علی ما تقتضیه ادلّة القرانات عند الناظرین فیها واعمار اهل هذه الملّة ما بین الستّین الی السبعین کما فی الحدیث ولا یزید علی العمر الطبیعیّ الذی هو مایة وعشرین الا فی الصور النادرة وعلی الاوضاع الغریبة من الفلک کما وقع فی شأن نوح علیه الصلاة والسلام وقلیل من قوم عاد وثمود واما اعمار الدول ایضا وان کان یختلف بحسب القرانات الا ان الدولة فی الغالب لا تعدو اعمار ثلاثة اجیال والجیل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فیکون اربعین الذی هو انتهاء النموّ والنشوّ الی غایته قال تعالی حتی اذا بلغ اشدّه وبلغ اربعین سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجیل ویؤیّده ما ذکرناه فی حکمة التیه الذی وقع لبنی اسرائیل وان المقصود بالاربعین فیه فناء الجیل الاحیاء ونشاءة جیل اخر لم یعهدوا الذلّ ولا عرفوه فدلّ علی اعتبار الاربعین فی عمر الجیل التی هی عمر الشخص الواحد وانما قلنا ان عمر الدولة فی الغالب لا یعدو ثلاثة اجیال لان الجیل الاول لم یزالوا علی خلق البداوة وخشونتها وتوحّشها من شظف العیش والبسالة

والافتراس والاشتراك فى المجد فلا تزال بذلك سورة العصبيّة محفوظة فيهم فحدّهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والرفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك فى المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه ومن عزّ الاستطالة الى ذلّ الاستكانة فتنكسر سورة العصبيّة بعض الشئ ويونس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم لكثير من ذلك بما ادركوا الجيل الاول وباشروا احوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد وتراميهم الى المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الاحوال التى كانت للجيل الاول او على ظنّ من وجودها فيهم واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العزّ والعصبيّة بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ الترف فيهم غايته بما تبنكوه من النعيم وعضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبيّة بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس فى الشارة والزىّ وركوب الخيل وحسن الثقافة يموّهون بها وهم فى الاكثر اجبن من النسوان على ظهورها فاذا

جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتاذّن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة اجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلّقها ولذلك كان انقراض الحسب فى الجيل الرابع كما مرّ فى ان المجد والحسب انّما هو فى اربعة آباء وقد اتيناك فيه ببرهان طبيعىّ ظاهر مبنىّ على ما سهّدناه قبل من المقدّمات فتأمّله فلن يعدو وجه الحقّ ان كنت من اهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة اعمارها ماية وعشرون سنة على ما مرّ ولا تعدو الدولة فى الغالب هذا العمر بتقريب قبله او بعده الا ان عرض لها عارض اخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والمطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لها وجد مدافعا فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون وهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيّد الى سنّ الوقوف ثم الى سنّ الرجوع ولهذا يجرى على السنة الناس فى المشهور ان عمر الدولة ماية سنة وهذا معناه فاعتبره واتّخذ منه قانونا يصحّح لك عدد الآباء فى عمود النسب الذى تريده من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد استربت فى عدّتهم وكانت السنون الماضية منذ اولهم محصلة لديك

فعدّ لكل ماية من السنين ثلاثة من الاباء فان نفذت على هذا القياس مع نفوذ عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد فى عمود النسب وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تاخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك صحيحا والله مقدّر الليل والنهار

فصل فى انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

اعلم ان هذه الاطوار طبيعيّة للدولة فان الغلب الذى يكون به الملك انما هو بالعصبيّة وما يتبعها من شدّة البأس وتعوّد الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من اولها بداوة ثم اذا حصل الملك يتبعه الرفه واتّساع الاحوال والحضارة انما هى تفنّن فى الترف واحكام الصنايع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والآنية وساير عوايد المنزل واحواله فلكل واحد منها صنايع فى استجادته والتانّق فيه تختصّ به ويتلو بعضها بعضا وتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذّ والتنعّم باحوال الترف وما تتلوّن به من العوايد فصار طور الحضارة واحوالها للدولة السالفة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم فى الغالب ياخذون (ومثل) هذا

وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من الحضارة فقد حكى انه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور فى خزاين كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحا وامثال ذلك فلما استعبدوا اهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة فى امثال ذلك والقومة عليه افادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنّن فيه مع ما حصل لهم من اتّساع العيش والتفنّن فى احواله فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوّروا بطور الحضارة والترف فى الاحوال واستجادة المطاعم المشارب والملابس والمبانى والاسلحة والفرش والآنية والغنا وساير الماعون والخرثى وكذا احوالهم فى ايام المباهاة والولايم وليالى الاعراس فاتوا من ذلك وراء الغاية (وانظر) ما نقله المسعودى والطبرى وغيرهما فى اعراس المامون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل ابوها لحاشية المامون حين وافاه فى خطبتها الى داره بفم الصلح وركب اليها فى السفين وما انفق فى املاكها وما نحلها المامون وانفق فى عرسها تقف من ذلك على العجب (فمنه) ان الحسن ابن سهل نثر يوم الاملاك فى الصنيع الذى حضره حاشية المامون فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملتوتة على

الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت فى يده يقع لكل واحد منهم ما اداه اليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير فى كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد ان انفق فى مقامة المامون بداره اضعاف ذلك (ومنه) ان المامون اعطاها فى مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت واوقد شموع العنبر فى كل واحدة مائة منّ وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدرّ والياقوت وقال المامون حين راه قاتل الله ابا نواس كانه ابصر هذا حيث يقول فى صفة الخمر

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصبا درّ على ارض من الذهب

واعدّ بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل ماية واربعين بغلا مدّة عام كامل ثلث مرّات فى كل يوم وفنى الحطب لليلتين واوقدوا الجريد يصبّون عليه الزيت واوعز الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواصّ من الناس بدجلة من بغداذ الى قصر الملك بمدينة المامون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدّة لذلك ثلاثين الفا اجازوا الناس فيها اخريات نهارهم وكثير من هذا وامثاله (وكذلك) عرس المامون بن ذى النون بطليطلة نقله ابن بسام فى كتاب الذخيرة وابن حيان بعد ان كانوا كلهم فى الطور الاول من

البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان اسبابه والقايمين
على صنايعه فى غضاضتهم وسذاجتهم يذكر ان الحجاج اولم
فى اختان ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولايم
الفرس وقال له اخبرنى باعظم صنيع شهدته فقال نعم ايّها
الامير شهدت بعض مرازبة كسرى قد صنع لاهل فارس صنيعا
احضر فيه صحاف الذهب على اخونه الفضّة اربعا على كل
واحد ويحمله اربع وصايف ويجلس عليه اربع من الناس
فاذا طعموا اتبعوا اربعتهم المايدة بصحافها ووصايفها فقال
الحجاج يا غلام انحر الجزور واطعم الناس وعلم انه لا يستقلّ
بهذه الابهة وكذلك كانت (ومن هذا الباب) اعطية بنى
امية وجوايزهم فانما كان اكثرها الابل اخذا بمذاهب العرب
وبداوتهم ثم كانت الجوايز فى دولة بنى العباس والعبيديّين
ومن بعدهم ما علمت من احمال المال وتخوت الثياب
واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة
بافريقية وبنى طغج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوايف
بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين
وهلّم جرّا تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول
الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بنى امية وبنى
العباس وانتقلت حضارة بنى امية بالاندلس الى ملوك
المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة

بنى العباس الى الديلم ثم الى الترك السلجوقية ثم الى الترك بمصر موالى بنى ايوب والى التتار بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها فى الحضارة اذ امور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه اهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه تجده صحيحا فى العمران والدول والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الترف يزيد الدولة فى اوّلها قوة الى قوتها

والسبب فى ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعموميّة فكثرت العصابة واستكثروا ايضا من الموالى والصنايع وربيت اجيالهم فى جوّ ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصايب حينئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الجيل الاول والثانى واخذت الدولة فى الهرم لم يستقلّ اولئك الصنايع والموالى بانفسهم فى تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانّهم ليس لهم من الامر شى انّما كانوا عيالا على اهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقلّ الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة (واعتبر) هذا بما وقع فى الدولة العربيّة فى الاسلام كان عدد

العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة ماية وخمسين الفا او ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه فى الدولة وتوفّر نموهم بتوفّر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنايع بلغ ذلك العدد الى اضعافه (يقال) ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها فى تسعماية الف ولا يبعد مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذ اعتبرت حاميتهم فى الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودى احصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصّة ايام المامون للانفاق عليهم وكانوا ثلاثين الفا بين ذكران واناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقلّ من مايتى سنة واعلم ان سببه الرفه والنعيم الذى حصل للدولة وربى فيه اجيالهم والّا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلّاق العليم

فصل فى اطوار الدولة وكيف تختلف احوال اهلها فى البداوة باختلاف الاطوار

اعلم ان الدولة تنتقل فى اطوار مختلفة وحالات متجدّدة ويكسب القايمون بها فى كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله فى الطور الاخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذى هو فيه وحالات الدولة واطوارها لا تعدو

فى الغالب خمسة (الاول) طور الظفر وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدى الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة فى هذا الطور اسوة قومه فى اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشئ لان ذلك هو مقتضى العصبيّة التى وقع بها الغلب وهى لم تزل بعد بحالها (الطور الثانى) طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور معنيّا باصطناع الرجال واتّخاذ الموالى والصنايع والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيّته وعشيرته المقاسمين له فى نسبه الضاربين فى الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدّهم عن موارده ويردّهم على اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقرّ الامر فى نصابه ويفرد اهل بيته بما يبنى من مجده فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون فى طلب الامر واشدّ لانّ الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراوهم على مدافعتهم اهل العصبيّة باجمعهم وهذا يدافع الاقارب ولا يظاهره على مدافعتهم الا الاقلّ من الاباعد فيركب صعبا من الامر (الطور الثالث) طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه فى

الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجازة الوفود من اشراف الامم ووجوه القبايل وبثّ المعروف في اهله هذا مع التوسعة على صنايعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه واعتراض (1) جنوده وادرار ارزاقهم وانصافهم في اعطياتهم لكل هلال حتى يظهر اثر ذلك عليهم في ملابسهم وزيهم وشكتهم ايام الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر اطوار الاستبداد من اصحاب الدول لانهم في هذه الاطوار كلها مستقلّون بارايهم بانون لعزّهم موضحون الطرق لمن بعدهم (الطور الرابع) طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنا اولوه سلما لانظاره من الملوك واقتاله مقلّدا للماضين من سلفه يتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم باحسن مناهج الاقتداء ويرى ان في الخروج عن تقليدهم فساد امره وانهم ابصر بما بنوا من مجده (الطور الخامس) طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذّ والكرم على بطانتها وفي مجالسها واصطناع اخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التي لا يستقلّون

(1) Man. A. et B. اعراض.

بحملها ولا يعرفون ما ياتون وما يذرون منها مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنايع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما انفق اعطياتهم فى شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقّده فيكون مخربا لما كان سلفه يوسّسون وهادما لما كانوا يبنون وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن الذى لا يكاد يخلص منه ولا يكون لها معه برء الى ان تنقرض كما نبيّنه فى الاحوال التى نسردها والله خير الرازقين

فصل فى ان اثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى اصلها

والسبب فى ذلك ان الآثار انما تحدث عن القوة التى بها كانت اولا وعلى قدرها يكون الاثر فمن ذلك مبانى الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة فى اصلها لانّها لا تتمّ الا بكثرة الفعلة واجتماع الايدى على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من آفاق الدولة واقطارها فتمّ العمل على اعظم هياكله الا ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصّه القران عنها وانظر بالمشاهدة ايوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى انه اعتزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاد عنه وشرع فيه ثم ادركه

العجز وقصّة استشارته يحيى بن خالد فى شأنه معروفة فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع اخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء فى السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى امية بقرطبة والقنطرة التى على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة فى القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول فى القوة والضعف (واعلم) ان تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهندام وباجتماع الفعلة وكثرة الايدى عليها فبذلك شيّدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهّمه العامّة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا فى اطرافها واقطارها فليس بين البشر فى ذلك كبير بون كما نجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة والكنعانيّين فى ذلك اخبارا عريقة فى الكذب من اغربها ما يحكون من عوج بن عناق رجل من العمالقة (1) الذين قاتلهم بنو اسرائيل فى الشام زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه فى الشمس ويزيدون الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال الكواكب لما اعتقدوا ان

(1) Man. A. et B. الكنعانين.

للشمس حرارة وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحرّ هو الضوُ وان الضوُ فيما قرب من الارض اكثر لانعكاس الاشعّة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتتضاعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا جاوزت مطارح الاشعّة المنعكسه فلا حرّ هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجارى السحب وانما الشمس فى نفسها لا حارّة ولا باردة انما هو جسم بسيط مضئ لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة او من الكنعانيّين الذين كانوا فريسة بنى اسرائيل عند فتحهم الشام واطوال بنى اسرائيل وجثمانهم لذلك العهد قريب من هياكلنا تشهد لذلك ابواب بيت المقدس فانها وان خربت وجدّدت لم تزل المحافظة على اشكالها ومقادير ابوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين اهل عصره بهذا المقدار وانما مثار غلطهم فى هذا انهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول فى الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثا العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدّتها بعظم هياكلها وليس الامر كذلك (وقد) زعم المسعودى ونقله من الفلاسفة مزعما لا مستند له الا التحكّم وهو ان الطبيعة التى هى جبلّة الاجسام لما براء الله الخلق كانت فى تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال فكانت الاعمار اطول والاجسام اقوى لكمال

تلك الطبيعة فان طروء الموت انّما هو بانحلال القوى الطبيعيّة فاذا كانت قوية كانت الاعمار ازيد فكان العالم فى اوليّة شأنه تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادّة الى ان بلغ هذه الحال التى هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأى لا وجه له الا التحكّم كما تراه وليس له علّة طبيعيّة ولا سبب برهانىّ ونحن نشاهد مساكن الاوّلين ابوابهم وطرقهم فيما احدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة فى الصلد من الصخر بيوتا صغارا وابوابا ضيّقة وقد اشار النبى صلى الله عليه الى انّها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به واهريق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم ما اصابهم وكذلك ارض عاد ومصر والشام وساير بقاع الارض شرقا وغربا والحقّ ما قررناه (ومن) آثار الدول ايضا حالها فى العراسة والولايم كما ذكرناه فى وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذى النون وقد مرّ ذلك كله (ومن) آثارها ايضا عطايا الدول وانها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو اشرفت على الهرم فان الهمم التى لاهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والهمم لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوايز ابن ذى يزن لوفد قريش كيف

اعطاهم من ارطال الذهب والفضة والاعبد والوصايف عشرا عشرا ومن كرش العنبر واحدة واضعف ذلك بعشرة امثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصّة تحت استبداد فارس وانّما حمله على ذلك همّة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك فى الارض والغلب على الامم فى العراقين والهند والمغرب وكان الصنهاجيّون بافريقية ايضا اذا اجازوا الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانّما يعطونهم المال احمالا والكساء تخوتا مملوة والحملان جنايب (1) عديدة (وفى) تاريخ ابن الرقيق من ذلك اخبار كثيرة (وكذلك) كان عطاء البرامكة وجوايزهم ونفقاتهم وكانوا اذا اكسبوا معدما فانما هو الملك والولاية والنعمة اخر الدهر لا العطاء الذى يستنفده يوم او بعض يوم واخبارهم فى ذلك كثيرة مسطورة وهى كلها على نسبة الدول جارية (وهذا) جوهر الصقلبى الكاتب قايد جيش العبيديّين لما ارتحل الى فتح مصر استعدّ من القيروان بالف حمل من المال ولا تنتهى اليوم دولة الى مثل هذا (وكذلك) وجد بخطّ احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداذ ايام المامون من جميع النواحى ونقلته من كتاب جراب الدولة (غلّات) السواد سبعة وعشرون

(1) Man. A. et B. حقايب.

الف الف درهم مكررة مرّتين وسبعماية الف درهم وثمانون الف درهم (ابواب) المال بالسواد اربعة عشر الف الف درهم مرّتين وثمان ماية الف درهم مرّة ومن الحلل النجرانيّة مايتا حلّة (1) ومن طين الختم مايتان واربعون رطلا (كسكر) احد عشر الف الف درهم مرّتين وستماية الف درهم مرّة (كور دجلة) عشرون الف الف درهم مرّتين وثمان ماية الف درهم مرّة (الاهواز) خمسة وعشرون الف الف درهم مرّة ومن السكر ثلاثون الف رطل (فارس) سبعة وعشرون الف الف درهم مرّتين ومن ماء الورد ثلثون الف قارورة ومن الزبيب (2) الاسود عشرون الف رطل (كرمان) اربعة آلاف الف درهم مرّتين ومايتا الف درهم مرّة ومن المتاع اليمانى خمسماية ثوب ومن التمر عشرون الف رطل ومن الكمون الف رطل (مكران) اربعماية الف درهم مرّة (السند) وما يليه احد عشر الف الف درهم وخمسماية الف درهم مرّة ومن العود الهندى ماية وخمسون رطلا (سجستان) اربعة آلاف الف درهم مرّتين ومن الثياب المعيّنة ثلثماية ثوب ومن الفانيذ عشرون الف رطل (خراسان) ثمانية وعشرون الف الف درهم مرّتين ومن نقر الفضّة الفا نقرة (3) ومن البراذين اربعة آلاف دابّة ومن

(1) Le m. A. et le m. B. ajoutent ثنتان. (3) Man. A. et B. ajoutent اثنان.

(2) Man. A. et B. الزيت.

الرقيق الف راس ومن الثياب سبعة وعشرون الف ثوب ومن الاهليلج ثلاثة آلاف رطل (جرجان) اثنا عشر الف الف درهم مرّتين ومن الابريسم الف شقّة (قومس) الف الف درهم مرّتين وخمسماية الف ومن نقر الفضّة الف (طبرستان والرويان ونهاوند ستّة آلاف الف درهم مرّتين وثلاثماية الف ومن الفرش الطبرية ستماية قطعة ومن الاكسية مايتان ثنتان ومن الثياب خمسماية ثوب ومن المناديل ثلاثماية ومن الجامات ثلاثماية (الرى) اثنا عشر الف الف درهم مرّتين ومن العسل عشرون الف رطل (همدان) احد عشر الف الف درهم مرّتين وثمانماية الف درهم مرّة ومن رُبّ الرمانيين الف رطل ومن العسل اثنا عشر الف رطل (مابين البصرة والكوفة عشرة آلاف الف درهم وسبعماية الف درهم (ماسبدان) والريان اربعة آلاف الف درهم مرّتين (شهرزور) ستّة آلاف الف درهم مرّتين (الموصل) وما اليها اربعة وعشرون الف الف درهم مرّتين ومن العسل الابيض عشرون الف رطل (اذربيجان) اربعة آلاف الف درهم مرّتين (الجزيرة) وما يليها من اعمال الفرات اربعة وثلاثون الف الف درهم مرّتين (الكرج) ثلاثماية الف درهم مرّة (كيلان) خمسة آلاف الف درهم مرّتين ومن الرقيق الف راس ومن العسل اثنا عشر الف زقّ ومن البزاة عشرة ومن

الاكسية عشرون (ارمينية) ثلاثة عشر الف الف درهم مرّتين ومن البسط المحفورة عشرون ومن الرقم خمسماية وثمانون رطلا ومن المايح (1) السورماهى عشرة آلاف رطل ومن الطريح عشرة آلاف رطل ومن البغال مايتان ثنتان ومن البزاة ثلاثون (قنسرين) اربعماية الف دينار وعشرون الف دينار ومن الزبيب الف حمل (دمشق) اربعماية الف دينار وعشرون الف دينار (الاردن) ستة وتسعون الف دينار (فلسطين) ثلثماية الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثماية الف رطل (مصر) الفا الف دينار اثنان مرّتين وتسعماية الف دينار وعشرون الف دينار (برقة) الف الف درهم مرّتين (افريقية) ثلاثة عشر الف الف درهم مرّتين ومن البسط ماية وعشرون (اليمن) ثلثماية الف دينار وسبعون الف دينار سوى المتاع (الحجاز) ثلثماية الف دينار (واما الاندلس) فالذى ذكره الثقات من مورّخيها ان الناصر عبد الرحمن ثامن ملوك بنى امية المتلقب بلقب الخلافة ترك فى بيوت امواله عند الوفاة خمسة آلاف الف دينار مكرّرة مرّتين يكون جملتها بالقناطير خمسماية قنطار (ورايت) فى بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال فى ايامه سبعة آلاف قنطار من دنانير الذهب وخمسماية قنطار فى كل سنة (واما دولة

(1) Man. A. المالح. man. D. المسايح.

العبيديّين) فرايت فى تاريخ ابن خلكان عند ما ذكر الافضل امير الجيوش بن بدر الجمالى المستبدّ على خلفايهم بمصر انه لما قتل وجد فى خزانته ستماية الف الف دينار مكرّرة مرّتين ومايتان وخمسون اردبا من الدراهم وما يناسب ذلك من ذخاير الفصوص واللآلى والاقمشة والامتعة والمراكب والحمولة (واما) هذه الدول الحادثة التى ادركناها فاعظمها دولة الترك بمصر وكان استفحالها ايام الناصر محمد بن قلاون منهم وغلب عليه لاول دولته الاميران بيبرس وسلار ثم خلعه بيبرس واستبدّ بكرسيه وسلار رديف له فلما انتزع الناصر الملك من يده ونكب بعد مدّة رديفه سلار واستصفى ذخيرته فوقفت على جريدة احصايها ومنها نقلت من الياقوت البرهمانى والبلخش اربعة ارطال ونصف ومن الزمرد تسعة عشر رطلا ومن فصوص الماس وعين الهرّ ثلثماية قطعة كبار ومن الفصوص المختلفة رطلان ومن اللؤلؤ المدور من زنة مثقال الى وزن حبّة الف وماية وخمسون حبّة ومن الذهب العين الف الف دينار مكرّرة مرّتين واربعماية الف مرّة وفسقية مملوّة بالذهب صبيبا واكياس مملوّة ذهبا استخرجت من بين حايطين ولم يعلم عدّتها ومن الدراهم الفا الف اثنان مكرّرة مرّتين واحد وسبعون الفا ومن الحلى المصاغ اربعة قناطير الى ما

يناسب ذلك من الاقمشة والامتعة والمراكب والظهر والغلال والسايمة والمماليك والجواري والعقار (وبعدها) دولة بنى مرين بالمغرب الاقصى ووقفت على جريدة فى خزانة ملوكهم بخطّ صاحب المال عندهم حسون بن البواق ان مخلف السلطان ابى سعيد ببيت ماله سبعماية قطنار ونيف من دنانير الذهب وفى موجوده مما سوى ذلك ما يناسبه وكان السلطان ابى الحسن ابنه من بعده اكثر من ذلك (ولما) استولى على تلمسان وجد فى ذخاير سلطانها ابى تاشفين من ملوك بنى عبد الواد ثلثماية قنطار ونيف من الذهب ما بين مسكوك ومصوغ الى ما يناسب ذلك ممّا سواه (واما) ملوك افريقية الموحدين فادركت السلطان ابا بكر تاسع ملوكهم وقد نكب قايده واتابك عساكره محمد بن الحكيم فاستصفى منه اربعين قنطارا من دنانير الذهب ومدّ من الفصوص واللالى ونهب من فرش بيوته قريب من ذلك الى ما يناسب ذلك من ساير المتملكات (وحضرت) بمصر ايام الملك الظاهر ابى سعيد برقوق وقد نكب استداداره الامير محمود وصادره فاخبرنى متولّى مصادرته ان مبلغ ما استصفى منه من الذهب الف الف دينار مكرّرة مرّتين وستماية الف الف دينار مرّة واما ما سوى ذلك من الاقمشة والمراكب والانعام والغلال والظهر فعلى

نسبة ذلك (فاعتبر) ذلك فى نسبة الدول بعضها الى بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا فى عصرك شى من امثاله فتضيق حوصلتك عن ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا امثال هذه الاخبار عن الدول السالفة بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان احوال الوجود والعمران متفاوتة ومن ادرك منها رتبة سفلى او وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بنى العباس وبنى امية والعبيديّين وقايسنا الصحيح من ذلك والذى لا نشكّ فيه بالذى نشاهده من هذه الدول التى هى اقلّ بالنسبة اليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت فى اصل قوتها وعمران ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الاصل فى القوة كما قدّمناه ولا يسعنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال فى غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ (1) من الاحوال المنقولة مراتب الدول فى قوتها او ضعفها وضخامتها وصغرها واعتبر ذلك بما نقصّه عليك من هذه الحكاية المستظرفة وذلك انه ورد على المغرب لعهد السلطان ابى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة

(1) Man. A. et B. فخذ. D. يتّخذ.

طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلّب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله فى خطّة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب الى المغرب واتّصل بالسلطان ابى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما راى من العجايب بممالك الارض واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند وياتى من احواله بما يستغربه السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر احصى اهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر تدفع لهم من عطايه وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه فى ذلك الحفل منجنيقات على الظهر يرمى بها شكاير الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وامثال هذه الحكايات فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت انا يومئذ فى بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشان واريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول

بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه ومكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما ادرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يغتذى بها فاذا قال له ابوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له ابوه بشياتها ونعوتها فيقول يا ابت تراها مثل الفار فينكر عليه فيقول اين الغنم من الفار وكذا فى لحم البقر والابل اذ لم يعاين فى محبسه الا الفار فيحسبها كلها ابناء جنس للفار وهذا كثيرا ما يعترى الناس فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الاغراب كما قدّمناه اول الكتاب فليرجع الانسان الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميّزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه اوسع شئ فلا يفرض حدّا بين الواقعات وانّما مرادنا الامكان بحسب المادّة التى للشئ فاذا نظرنا اصل الشئ وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم فى (1) نسبة ذلك على احواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل ربّ زد لى علما

(1) Man. C. et D. من.

فصل فى استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيّته بالموالى والمصطنعين

اعلم ان صاحب الدولة انّما يتمّ امره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراوه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلّد اعمال مملكته ووزارة دولته وجباية امواله لانّهم اعوانه على الغلب وشركاوه فى الامر ومساهموه فى ساير مهمّاته هذا ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثانى وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا فى حقيقة الامر من بعض اعدايه واحتاج فى مدافعتهم عن الامر وصدّهم عن المشاركة الى اولياء اخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولّاهم دونهم فيكونون اقرب عليه من سايرهم واخصّ به قربا واصطناعا واولى ايثارا وجاها لما انهم يستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الامر الذى كان لهم والرتبة التى الفوها فى مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصّهم بمزيد التكرمة والايثار ويقسم لهم ما للكثير من قومه ويقلّدهم جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختصّ به لنفسه ويكون خالصة له دون قومه من القاب المملكة لانهم حينئذ اولياوه الاقربون ونصحاوه المخلصون وذلك حينئذ

موذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبيّة التى كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربّصون به الدواير ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع فى برئها من هذا الداء لانه ما مضى يتأكّد فى الاعقاب الى ان يذهب رسمها واعتبر ذلك فى دولة بنى امية كيف كانوا يستظهرون فى حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن ابى وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابى سفيان والحجاج ابن يوسف والمهلب بن ابى صفرة وخالد بن عبد الله القسرى وابى هبيرة وموسى ابن نصير وبلال بن ابى بردة بن ابى موسى الاشعرى ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنايع من البرامكة وبنى سهل بن نوبخت وبنى طاهر ثم بنى بويه وموالى الترك مثل بغا ووصيف واتامش وباكياك وابن طولون وابنائهم وغير هولاء من موالى العجم فتصير الدولة لغير من مهدها والعزّ لغير من اجتلبه سنّة الله فى عباده

فصل فى احوال الموالى والمصطنعين فى الدول

علم ان المصطنعين فى الدول يتفاوتون فى الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم فى الالتحام بصاحبها والسبب فى ذلك ان المقصود فى العصبيّة من المدافعة والمغالبة انما يتمّ بالنسب لاجل التناصر فى ذوى الارحام والقربى والتخاذل فى الاجانب والبعدا كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرقّ او بالحلف تتنزّل منزلة ذلك لان امر النسب وان كان طبيعيّا فانما هو وهمىّ والمعنى كان به الالتحام انما هو العشرة والمرافقة وطول الممارسة والصحبة بالمربا والرضاع وساير احوال الموت والحياة واذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر فى الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصّة من الوصلة تتنزّل هذه المنزلة وتوكد اللحمة وان لم يكن نسبا فثمرات النسب موجودة فان كانت الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها اوشج وعقايدها اصحّ ونسبها اصرح لوجهين احدهما انهم قبل الملك اسوة فى حالهم فلا يتميّز النسب عن الولاية الا عند الاقلّ منهم فينزلون منهم منزلة ذوى قرباهم واهل ارحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميّزة للسيّد

عن الموالى ولاهل القرابة عن اهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه احوال الرياسة والملك من تميّز الرتب وتفاوتها فتتميّز حالاتهم ويتنزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم اضعف والتناصر لذلك ابعد وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك الوجه الثانى ان الاصطناع قبل الملك يبعد اهله عن الدولة بطول الزمن ويخفى شأن تلك اللحمة ويظنّ بها فى الاكثر النسب فيقوى حال العصبيّة واما بعد الملك فيقرب العهد ويستوى فى معرفته الاكثر فتتبيّن اللحمة وتتميّز عن النسب فتضعف العصبيّة بالنسبة الى الولاية التى كانت قبل الدولة واعتبر ذلك فى الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعة قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده اشدّ التحاما به واقرب قرابة اليه ويتنزّل منه منزلة ابنايه واخوانه وذوى رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاوّلين وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة فى آخر امرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا ينبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ باوّليتهم واشراف (1) الدولة على الانقراض فيكونون منحطّين فى مهاوى الضعة وانما يحمل

(1) Man. C. et D. مشارفة.

صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن اوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعتريهم فى انفسهم من العزّة على صاحب الدولة وقلّة الخضوع له ونظره بما ينظره قبيله واهل نسبه لتاكّد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتّصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء اهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجيّة وهكذا شأن الدول فى اواخرها واكثر ما يطلق اسم الصنايع والاولياء على الاولين واما هولاء المحدثون فخدم واعوان والله ولىّ المومنين

فصل فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

اذا استقرّ الملك فى نصاب معيّن ومنبت واحد من القبيل القايمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا ساير القبيل عنه وتداوله بنوهم واحد بعد واحد بحسب الترشيح فربّما حدث التغلّب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه فى الاكثر ولاية صبى صغير او مضعف من اهل المنبت (1) يترشّح للولاية بعد ابيه او يترشّح ذويه وخوله ويونس منه العجز

(1) Man. D. البيت.

عن القيام بالملك فيقوم به كافله من وزراء ابيه او حاشيته ومواليه او قبيله ويورى بحفظ امره عليه حتى يونس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبى عن الناس ويعوّده اللذّات التى يدعوه اليها ترف احواله ويسيمه فى مراعيها متى امكنه وينسّيه النظر فى الامور السلطانيّة حتى يستبدّ عليه وهو بما عوّده يعتقد ان حظّ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب التمويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحلّ والعقد والامر والنهى ومباشرة الاحوال الملوكيّة وتفقّدها من النظر فى الجيش والمال والثغور انّما هو للوزير ويسلم له فى ذلك الى ان تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحوّل الملك اليه ويورثه عشيرته وابناءه من بعده كما وقع لبنى بويه والترك وكافور الاخشيدى وغيرهم بالمشرق وللمنصور ابن ابى عامر بالاندلس وقد يتفطّن ذلك المحجور المغلب لشانه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على يد المتغلّب عليه اما بقتل او بدفع عن الرتبة فقط الا ان ذلك فى النادر الاقلّ لان الدولة اذا اخذت فى تغلّب الوزراء والاولياء استمرّ لها ذلك وقلّ ان تخرج عنه لان ذلك انّما يوجد فى الاكثر عن احوال الترف ونشاءة ابناء الملك منغمسين فى نعيمه قد

نسوا عهد الرجوليّة والفوا اخلاق الدايات والاظار وربوا عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبداد من تغلّب انما همهم فى (1) القنوع بالابهة والتفنّن فى اللذّات وانواع الترف وهذا التغلّب يكون للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضرورىّ كما قدّمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما الا فى الاقلّ النادر والله يوتى ملكه من يشاء

فصل فى ان المتغلّبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاصّ بالملك

وذلك ان الملك والسلطان حصل لاوليه منذ اول الدولة بعصبيّة قومه وعصبيّته التى استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهى لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاوها وهذا المتغلّب وان كان صاحب عصبيّة من قبيل الملك او الموالى والصنايع فعصبيّة مندرجة فى عصبية اهل الملك وتابعة لها وليس لها صبغة فى الملك وهو لا يحاول باستبداده انتزاع الملك ظاهرا وانّما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهى والحلّ والعقد والابرام والنقض يوهم بذلك اهل الدولة انه متصرّف عن سلطانه منفذ فى

(1) Man. A. et B. همّهم القنوع.

ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته والقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر فى استبداده ذلك بالحجاب الذى ضربه السلطان واولوه على انفسهم من القبيل مذ اول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرّض لشئ من ذلك لنفسه غلبه اهل العصبيّة وقبيل الملك وحاولوا الاستيثار به دونه لانه لم يستحكم له صبغة فى ذلك تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لاول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن المنصور بن ابى عامر حين سما الى مشاركة هشام واهل بيته فى لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع ابوه واخوه من الاستبداد بالحلّ والعقد والمراسم التابعة فطلب من هشام خليفته ان يعهد له بالخلافة فنقم ذلك عليه بنو مروان وساير قريش وبايعوا لابن عمّ الخليفة هشام ابن محمد بن عبد الجبّار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان فى ذلك خراب دولة العامريّين وهلاك المويد خليفتهم واستبدل منه بسواه من اعياص الدولة الى آخرها واختلّت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

فصل فى حقيقة الملك واصنافه

الملك منصب طبيعى للانسان لانا قد بيّنّا ان البشر

لا يمكن حياتهم ووجودهم الّا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومدّ كل واحد منهم يده الى حاجته ياخذها لما فى الطبيعة الحيوانيّة من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعه الاخر عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية فى ذلك فيقع التنازع المفضى الى المقاتلة وهى تودى الى الهرج وسفك الدماء واذهاب النفوس المفضى ذلك الى انقطاع وهو ممّا خصّه البارئ تعالى بالمحافظة فاستحال بقاوهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من اجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكّم ولا بدّ فى ذلك من العصبيّة لما قدّمناه من ان المطالبات كلها والمدافعات لا تتمّ الا بالعصبيّة وهذا الملك كما تراه منصب شريف يتوجّه نحوه الطلبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتمّ شئ من ذلك الا بالعصبيّات كما مرّ والعصبيّات متفاوتة وكل عصبيّة فلها تحكّم وتغلّب على من يليها من قومها وعشيرتها وليس الملك لكل عصبيّة وانّما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعيّة ويجبى الاموال ويبعث البعوث ويحمى الثغور ولا يكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته فى المشهور فمن قصرت به

عصبيّته عن بعضها مثل حماية الثغور وجباية الاموال او بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتمّ حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر فى دولة الاغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسيّة ومن قصرت به عصبيّته ايضا من لاستعلاء على جميع العصبيّات والضرب على ساير الايدى وكان فوقه حكم غيره فهو ملك ناقص لم تتمّ حقيقته وهولاء مثل امراء النواحى وروساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا فى الدول المتّسعة النطاق اعنى يوجد ملوك على قومهم فى النواحى القاصية يدينون بطاعة الدولة التى جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديّين وزناتة مع الامويّين تارة والعبيديّين اخرى ومثل ملوك العجم فى دولة بنى العباس ومثل امراء البربر وملوكهم مع الافرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوايف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيّين وكثير من هولاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده

فصل فى ان ارهاف الحدّ مضرّ بالملك ومفسد له فى الاكثر

اعلم ان مصلحة الرعية فى السلطان ليست فى ذاته وجسمه من حسن شكله او ملاحة وجهه او عظم جثمانه او اتّساع

علمه او جودة خطّه او ثقوب ذهنه انّما مصلحتهم فيه من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافيّة وهى نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان انه المالك للرعيّة القايم باموره عليهم فالسلطان من له رعيّة والرعيّة من لها سلطان والصفة التى له من حيث اضافته اليهم هى التي تسمى الملكة وهى كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها بمكان من الجودة حصل المقصود من السلطان على اتمّ الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم فان كانت سيّئة متعسّفة كان ذلك ضررا عليهم وهلاكا لهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذلّ ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلّقوا بها وفسدت بصايرهم واخلاقهم وربّما خذلوه فى مواطن الحرب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربّما اجمعوا قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام امره عليهم وقهره فسدت العصبيّة بما قلناه اولا ففسد السياج من اصله بالعجز عن الحماية واذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيّاتهم استناموا اليه ولاذوا به واشربوا محبّته واستماتوا دونه فى محاربة اعدائه فاستقام الامر من كل جانب (واما) توابع

حسن الملكة فهى النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتمّ حقيقة الملك وامّا النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم فى معاشهم وهى اصل كبير فى التحبّب الى الرعية وإعلم انه قل ما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس فاكثر ما يوجد الرفق فى الغفل او المتغفّل واقل ما فى اليقظ انه يكلّف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطّلاعه على عواقب الامور فى مباديها بالهعيّة فيهلكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير اضعفكم (ومن) هذا الباب اشترط الشارع فى الحاكم قلة الذكاء ومأخذه من قصّة زياد بن ابى سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال عزلتنى يا امير المومنين ألِعجز ام لخيانة فقال له عمر لم اعزلك لواحدة منهما ولكن كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس فاخذ من هذا ان الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد ابن ابى سفيان وعمرو بن العاصى لما يتبع ذلك من التعسّف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس فى طبيعته كما ياتى فى آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرّر من هذا ان الكيس والذكاء عيب فى صاحب السياسة لانه افراط فى الفكر كما ان البلادة افراط فى لجمود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانيّة والمحمود هو التوسّط كما فى

الكرم مع التبذير والبخل وكما فى الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانيّة وبهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومُتَشَيْطن وامثال ذلك والله يخلق ما يشاء

فصل فى معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضرورىّ للبشر ومقتضاه التغلّب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه فى الغالب جايرة عن الحقّ مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى احوال دنياهم لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من اغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجئ العصبية المفضية الى الهرج والقتل فوجب ان يرجع فى ذلك الى قوانين سياسيّة مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى احكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من (1) مثل هذه السياسة لم يستتب امرها ولا يتمّ استيلاوها سنّة الله فى الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء واكابر الدولة وبصايرها كانت سياسة عقليّة واذا كانت مفروضة من الله سبحانه وتعالى بشارع يقرّرها ويشرعها كانت سياسة دينيّة

(1) Man A. فى الدولة اختلت l. B. اختلفت l.

نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة وذلك ان الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله تعالى يقول افحسبتم انّما خلقناكم عبثا فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة فى آخرتهم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض فجاءت الشرايع تحملهم على ذلك فى جميع احوالهم من عبادة ومعاملة حتّى فى الملك الذى هو طبيعىّ للاجتماع الانسانى فاجرته على منهج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشرع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلّب واهمال القوة الغضبيّة فى مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو فى مقتضى الحكمة السياسيّة وما كان منه بمقتضى السياسة واحكامها من غير نظر الشرع فمذموم ايضا لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لان الشارع اعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من امور آخرتهم واعمال البشر كلها عايدة عليهم فى معادهم من ملك او غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هى اعمالكم ترد عليكم واحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدينا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرايع حمل الكافة على الاحكام الشرعيّة فى احوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل

الشريعة وهم الانبياء ومن قام مقامهم وهم الخلفاء فقد تبيّن لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك طبيعيّ هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسيّ هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقليّ فى جلب المصالح الدنيويّه ودفع المضارّ والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخرويّة والدنيويّة الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

فصل فى اختلاف الامّة فى حكم الخلافة وشروطها

واذ قد بيّنّا حقيقة هذا المنصب وانه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به ويسمى خلافة وامامة والقايم به خليفة واماما وسمّاه المتاخّرون سلطانا حين فشا التعدّد فيه واضطرّوا بالتباعد وفقدان شروط المنصب الى عقد البيعة لكل متغلّب فاما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الامامة الكبرى واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى امّته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف فى تسميته خليفة الله فاجازه

بعضهم اقتباسا من الخلافة العامّة التى للادميّين فى قولـه تعالى انّى جاعل فى الارض خليفة وقوله جعلكم خلايف الارض ومنع الجمهور منه لانّ معنى الاية ليس عليـه وقـد نهى ابو بكر لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكنّى خليفة رسول الله ولان الاستخلاف انّما هو فى حقّ الغايـب واما الحاضر فلا (ثم) ان نصب الامام واجب قـد عـرف وجوبه من الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان اصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيـعة ابـى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى امورهم وكذا فى كل عصر بعد ذلك ولم يترك الـنـاس فـوضـى فى عصر من الاعصار واستقرّ ذلك اجماعـا دالّا على وجـوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى ان مدركه وجوبه العقل وان الاجماع الذى وقع فانّما هو قضاء بحكم العـقـل فيه قالوا وانّما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم متفرّدين ومن ضرورة الاجتمـاع الـتـنـازع لازدحام الاغراض فما لم يكن الحاكم الوازع افضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع ان حـفـظ النوع من مقاصد الشرع الضروريّة وهذا المعنى بعينه هو الذى لحظ الحكماء فى وجوب النبوات فى البشر وقد نبّهنـا على فساده وان احدى مقدّماته ان الوازع انّما يكون بشرع مـن

الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر الشوكة ولو لم يكن شرع كما فى اسم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب او لم تبلغه الدعوة او نقول يكفى فى رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادّعاوهم ان ارتفاع النزاع انّما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الروساء اهل الشوكة او بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينتهض دليلهم العقلىّ المبنى على هذه المقدّمة فدلّ على ان مدرك وجوبه انّما هو بالشرع وهو الاجماع الذى قدّمناه وقد شذّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هولاء امضاء احكام الشرع فاذا تواطأت الامّة على العدل وتنفيذ احكام الله لم تحتج الى امام ولا يجب نصبه وهولاء محجوجون بالاجماع والذى حملهم على هذا المذهب انّما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما راوا الشريعة ممتلئة بذمّ ذلك والنعى على اهله ومرغبة فى رفضه (واعلم) ان الشرع لم يذمّ الملك لذاته ولاحظر القيام به وانّما ذمّ المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شكّ فى ان هذه مفاسد محظورة

وهى من توابعه كما اثنى على العدل والنصفة واقامة مراسم الدين والذبّ عنه واوجب بازايها الثواب وهى كلها من توابع الملك فاذن انّها وقع الذمّ للملك على صفة وحال دون اخرى ولم يذمّه لذاته ولا طلب تركه كما ذمّ الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلّيّة لداعية الضرورة اليهما وانّما المراد تصريفهما على مقتضى الحقّ وقد كان لداود وسليمان صلوات الله عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما وهما من انبياء الله واكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يغنيكم شيًا فانكم موافقون على وجوب اقامة احكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصبيّة والشوكة والعصبيّة مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك ولو لم ينصب امام وهو عين ما فررتم عنه واذا تقرّر ان هذا المنصب واجب بالاجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار اهل الحل والعقد فيتعيّن عليهم نصبه وتجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى اطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم ولا يجوز عقد هذا المنصب لاثنين معا وعليه جمهور العلماء وقوفا مع ظواهر الاحاديث التى دلّت على ذلك فى صحيح مسلم في كتاب الامارة منه وذهب اخرون الى ان ذلك انما هو فى البلد الواحد او فى حال تقاربهما

واما عند التباعد وقصور الامام عن البلد الشاسع فيجوز نصب اخر هنالك للقيام بالمصالح ومن المشاهير الذين نقل عنهم ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفراينى شيخ المتكلّمين ومال اليه امام الحرمين فى كتاب الارشاد وربّما يظهر من آراء الاندلسيّين والمغاربة الجنوح الى ذلك فقد كان العلماء بالاندلس متواقرين وبايعوا لبنى امية ولقبوا الناصر عبد الرحمن منهم وابناءه بامير المومنين التى هى سمة الخلافة كما ياتى وكذا الموحدون بعدهم بالمغرب وقد ردّ بعضهم ذلك بالاجماع وهو غير ظاهر اذ لو كان هناك اجماع لم يخالفه الاستاذ ابو اسحق ولا امام الحرمين فهم اقعد بمعرفة الاجماع نعم ردّ على الامام المازرى والنووى وقوفا مع ظواهر الاحاديث كما قلناه وربّما احتجّ لذلك بعض المتاخرين بدليل التمانع الذى فى التنزيل وهو قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولا ينهض الاستدلال على ذلك بالاية الكريمة لان دلالتها عقليّة نبّهنا الله عليها ليحصل لنا التوحيد الذى امرنا باعتقاده بدليل عقلى فيكون ارسخ ومطلوبنا فى باب الامامة المنع من نصب امامين وهو شرعىّ تكليفىّ فلا يتمّ الاستدلال بها الا ان يقرّرها شرعية بزيادة مقدمة اخرى وهى ان التعدّد ينشاء عنه الفساد ونحن ممنوعون مما يجرّ اليه ويصير الاستدلال حينئذ شرعيّا والله اعلم (واما) شروط هذا

المنصب فهى اربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء ممّا يوثر فى الراى (1) والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشىّ فامّا اشتراط العلم فظاهر لانه امّا يكون منفذا لاحكام الله اذا كان عالما وما لم يعلمها لا يصحّ تقديمه لها ولا يكفى من العلم الا ان يكون مجتهدا لانّ التقليد نقص والامامة تستدعى الكمال فى الاوصاف والاحوال واما العدالة فلانه منصب دينىّ ينظر فى ساير المناصب التى هى شرط فيها فكان اولى باشتراطها فيه ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وامثالها وفى انتفايها بالبدع الاعتقاديّة خلاف واما الكفاية فهو ان يكون جريًا على اقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبيّة واحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصحّ له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وسياسة الدنيا وتدبير المصالح واما سلامة الحواسّ والاعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يوثر فقده من الاعضاء فى العمل كفقد اليدين والرجلين والانثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك فى تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انّما يشين فى المنظر فقط كفقدان احدى

(1) Man. B. et C. الرى. A. المراى.

هذه الاعضاء فتشترط السلامة منه شرط كمال (ويلتحق) بفقدان الاعضاء المنع من التصرّف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه فى اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرّف جملة بالاسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض اعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقّة فينتقل النظر فى حال هذا المستولى فان جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علّته حتى ينفذ فعل الخليفة (واما) النسب القرشى فلاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجّت قريش على الانصار لما همّوا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منّا امير ومنكم امير بقوله صلى الله عليه وسلّم الايمّة من قريش وبان النبى صلى الله عليه وسلم اوصانا بان نحسن الى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصيّة بكم فحجّوا الانصار ورجعوا عن قولهم منّا امير ومنكم امير وعدلوا عمّا كانوا همّوا به من بيعة سعد لذلك وثبت ايضا فى الصحيح لا يزال هذا الامر فى قريش وامثال هذه الادلّة كثير الا انه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيّتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما انفقتهم الدولة فى ساير اقطار الارض عجزوا لذلك عن حمل الخلافة وتغلب عليهم

الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفى اشتراط القرشيّة وعوّلوا على ظواهر فى ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشىّ ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجّة فى ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة فى ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى ابى حذيفة حيّا لوليته او لما داخلتنى فيه الظنّة وهو ايضا لا يفيد ذلك لما علمت ان مذهب الصحابىّ ليس بحجّة وايضا فمولى القوم منهم وعصبيّة الولاء حاصلة بسالم من قريش وهى الفايدة فى اشتراط النسب ولما استعظم عمر امر الخلافة وراى شروطها كانّها مفقودة فى ظنّه عدل الى سالم لتوفرّ شروط الخلافة عنده فيه حتى من الولاء المفيد للعصبيّة كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فراءه غير محتاج اليه اذا الفايدة فى النسب انما هى العصبيّة وهى حاصلة من الولاء وكان ذلك حرصا من عمر على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه به لايمة ولا عليه فيه عهدة (ومن) القايلين بنفى اشتراط القرشيّة القاضى ابو بكر الباقلانى لما ادرك عليه عصبيّة قريش من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فاسقط شرط القرشيّة وان كان موافقا لراى الخوارج لما راى عليه حال

الخلفاء لعهده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحّة الامامة للقرشىّ ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين ويردّ عليهم سقوط شرط الكفاية التى بها يقوى على امره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبيّة فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرّق ذلك ايضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع (ولنتكلم) الآن فى حكمة اشتراط النسب ليتحقّق به الصواب فى هذه المذاهب فنقول ان الاحكام الشرعيّة كلها لا بدّ لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشىّ ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرّك بوصلة النبى صلى الله عليه وسلم كما هو المشهور وان كانت تلك الوصلة موجودة والتبرّك بها حاصلا لكن التبرّك ليس من المقاصد الشرعيّة كما علمت فلا بدّ اذن من مصلحة فى اشتراط النسب هى المقصودة فى مشروعيّته واذا سبرنا وقسمنا لم نجدها الا اعتبار العصبيّة التى تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملّة واهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك ان قريشا كانوا انف مضر واصلهم واهل الغلب منهم وكان لهم على ساير مضر العزّة بالكثرة والعصبيّة والشرف فكان ساير العرب

يعرفون لهم ذلك ويستكينون لغلبهم فلو قد جعل الامر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبايل مضر ان يردّهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكره فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتّفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبيّة وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر فى قريش لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من احد خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشى فى هذا المنصب وهم اهل العصبيّة القويّة ليكون ابلغ فى انتظام الملّة واتّفاق (1) الجماعة واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر اجمع فاذعن لهم ساير العرب وانقادت الامم سواهم الى احكام الملّة ووطيّت جنودهم قاصية البلاد كما وقع فى ايام الفتوحات واستمرّ بعدها فى الدولتين الى ان اضمحلّ امر الخلافة وتلاشت عصبيّة العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلّب على بطون مضر من مارس اخبار العرب وسيرهم وتفطّن لذلك من احوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق فى كتاب السير وغيره واذا ثبت ان اشتراط القرشية انّما هو

(1) Man. A. et B. اتقان.

لرفع التنازع بما كان لهم من العصبيّة والغلب وعلمنا ان الشارع لا يخصّ الاحكام بجيل ولا عصر ولا امّة علمنا ان ذلك انما هو من الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلّة المشتملة على المقصود من القرشيّة وهى وجود العصبيّة فاشترطنا فى القايم بامور المسلمين ان يكون من قوم اولى عصبيّة قويّة غالبة على من معها بعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعمّ ذلك فى الاقطار والآفاق كما كان فى القرشيّة اذ الدعوة الاسلاميّة التى كانت لهم عامّة وعصبيّة العرب كانت وافية بها فغلبوا ساير الامم وانما يخصّ لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبيّة الغالبة واذا نظرت سرّ الله فى الخلافة لم يعدّ هذا لانه سبحانه انّما جعل الخليفة نايبا عنه فى القيام باسور عباده ليحملهم على مصالحهم ويرجعهم عن مضارّهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر من لا قدرة له عليه الا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب فى شأن النساء وانّهن فى كثير من الاحكام الشرعيّة جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن فى الخطاب بالوضع وانّما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهنّ من الامر شئ وكان الرجال قوّامين عليهنّ اللهمّ الا فى العبادات التى كل واحد فيها قايم على نفسه فخطابهنّ فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بامر

امّة او جيل الا من غلب عليهم وقلّ ان يكون الامر الشرعىّ مخالفا للامر الوجودىّ والله تعالى اعلم

فصل فى مذاهب الشيعة فى حكم الامامة

اعلم ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلّمين من الخلف والسلف على اتباع على وبنيه رضى الله عنهم ومذهبهم جميعا متّفقين عليه ان الامامة ليست من المصالح العامّة التى تفوض الى نظر الامّة ويتعيّن القايم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز للنبى اغفاله ولا تفويضه الى الامّة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكباير والصغاير وان عليا رضى الله عنه هو الذى عيّنه صلوات الله عليه بنصوص ينقلونها ويولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنّة ولا نقلة الشريعة بل اكثرها موضوع او مطعون فى طريقه وبعيد عن تاويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلىّ وخفىّ فالجلى مثل قوله من كنت مولاه فعلى مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر اصبحت مولى كل مومن ومومنة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم اقضاكم على ولا معنى للامامة الّا القضاء باحكام الله وهو المراد باولى الامر الواجبة طاعتهم من الله

بقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم والمراد الحكم والقضا ولهذا كان حكما فى قضيّة الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو وصى وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على (ومن) الخفىّ عندهم بعث النبى صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة فى الموسم حين انزلت فانه بعث بها اولا ابا بكر ثم اوحى اليه ليبلغه رجل عنكم او من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدلّ على تقديم على وايضا فلم يعرف انه قدّم احدا على على واما ابو بكر وعمر فقد قدّم عليهما فى غزاتين اسامة بن زيد مرّة وعمرو بن العاص اخرى وهذه كلّها عندهم ادلّة شاهدة بتعيين على للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم (ثم) منهم من يرى ان هذه النصوص تدلّ على تعيين على وتشخيصه وكذلك ينتقل منه الى من بعده وهولاء الاماميّة ويتبرّون من الشيخين حين لم يقدّموا عليا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون فى امامتهما ولا نلتفت الى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم (ومنهم) من يقول ان هذه الادلّة انها اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهولاء هم الزيديّة ولا يتبرّون من

الشيخين ولا يغمصون فى امامتهما مع قولهم بان عليا افضل منهما لكنّهم يجوّزون امامة المفضول مع وجود الافضل (ثم اختلفت) هولاء الشيعة فى مساق الخلافة بعد على (فمنهم) من ساقها فى ولد فاطمة بالنصّ عليهم واحدا بعد واحد على ما نذكر بعد وهولاء يسمون الامامية نسبة الى مقالتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهى اصل مذاهبهم (ومنهم) من ساقها الى ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيعة وبشرط ان يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهولاء هم الزيديّة نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين السبط وقد كان يناظر اخاه محمد الباقر على اشتراط الخروج فى الامام فيلزمه الباقر ان لا يكون ابوهما زيد العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرّض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة واخذه اياها عن واصل بن عطا ولما ناظر الاماميّة زيدا فى امامة الشيخين وراوه يقول بامامتهما ولا يتبرّاء منهما رفضوه ولم يجعلوه من الايمّة وبذلك سمّوا رافضة (ومنهم) من ساقها بعد على او ابنيه السبطين على اختلافهم فى ذلك الى اخيهما محمد بن الحنفيّة ثم الى ولده وهم الكيسانيّة نسبة الى كيسان مولاه وبين هذه الطوايف اختلافات تركناها اختصارا (وفيهم) طوايف يسمون

الغلاة تجاوزوا حدود العقل والايمان فى القول بالاهيّة هولاء الايمّة اما على انه بشر اتّصف بصفات الالوهيّة وان الاله حل فى ذاته البشريّة وهو قول بالحلول يوافق مذاهب النصارى فى عيسى عليه الصلاة والسلام ولقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب الى ذلك فيه منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن ابى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنه والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق بمن بلغه مثل ذلك عنه (ومنهم) من يقول ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقل روحه الى امام اخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ (ومن هولاء الغلاة) من يقف عند واحد من الايمّة لا يتجاوزه الى غيره بحسب من تعيّن لذلك عندهم وهولاء الواقفيّة فبعضهم يقول هو حىّ لم يمت الا انه غايب عن اعين الناس ويستشهدون لذلك بقصيّة الخضر قيل مثل ذلك فى على رضى الله عنه وانه فى السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وقالوا مثله فى محمد ابن الحنفيّة وانه فى جبل رضوى من ارض الحجاز قال شاعرهم كثير

الا ان الايمّة من قريش ولاة الحق اربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبرّ وسبط غيّبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الجيش يقدمه الولاء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنى عشرية منهم يزعمون ان الثانى عشر من ايمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع امه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملاء الارض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع فى كتاب الترمذى فى المهدى وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قربوا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجون الامر الى الليلة القابلة وهم على ذلك لهذا العهد (وبعض) هولاء الواقفية يقول ان الامام الذى مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع فى القران الكريم من قصة اهل الكهف والذى مر على قرية وقتيل بنى اسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى امروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت فى طريق المعجزة فلا يصح الاستشهاد بها فى غير موضعها وكان من هولاء السيد الحميرى ومن شعره فى ذلك

اذا ما المرء شاب له قذال ... وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته واودى ... فقم يا صاح نبك على الشباب
فليس بعايد ما فات منه ... الى احد الى يوم الايساب
الى يوم يؤب الناس فيه ... الى دنياهم قبل الحساب
ادين بان ذلك دين حق ... وما انا فى النشور بذى ارتياب
كذاك الله اخبر عن اناس ... حيوا من بعد درس فى التراب

وقد كفانا مؤنة هولاء الغلاة ايمّة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها (فاما الكيسانيّة) فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفيّة الى ابنه ابى هاشم وهولاء الهاشميّة ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى اخيه علّى ثم الى ابنه الحسن بن على واخرون زعموا ان ابا هاشم لما مات بارض الشراة منصرفا من الشام اوصى الى محمد بن على بن عبد الله ابن عباس واوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام واوصى ابراهيم الى اخيه عبد الله بن الحارثيّة الملقب بالسفّاح واوصى هو الى اخيه عبد الله ابى جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت فى ولده بالنّص والعهد واحد بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشميّة القايمين بدولة بنى العباس وكان منهم ابو مسلم وسليمان بن كثير وابو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسيّة وربّما يعتضدون ذلك بان حقّهم فى هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيّا عند الوفاة وهو اولى بالوراثة بعصبيّة العموميّة (1) (واما الزيديّة) فساقوا الامامة على مذاهبهم فيها وانها باختيار ايمّة الحل والعقد لا بالنّص فقالوا بامامة على ثم ابنه الحسن ثم اخيه الحسين ثم ابنه على زين العابدين ثم ثم ابنه زيد بن على وهو صاحب هذا المذهب وخرج

(1) Man C. بعصبه. D. بعصابة العمومة.

بالكوفة داعيا الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيديّة بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد ان اوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكيّة فخرج بالحجاز وتلقّب بالمهدى وجاءت عساكر المنصور فهزم وقتل وعهد بالامر الى اخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن على فزحف اليهم المنصور فى عساكره او قوّاده فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق قد اخبرهم بذلك كله وهى معدودة فى كراماته وذهب اخرون منهم الى ان الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكيّة هو محمد بن القاسم بن على بن على بن عمر وعمر هو اخو زيد بن على فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات فى محبسه وقال اخرون من الزيديّة ان الامام بعد يحيى بن زيد هو اخوه عيسى الذى حضر مع ابراهيم بن عبد الله فى قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة فى عقبه واليه انتسب داعى الزنج كما نذكره فى اخبارهم وقال اخرون من الزيديّة ان الامام بعد محمد بن عبد الله اخوه ادريس الذى فرّ الى المغرب ومات هنالك وقام بامره ابنه ادريس بن ادريس واختطّ مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب الى ان انقرضوا كما نذكر فى

اخبارهم وبقى امر الزيديّة بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعى الذى ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن ابن زيد بن الحسن السبط واخوه محمد بن زيد (ثم) قام بهذه الدعوة فى الديلم الناصر الاطروش منهم واسلموا على يده وهو الحسن ابن على بن الحسن بن على بن عمر وعمر اخو زيد بن على فكانت لبنيه فى طبرستان دولة وتوصل الديلم من سببهم الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداذ كما نذكر فى اخبارهم (واما الامامية) فساقوا الامامة من على الوصىّ الى ابنه الحسن بالوصيّة ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه على زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنى عشريّة لوقوفهم عند الثانى عشر من الايمّة وقولهم بغيبته الى آخر الزمن كما مرّ (واما الاسماعليّة) فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنصّ من ابيه جعفر الصادق وفايدة النصّ عليه عندهم وان كان قد مات قبل ابيه انّما هى بقاء الامامة فى عقبه كقصّة هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو اول الايمّة المستورين لان الامام عندهم قد لا تكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين اقامة

للحجّة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهر واظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبيد الله المهدى الذى ظهر داعيته ابو عبد الله الشيعى فى كتامة وتابعه الناس على دعوته ثم اخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف فى اخبارهم ويسمى هولاء الاسماعيليّة نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون ايضا الباطنيّة نسبة الى قولهم بالامام الباطن اى المستور ويسمون ايضا الملحدة لما فى ضمن مقالاتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها الحسن ابن محمد الصباح فى آخر المماية الخامسة وملك حصونا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها الى ان توزّعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك الططر بالعراق فانقرضت ومقالات هذا الصباح فى دعوته مذكورة فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى (واما الاثنى عشريّة) وربّما خصّوا باسم الاماميّة عند المتاخّرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر لوفاة اخيه الاكبر اسمعيل الامام فى حياة ابيهما جعفر فنصّ على امامة موسى هذا ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المامون ومات قبله فلم يتم له امر ثم ابنه محمد التقى ثم ابنه على الهادى ثم ابنه الحسن

العسكرى ثم ابنه محمد المهدى المنتظر الذى قدّمنا ذكره وفى كل واحد من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير الا ان هذه اشهر مذاهبهم ومن اراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتب الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء

فصل فى انقلاب الخلافة الى الملك

اعلم ان الملك غاية طبيعيّة للعصبيّة ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وان الشرايع والديانات وكل امر يحمل عليه الجمهور فلا بدّ فيه من العصبيّة اذ المطالبة لا تتمّ الا بها كما قدّمناه فالعصبيّة ضروريّة للملّة وبوجودها يتمّ امر الله منها وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الّا فى منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذمّ العصبيّة وندب الى اطراحها وتركها فقال انّ الله اذهب عنكم غبّية الجاهليّة وفخرها بالآباء انتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ووجدناه ايضا قد ذمّ الملك واهله ونعى على اهله احوالهم من الاستمتاع بالخلاف والاسراف فى غير القصد والتنكّب عن صراط الله وانّما حضّ على الالفة فى الدين وحذّر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدنيا واحوالها كلها عند الشارع

مطية للآخرة ومن فقد الهطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه او يذمّه من افعال البشر او يندب الى تركه اهماله بالكلية او اقتلاعه من اصله وتعطيل القوى التى نشأ عليها بالكلية انما قصده تصريفها فى اغراض الحقّ جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقّا وتتّحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امراة يتزوّجها فهجرته الى ما هاجر اليه فلم يذمّ الغضب وهو يقصد نزعه من الانسان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحقّ وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانّما يذمّ الغضب للشيطان وللاغراض الذميمة فاذا كان الغضب فى الله ولله كان ممدوحا وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذمّ الشهوات ايضا ليس المراد ابطالها بالكلّيّة فان من بطلت شهوته كان نقصا فى حقّه وانّما المراد تصريفها فيما ابيح له باشتماله على الهصالح ليكون الانسان عبدا متصرّفا طوع الاوامر الآلهيّة وكذا العصبيّة حيث ذمّها الشرع (1) وقال لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم فانّما مراده حيث تكون العصبيّة على الباطل واحواله كما كانت فى الجاهليه وان (2) يكون لاحد فخر بها او حقّ على احد لان

(1) Man. D. الشارع. (2) *Ibid.* الا.

ذلك مجان من افعال العقلاء وغير نافع فى الآخرة التى هى دار القرار فاما اذا كانت العصبيّة فى الحقّ واقامة امر الله فامر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرايع اذ لا يتمّ قوامها الا بالعصبيّة كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمّه الشارع لم يذمّ منه الغلب بالحقّ وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانّما ذمّه لما فيه من التغلّب بالباطل وتصريف الادميّين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مخلصا فى غلبه للناس انه لله ويحملهم على عبادة الله وجهاد عدوّه لم يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله وسلامه عليه ربّ هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى لما علم من نفسه انه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك (ولما) لقى معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عند قدومه الى الشام فى ابهة الملك وزيّه من العديد والعدّة استنكر ذلك وقال اكسروية يا معاوية قال يا امير المومنين انا فى ثغر تجاه العدوّ وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطيّه لما احتجّ عليه بمقصد من مقاصد الحقّ والدين فلو كان القصد رفض الملك من اصله لم يقنعه هذا الجواب فى تلك الكسرويّة وانتحالها بل كان يحرص على خروجه منها بالجملة وانّما اراد عمر بالكسرويّة ما كان عليه اهل فارس فى ملكهم من ارتكاب

الباطل والبغى وسلوك سبله والغفلة عن الله واجابه معاوية بان القصد بذلك ليس كسرويّة فارس وباطلهم وانّما قصده بها وجه الله تعالى فسكت وهكذا شأن الصحابة فى رفض الملك واحواله ونسيان عوايده حذرا من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف ابا بكر رضى الله عنه على الصلاة اذ هى اهمّ امور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهى حمل الكافة على احكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما انه مظنّة الباطل ونحلة يومئذ لاهل الكفر واعداء الدين فقام بذلك ابو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه وقاتل اهل الردّة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاتبع اثره وقاتل الامم فغلبهم واذن للعرب فى انتزاع ما بايديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى عثمان ثم الى على والكل متبرّؤن من الملك منكبون عن طرقه واكّد ذلك لديهم ما كانوا عليه من عضاضة الاسلام وبداوة العرب فقد كانوا ابعد الامم عن احوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذى يدعوهم الى الزهد فى النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذى الفوه فلم تكن امّة اسغب (1) عيشا من مضر لما كانوا

(1) Man. D. اشعث.

بالحجاز فى ارض غير ذى زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما ياكلون العقارب والخنافس ويفخرون باكل العلهز وهو وبر الابل يموهونه بالحجارة فى الدم ويطبخونه وقريب من هذا حال قريش فى مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبيّة العرب على الدين بما اكرمهم الله به من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى امم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلثين الفا من الذهب او نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا ياخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر رضى الله عنه يرقع ثوبه بالجلد وكان على ما يقول يا صفراء ويا بيضاء غرّى غيرى وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم يعهد للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخيل مفقودة عندهم بالجملة وانما ياكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا اتمّ ما كانت لاحد من اهل العالم (قال) المسعودى فى ايام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومابة الف دينار والف الف درهم وقيمة

ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مايتا الف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة (وبلغ) الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف امة (وكانت) غلّة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ومن ناحية الشراة اكثر من ذلك (وكان) على مربط عبد الرحمن ابن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربع وثمانين الف (وخلف) زيد بن ثابت من الفضّة والذهب ما كان يكسر بالفوس غير ما خلف من الاموال والضياع بماية الف دينار (وبنى) الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية (وكذلك) بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجص والاجرّ والساج (وبنى) سعد بن ابى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها واوسع فضاها وجعل على اعلاها شرفات (وبنى) المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن (وخلف) يعلى بن منبة خمسين الف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلثماية الف درهم انتهى كلام المسعودى فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم فى دينهم اذ هى اموال حلال لانها غنايم وفىء ولم يكن تصرّفهم فيها باسراف انّما كانوا على قصد فى احوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانّما يرجع الى ما

اشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم فى سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طريق الحق واكتساب الدارالآخرة فلما تدرّجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التى هى مقتضى العصبيّة كما قلناه وحصل التغلّب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم الرفه والاستكثار من الاموال فلم يصرفوا ذلك التغلّب فى باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحقّ (ولما) وقعت الفتنة بين على ومعاوية وهى مقتضى العصبيّة كان طريقهم فيها الحقّ والاجتهاد ولم يكونوا فى محاربتهم لغرض دنيوىّ او لايثار باطل او لاستشعار حقد كما يتوهمه متوهم او ينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم فى الحقّ وخالف كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحقّ فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قايما فيها بقصد الباطل وانما قصد الحقّ واخطاء والكل كانوا فى مقاصدهم على حقّ ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستيثار الواحد به ولم يكن لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو امر طبيعىّ ساقته العصبيّة بطبيعتها واستشعرته بنو امية ومن لم يكن على طريقة معاوية فى اقتضاء الحقّ من اتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو قد حملهم معاوية على

غير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالامر لوقع فى افتراق الكلمة التى كان جمعها وتاليفها اهمّ عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة (وقد) كان عمر بن عبد العزيز يقول اذا راى ابا القاسم بن محمد بن ابى بكر لو كان لى من الامر شئ لوليته الخلافة ولو اراد ان يعهد اليه لفعل لكنّه كان يخشى من بنى امية اهل الحل والعقد كما ذكرناه فلا يقدر ان يحول الامر عنهم ليلا تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التى هى مقتضى العصبيّة فالملك اذا حصل وفرضنا ان الواحد انفرد به وصرفه فى مذاهب الحقّ ووجوهه لم يكن فى ذلك نكير عليه وقد انفرد سليمان وابوه داود صلوات الله عليهما بملك بنى اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا ما علمت من النبوة والحقّ وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانوا بنو امية لم يرضوا تسليم الامر لمن سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع ان ظنّهم كان به صالحا ولا يرتاب احد فى ذلك ولا يظنّ بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاش لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم فى الملك مذهب اهل البطالة والبغى انّما كانوا متحرّين

لمقاصد الحقّ جهدهم الا فى ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو اهمّ لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من احوالهم فقد احتجّ مالك فى الموطا بعمل عبد الملك واما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وفضله معروف ثم تدرّج الامر فى ولده عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذى كانوا عليه وتوسّطهم عمر بن عبد العزيز ونزع الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك فى اغراضهم الدنيويّة ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرّى القصد فيها واعتماد الحقّ فى مذاهبها فكان ذلك ممّا دعى الناس الى ان نعوا عليهم افعالهم وادالوا بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرّفوا الملك فى وجوه الحقّ ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده وكان منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر الى بنيهم فاعطوا الملك والترف حقّه وانغمسوا فى الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتاذّن الله بحربهم وانتزع الامر من ايدى العرب جملة وامكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرّة ومن تامّل سير هولاء الخلفاء والملوك واختلافهم فى تحرّى الحقّ من الباطل علم صحّة ما قلناه وقد حكى

المسعودى مثله فى احوال بنى امية عن ابى جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بنى امية (فقال) اما عبد الملك فكان جبارا لا يبالى بما صنع واما سليمان فكان همّه بطنه وفرجه واما عمر فكان اعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو امية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنّمهم معالى الامور ورفضهم ادانيها حتى افضى الامر الى ابنايهم المترفين فكانت همّتهم قصد الشهوات وركوب اللذّات من معاصى الله جهلا باستدراجه وامنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحقّ الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العزّ والبسهم الذلّ ونفى عنهم النعمة (ثم) استحضر عبد الله بن مروان فقصّ عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل ارضه فارّا امام بنى العباس قال اقمت مليا ثم اتانى ملكهم فقعد على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقلت ما منعك عن القعود على ثيابنا قال انى ملك وحقّ لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذا رفعه الله ثم قال لى لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم قلت فعل ذلك عبيدنا واتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابّكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم قلت فعل ذلك عبيدنا واتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب

والحرير وهو محرم عليكم فى كتابكم قلت ذهب منّا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منّا فاطرق نيكث بيده فى الارض ويقول عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا فى ديننا ثم رفع راسه الىّ وقال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرّم الله واتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العزّ والبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وانا خايف ان يحلّ بكم العذاب انتم ببلدى فينالنى معكم وانّما الضيافة ثلاث فتزوّد ما احتجت اليه وارتحل عن ارضى فتعجّب المنصور واطرق فقد تبيّن لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك وان الامر كان فى اوله خلافة ووازع كل احد فيها من نفسه وهو الدين فكانوا يوثرونه على امور دنياهم وان افضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة (فهذا) عثمان لما حصر فى الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وامثالهم يريدون المدافعة عنه فابى ومنع من سلّ السيوف بين المسلمين مخافة للفرقة وحفظا للالفة التى بها حفظ الكلمة ولو ادى الى هلاكه (وهذا) علىّ اشار عليه المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على اعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتّفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من امره وكان ذلك من سياسة الملك فابى فرارا من الغشّ

الذى ينافيه الاسلام وغدى عليه المغيرة من الغداة فقال اشرت عليك بالامس بما اشرت ثم عدت الى نظرى فعلمت انه ليس من الحقّ والنصيحة وان الحقّ فيما رايته انت فقال على لا والله بل اعلم انك نصحتنى بالامس وغششتنى اليوم ولكن منعنى ممّا اشرت به ذايد(1) الحقّ وهكذا كانت احوالهم فى اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رايت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرّى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحقّ ولم يظهر التغيّر الا فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب عصبيّة وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بنى العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت فى اغراضها من القهر والتحكّم فى الشهوات والملاذّ وهذا كما كان الامر لخلف بنى عبد الملك ولمن جاء بعد المعتصم والمتوكل من بنى العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبيّة العرب والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضها ببعض ثم ذهب رسم الخلافة واثرها بذهاب عصبيّة العرب

(1) Man. A. زايد. B. زيد.

وفناء جيلهم وتلاشى احوالهم وبقى الامر ملكا بحتا كما كان الشان فى ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبرّكا والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شئ وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديّين ومغراوة وبنى يفرن ايضا مع خلفاء بنى امية بالاندلس والعبيديّين بالقيروان فقد تبيّن ان الخلافة قد وجدت بدون الملك اولا ثم التبست معانيها واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيّته من عصبية الخلافة والله مقدّر الليل والنهار

فصل فى معنى البيعة

اعلم ان البيعة هى العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد اميره على انه يسلّم له النظر فى امر نفسه وامور المسلمين لا ينزعه فى شئ من ذلك ويطيعه فيما يكلّفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا يدهم فى يده توكيدا للعهد فاشبه ذلك فعل البايع والمشترى فسمّى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدى هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبه وعند الشجرة وحيث ما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه ايمان البيعة لانّ الخلفاء كانوا يستحلفون على

هذا العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك فسمّى هذا الاستيعاب ايمان البيعة وكان الاكراه فيها اغلب ولهذا لما افتى مالك رضى الله عنه بسقوط يمين المكره انكرها الولاة عليه وراوها قادحة فى ايمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضى الله عنه (واما) البيعة المشهورة لهذا العهد فهى تحيّة الملوك الكسرويّة من تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل اطلق عليها اسم البيعة التى هى العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع فى التحيّة والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صار حقيقة عرفيّة استغنى بها عن مصافحة ايدى الناس التى هى الحقيقة فى الاصل لما فى المصافحة لكل احد من التنزّل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكى الا فى الاقلّ ممن يقصد التواضع من الملوك فياخذ به نفسه مع خواصّه ومشاهير اهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة فى العرف فانه اكيد على الانسان معرفته لما يلزمه من حقّ سلطانه وامامه ولا تكون افعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من افعاله مع الملوك والله القوى العزيز

فصل فى ولاية العهد

اعلم انّا قدّمنا الكلام فى الامامة ومشروعيّتها لما فيها من

المصلحة وان حقيقتها النظر فى مصالح الامّة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك فى حياته وتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولّى امورهم كما كان هو يتولّاها ويثقون بنظره لهم فى ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الامّة على جوازه وانعقاده اذا وقع فعهد ابو بكر الى عمر بمحضر الصحابة واجازوه واوجبوا على انفسهم به طاعة عمر رضى الله عنهم اجمعين وكذلك عهد عمر فى الشورى الى الستّة من بقية العشرة وجعل لهم ان يختاروا للمسلمين ففوّض ذلك بعضهم الى بعض حتى افضى الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متّفقين على عثمان وعلى وآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء بالشيخين فى كل ما يعن دون اجتهاده فانعقد امر عثمان لذلك واوجبوا طاعته والملاء من الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره واحد منهم فدل على انهم متّفقون على صحّة هذا العهد عارفون بمشروعيّته والاجماع حجّة كما عرف ولا يتهم الامام فى هذا الامر وان عهد الى ابيه وابنه لانه مأمون على النظر لهم فى حياته فاحرى ان لا يتحمّل فيها تبعة بعد مماته خلافا لمن قال باتهامه فى الولد والوالد ولمن خصّص التهمة فى الولد دون الوالد فانه

بعيد عن الظنّة فى ذلك كله لا سيّما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة او توقّع مفسدة فتنتفى الظنّة عند ذلك راسا كما وقع فى عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجّة فى الباب والذى دعى معاوية الى ايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتّفاق اهوايهم باتّفاق اهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى امية اذ بنو امية يومئذ لا يرضون سواه وهم عصابة قريش واهل الملّة اجمع واهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظنّ انه اولى بها وعدل الى المفضول عن الفاضل حرصا على الاتّفاق واجتماع الاهواء الذى شأنه اهمّ عند الشارع ولا يظنّ بمعاوية غير هذا فعدالته وصحابته مانعة ممّا سوى ذلك وحضور اكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممّن تاخذه فى الحقّ هوادة وليس معاوية ممّن تاخذه العزّة فى قبول الحقّ فانهم كلهم اجلّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر من ذلك محمول على تورّعه عن الدخول فى شئ من الامور مباحا كان او محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق فى المخالفة لهذا العهد الذى اتّفق عليه الجمهور الا ابن الزبير وندور المخالف معروف ثم انه وقع مثل ذلك من

بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرّون الحقّ ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بنى امية والسفّاح والمنصور والمهدى والرشيد من بنى العباس وامثالهم ممّن عرفت عدالتهم وحسن رايهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم ايثار ابنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة فى ذلك فشأنهم غير شأن اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكّلوا كل احد ممن يسمو الى ذلك الى وازعه واما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبيّة قد اشرفت على غايتها من الملك والوازع الدينى قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطانى والعصبانى فلو قد عهد الى غير من ترتضيه العصابة لردّت ذلك العهد وانتقض امره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف سال رجل عليا رضى الله عنه ما بال الناس اختلفوا عليك ولم يختلفوا على ابى بكر وعمر فقال لان ابا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وانا اليوم والٍ على مثلك يشير الى وازع الدين افلا ترى الى المامون لما عهد الى على بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضى كيف انكرت العباسيّة ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمّه ابراهيم بن المهدى وظهر من

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدّد الثوّار والخوارج ما كاد ان يصطلم الامر حتى بادر المامون من خراسان الى بغداذ وردّ امرهم لمعاهده فلا بدّ من اعتبار ذلك فى العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبايل والعصبيّات وتختلف باختلافها المصالح ولكلّ منها حكم يخصّه لطفا من الله بعباده واما ان يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينيّة اذ هو امر من الله يختصّ به من يشاء فينبغى ان تحسن النية فيه ما امكن خوفا من العبث بالمناصب الدينيّة والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده (وعرض) هنا امور تدعو الضرورة الى بيان الحقّ فيها فالاولى منها ما حدث فى يزيد من الفسق ايام خلافته فايّاك ان تظنّ بمعاوية رضى الله عنه انه علم ذلك من يزيد فانه اعدل عن ذلك وافضل بل قد كان يعذله ايام حياته فى سماع الغناء وينهاه عنه وهو اقلّ من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث فى يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة يومئذ فى شأنه فمنهم من راى الخروج عليه ونقض بيعته من اجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومن اتبعهما فى ذلك ومنهم من اباه لما فيه من اثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لان شوكة يزيد يومئذ هى عصبيّة بنى

امية وجمهور اهل الحلّ والعقد من قريش وتستتبع عصبيّة
مضر اجمع فهى اعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم
فاقصروا عن يزيد بسبب ذلك واقاموا على الدعاء بهدايته
او الراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون
ولا نكير على احد من الفريقين فمقاصدهم فى البرّ وتحرّى
الحقّ معروفة وفّقنا الله للاقتداء بهم والثانى هو شأن العهد
من النبى صلى الله عليه وسلم وما يدّعيه الشيعة من وصيّته
لعلىّ رضى الله عنه وهو امر لم يصحّ ولا نقله احد من ايمّة
النقل والذى وقع فى الصحيح من طلب الدواة والقرطاس
لكتب الوصية وان عمر منع من ذلك فدليل واضح على
انه لم يقع وكذا قول عمر رضى الله عنه حين طعن وسئل
فى العهد فقال ان اعهد فقد عهد من هو خير منّى يعنى
ابا بكر وان اترك فقد ترك من هو خير منّى يعنى النبى
صلى الله عليه وسلم والصحابة حاضرون موافقون له على
ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول على
للعباس رضى الله عنهما حين دعاه الى الدخول على النبى
صلى الله عليه وسلم يسالانه عن شأنهما فى العهد فابى
على من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر
الدهر وهذا دليل على ان عليا علم انه لم يوص ولا عهد
لاحد وشبهة الامامية فى ذلك انّما هى كون الامامة من

اركان الايمان كما يزعمون وليس كذلك وانّما هى من المصالح العامّة المفوّضة الى نظر الخلق ولو كانت من اركان الايمان لكان شأنها شأن الصلاة ولكان يستخلف فيها كما استخلف ابا بكر فى الصلاة ولكان يشتهر كما اشتهر امر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة ابى بكر بقياسها على الصلاة فى قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا دليل على ان الوصية به لم تقع ويدلّ ذلك ايضا على ان امر الامامة والعهد بها لم يكن مهمّا كما هو اليوم وشأن العصبيّة المراعاة فى الاجتماع والافتراق فى مجارى العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان امر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تاليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من اجل الاحوال التى كانوا يشاهدونها فى حضور الملائكة لنصرهم وتردّد خبر السماء بينهم وتجدّد خطاب الله فى كل حادثة يتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة العصبيّة لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزّهم من تتابع هذه المعجزات الخارقة والاحوال الالهيه الواقعة والملائكة المتردّدة التى وجموا لها ودهشوا من تتابعها فكان امر الخلافة والملك والعهد والعصبيّه وساير هذه الانواع مندرجا فى ذلك العباب كما وقع فلما انحسر ذلك الهدد بذهاب تلك المعجزات

ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت آثار الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر امر العصبيّة ومجارى العوايد فيما ينشاء عنها من المصالح والمفاسد واصبحت الخلافة والملك والعهد بهما من المهمّات الاكيدة كما زعموه ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبى صلى الله عليه وسلم غير مهمّة فلم يعهد فيها ثم تدرّجت الاهمّيّة ازمان الخلفاء بعض الشىء بما دعت الضرورة اليه فى الحماية (1) والجهاد وشأن الردّة والفتوحات فكانوا بالخيار فى الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه ثم صارت اليوم من اهمّ الامور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبيّة التى هى سرّ الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشاء الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة واحكامها والامر الثالث شأن الحروب الواقعة فى الاسلام بين الصحابة والتابعين واعلم ان اختلافهم انّما يقع فى الامور الدينية وينشاء عن الاجتهاد فى الادلّة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا عن الادلّة فان قلنا ان الحقّ فى المسائل الاجتهاديّة واحد من الطرفين ولم يصادفه فهو مخطئ فان جهته لا تتعيّن باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة

(1) Man. A. et B. الجماعة.

ولا يتعيّن المخطئُ منها والتأثيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حقّ وكل مجتهد مصيب فاحرى بنفى الخطاء والتأثيم وغاية الخلاف الذى بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادى فى مسائل دينيّة ظنّيّة وهذا حكمه والذى وقع من ذلك فى الاسلام انمّا هى واقعة علىّ مع معاوية ومع الزبير وطلحة وعايشة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك (واما واقعة على) فان الناس عند مقتل عثمان كانوا مفترّقين فى الامصار فلم يشهدوا بيعة على والذين شهدوا فمنهم من بايع (1) ومنهم من توقّف حتى يجتمع الناس ويتّفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر واسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وابى سعيد الخدرى وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وامثالهم من اكابر الصحابة والذين كانوا فى الامصار عدلوا عن بيعته ايضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى تكون شورى بين المسلمين فيمن يولونه وظنّوا بعلى هوادة فى السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا فى الممالات (2) عليه فحاش لله ولقد كان معاوية اذا صرّح بملامته انما

(1) Man. A. et B. تابع.

(2) Man. A. المحالاة. B. المهالة.

يوجّهها عليه فى سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فراى على ان بيعته قد انعقدت ولزمت من تاخّر عنها باجماع (1) من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وارجاء الامر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتّفاق الكلمة فيتمكّن حينئذ من ذلك وراى الاخرون ان بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة اهل الحلّ والعقد بالآفاق ولم يحضر الا القليل ولا تكون البيعة الا باتّفاق اهل الحلّ والعقد ولا تلزم لعقد من تولاها من غيرهم او من القليل منهم وان المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون اولا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب الى هذا معاوية وعمرو بن العاص وامّ المومنين عايشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمّد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن جديج ومن كان على رايهم من الصحابة الذين تخلّفوا عن بيعة على بالمدينة كما ذكرنا الا ان اهل العصر الثانى من بعدهم اتّفقوا على انعقاد بيعة على ولزومها للمسلمين اجمعين وتصويب رايه فيما ذهب اليه وتعيين الخطاء فى جهة معاوية ومن كان على رايه وخصوصا طلحة والزبير لانتقاضهما على على بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التأثيم عن كل واحد من الفريقين كالشأن فى المجتهدين

(1) Man. C. et D. باجتماع.

وصار ذلك اجماعا من اهل العصر الثانى على احد قولى اهل العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل على رضى الله عنه عن قتلى الجمل وصفّين فقال والذى نفسى بيده لا يموتن احد من هولاء وقلبه نقى الا ادخله الله الجنّة يشير الى الفريقين نقله الطبرى وغيره فلا يقعن عندك ريب فى عدالة احد منهم ولا قدح بشئ من ذلك فهم من علمت وافعالهم واقوالهم انّما هى عن المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند اهل السنّة الا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم يلتفت اليه احد من اهل الحقّ ولا عرج عليه واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس اجمعين فى الاختلاف فى شأن عثمان واختلاف الصحابة من بعده وعلمت انها كانت فتنة ابتلى بها الامّة بينا المسلمون قد اذهب الله عدوّهم وملكهم ارضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان اكثر العرب قد نزلوا هذه الامصار حفاة لم يستكثروا من صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيره وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم فى الجاهليّة من الجفاء والعصبيّة والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد اصبحوا فى ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستنكفوا

من ذلك وغضّوا به لما يرون لانفسهم من التقدّم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبايل بكر بن وايل وعبد القيس من ربيعة وقبايل كندة والازد من اليمن وقبايل تميم وقيس من مضر وامثالهم فصاروا الى الغضّ من قريش والانفة عليهم والتمريض فى طاعتهم والتعلّل فى ذلك بالتظلّم منهم والاستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السرية والعدول فى القسم عن السويّة (1) وفشت القالة (2) بذلك وانتهت الى اهل المدينة وهم من علمت فاعظموه وابلغوه عثمان فبعث الى الامصار من يكشف الخبر بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة واسامة بن زيد وامثالهم فلم ينكروا على الامراء شيئا ولا راوا عليهم طعنا وادوا ذلك كما علموه فلم ينقطع الطعن من اهل الامصار وما زالت الشناعات تكثر والاشاعات تنمو ورمى الوليد ابن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحدّه عثمان وعزله ثم جاء الى المدينة من اهل الامصار يسألون عزل العمّال وشكوا الى على وعايشة والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمّال فلم ينقطع بذلك السنتهم بل وفد سعيد بن العاص وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردّوه معزولا ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من

(1) Man. A. et B. التسوية.

(2) Man. A. et B. القايلة.

الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه من العزل فابى الا ان يكون عن جرحة ثم نقلوا النكير الى غير ذلك من افعاله وهو متمسّك بالاجتهاد وهم ايضا كذلك ثم تجمّع قوم من الغوغا وجاؤا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم فى ذلك على وعايشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الامور ورجوع عثمان الى رأيهم فيها وعزل لهم عامل مصر وانصرفوا قليلا ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلّس يزعمون انهم لقوه فى يد حامله الى عامل مصر بان يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكّنّا من مروان فهو كاتبك فحلف مروان فقال عثمان ليس فى الحكم اكثر من هذا فحاصروه بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هولاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتّمين بامر الدين ولا يضيعون شيأ من تعلّقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على احوالهم وعالم بهم ونحن لا نظنّ بهم الا خيرا لما شهدت به احوالهم ومقالات الصادق فيهم (واما الحسين) فانه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من اهل عصره ودعت شيعة اهل البيت بالكوفة الحسين ان ياتيهم فيقوموا بامره فراى الحسين ان الخروج على يزيد متعيّن من اجل فسقه

لا سيّما على من له القدرة على ذلك وظنّها من نفسه باهليّته وشوكته فاما الاهليّة فكانت كما ظنّ وزيادة واما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لان عصبيّة مضر كانت فى قريش وعصبيّة قريش فى عبد مناف وعصبيّة عبد مناف انما كانت فى بنى امية تعرف ذلك لهم قريش وساير الناس ولا ينكرونه وانّما نسى ذلك اول الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وامر الوحى وتردّد الملائكة لنصر المسلمين فاغفلوا امور عوايدهم وذهبت عصبيّة الجاهليّة ومنازعها ونسيت ولم يبق الا العصبيّة الطبيعية فى الحماية والدفاع ينتفع بها فى اقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها محكم والعادة معزولة حتى اذا انقطع امر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشئ للعوايد فعادت العصبيّة كما كانت ولمن كانت واصبحت مضر اطوع لبنى امية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل فتبيّن لذلك غلط الحسين الا انه فى امر دنياوىّ لا يضرّه الغلط فيه واما الحكم الشرعى فلم يغلط فيه لانه منوط بظنّه وكان ظنّه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفيّة اخوه وغيرهم فى مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه فى ذلك ولم يرجع عمّا هو بسبيله لما اراده الله (واما) غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد

بالشام والعراق ومن التابعين لهم فراوا ان الخروج على يزيد وان كان فاسقا لا يجوز لما ينشاء عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يبايعوا الحسين ولا انكروا عليه ولا اثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط ان تقول بتأثيم هولاء لمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فانهم اكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وقد كان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقّه ويقول سُلوا جابر بن عبد الله وابا سعيد وانس بن مالك وسهل بن سعد وزيد بن ارقم وامثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرّض لذلك لعلمه انه عن اجتهاد منهم كما كان فعله هو عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط ان تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان كان هو على صواب اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعى والمالكى الحنفى على شرب النبيذ واعلم ان الامر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هولاء وان كان خلافه عن اجتهادهم وانّما انفرد بقتاله يزيد واصحابه ولا تقولن ان يزيد وان كان فاسقا ولم يجز هولاء الخروج عليه فافعاله عندهم نافذة صحيحة واعلم انه انّما ينفذ من افعال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة من شرطه ان يكون مع الامام العادل وهو مفقود فى مسئلتنا فلا

يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هى من فعلاته الموكّدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حقّ واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حقّ ايضا واجتهاد وقد غلط القاضى ابو بكر بن العربى المالكى فى هذا فقال فى كتابه المسمى بالقواصم والعواصم ما معناه ان الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حمله عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل فى قتال اهل الآراء (واما ابن الزبير) فانه راى فى خروجه ما راه الحسين وظنّ كما ظنّ وغلطه فى امر الشوكة اعظم لان بنى اسد لا يقاومون بنى امية فى جاهليّة ولا اسلام والقول بتعيين الخطاء فى جهة مخالفه كما كان فى جهة معاوية مع على لا سبيل اليه لان الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجده هاهنا واما يزيد فعيّن خطاوه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير اعظم الناس عدالة وناهيك فى عدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع ان الكثير من الصحابة كانوا يرون ان بيعة ابن الزبير لم تنعقد لانه لم يحضرها اهل الحلّ والعقد كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحقّ فى الظاهر وان لم يتعيّن فى جهة منهما والقتل الذى نزل به بعد تقرير ما قررناه يجرى على قواعد الفقه

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

وقوانينه مع انه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحرّيه الحقّ هذا هو الذى ينبغى ان يحمل عليه افعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامّة واذا جعلناهم عرضة القدح فمن الذى يختصّ بالعدالة والنبى صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرنى ثم الذى يلونهم مرّتين او ثلاثا ثم يفشوا الكذب فجعل الخيريّة وهو العدالة مختصّة بالعصر الاول والذى يليه فاياك ان تعوّد نفسك او لسانك التعرّض لاحد منهم ولا يوسوس قلبك بالريب فى شئ مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحقّ وطرفه ما استطعت فهم اولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قَتلوا ولا قُتِلوا الا فى سبيل جهاد واظهار حقّ واعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامّة ليقتدى كل احد بمن يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبيّن حكم الله فى خلقه واكوانه

فصل فى الخطط الدينيّة الخلافيّة

لما تبيّن ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرّف فى الامرين اما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعيّة الذى هو مامور بتبليغها وحمل الناس عليها واما سياسة الدنيا فبمقتضى

رعايته مصالحهم فى العمران البشرى وقد قدّمنا ان هذا العمران ضرورى للبشر وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان اهملت وقدّمنا ان الملك وسطوته كافٍ فى حصول هذه المصالح نعم انها تكون اكمل اذا كانت بالاحكام الشرعيّة لانه اعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة اذا كان اسلاميّا ويكون من توابعها وقد ينفرد اذا كان فى غير الملّة وله على كل حال مراتب خادمة ووظايف تابعة تتعيّن خططا وتتوزّع على رجال الدولة وظايف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعيّنه الملك الذى تكون يده عالية عليهم فيتمّ بذلك امره ويحسن قيامه بسلطانه (واما) المنصب الخلافى وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذى ذكرناه فتصرّفه الدينى يختصّ بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميّين (فلنذكر) الخطط الدينيّة المختصّة بالخلافة ونرجع الى الخطط الملوكيّة السلطانيّة فاعلم ان الخطط الدينيّة الشرعيّة من الصلاة والقضاء والفتيا والجهاد والحسبة كلها مندرج تحت الامامة الكبرى التى هى الخلافة وكانها الامّ الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرّعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرّفها فى ساير احوال الملّة الدينيّة والدنيويّة وتنفيذ احكام الشرع فيها على العموم (فاما امامة الصلاة) فهى ارفع هذه الخطط

كلها وارفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة فى شأن ابى بكر رضى الله عنه باستخلافه فى الصلاة على استخلافه فى السياسة فى قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا فلولا ان الصلاة ارفع من السياسة لما صحّ القياس واذا ثبت ذلك فاعلم ان المساجد فى المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدّة للصلوات المشهودة (1) واخرى دونها مختصّة بقوم او محلّة وليست للصلوات العامّة (فاما) المساجد العظيمة فامرها راجع الى الخليفة او الى من يفوّض اليه من سلطان او وزير او قاض فينصب لها الامام فى الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولئلا يفتات (2) الرعايا عليه بشئ من النظر فى المصالح العامّة وقد يقول بالوجوب فى ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا (واما) المساجد المختصّة بقوم او محلّة فامرها راجع الى الجيران ولا يحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان واحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة فى كتب الفقه ومبسوطة فى كتب الاحكام السلطانية للماوردى وغيره فلا

(1) Man. A. et B. المشهورة.

(2) Man. D. يتفاوت.

نطول بذكره (وقد) كان الخلفاء الاولون لا يقلّدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء فى المسجد عند الأيذان بالصلاة وترصدهم بذلك فى اوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وانهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان حال الدولة الاموية من بعدهم استيثارا بها واستعظاما لرتبتها (يحكى) عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابى الا عن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والاذن بالصلاة فانه داعٍ الى الله والبريد فان فى تاخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترقّع عن مساواة الناس فى دينهم ودنياهم استنابوا فى الصلاة وكانوا يستاثرون بها فى الاحيان وفى الصلوات العامّة كالعيدين والجمعة اشادة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بنى العباس والعبيديّين صدر دولتهم (واما الفتيا) فللخليفة تصفّح اهل العلم والتدريس وردّ الفتيا الى من هو اهل لها واعانته على ذلك ومنع من ليس باهل لها وزجره لانها من مصالح المسلمين فى اديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرّض لذلك من ليس له باهل فيضلّ الناس وللمدرّس الانتصاب لتعليم العلم وبثّه والجلوس لذلك فى المساجد فان كانت من المساجد العظام التى للسلطان الولاية عليها والنظر فى ايمّتها كما مرّ

فلا بدّ من استيذانه في ذلك وان كانت من مساجد العامّة فلا يتوقّف ذلك على اذن على انه ينبغى ان يكون لكل احد من المفتيين والمدرّسين زاجر من نفسه يمنعه من التصدّى لما ليس له باهل فيضلّ به المستهدى ويزلّ به المسترشد وفى الاثر اجراؤكم على الفتوى اجراؤكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من اجازة او ردّ (واما القضاء) فهو من الوظايف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعا للتنازع الا انه بالاحكام الشرعيّة المتلقاة من الكتاب والسنّة فكان لذلك من وظايف الخلافة ومندرجا فى عمومها وكان الخلفاء فى صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم ولا يجعلون القضاء فى شىء الى سواهم واول من دفعه الى غيره وفوّض فيه عمر رضى الله عنه فولى ابا الدردا معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى ابا موسى الاشعرى بالكوفة وكتب له فى ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه احكام القضاء وهى مستوفاة فيه (اما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنّة متبعة فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له واس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على

من ادّعى واليمين على من انكر والصلح جايز بين المسلمين الا صلحا احلّ حراما او حرّم حلالا ولا يمنعنك قضاء قضيته امس فراجعته اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحقّ فان الحقّ قديم ومراجعة الحقّ خير من التمادى فى الباطل الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنّة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظايرها واجعل لمن ادّعى حقّا غايبا او بينة امدا ينتهى اليه فان احضر بينة اخذت له بحقّه والا استحللت القضيّة عليه فان ذلك انفى للشكّ واجلى للعمى المسلمون عدول بعضهم فى بعض الا مجلودا فى حدّ او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا (1) فى ولاء او نسب فان الله سبحانه عفى عن الايمان ودراء بالبينات واياك والقلق والضجر والتاقف بالخصوم فان استقرار الحقّ فى مواطن الحقّ يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى كتاب عمر وانّما كانوا يقلّدون القضاء لغيرهم وان كان ممّا يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامّة وكثرة اشغالها من الجهاد والفتوحات وسدّ الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك ممّا يقوم به غيرهم لعظيم العناية به فاستخفوا امر القضاء فى الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به

(1) Man. A. et C. ظنيا. D. ضنينا.

تخفيفا عن انفسهم وكانوا مع ذلك انّها يقلّدونه اهل عصبيّتهم بالنسب او الولاء ولا يقلّدونه لمن بعد عنهم فى ذلك وامّا احكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة فى كتب الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانيّة لان القاضى انّما كان له فى عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك امور اخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقرّ منصب القضاء آخر الامر على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامّة للمسلمين بالنظر فى اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه وفى وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على راى من يراه والنظر فى مصالح الطرقات والابنية وتصفّح الشهود والامناء والنوّاب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلّقات وظيفته وتوابع ولايته (وقد) كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضى النظر فى المظالم وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة يقمع المظالم من الخصمين ويزجر المتعدّى وكان يمضى ما عجز القضاة او غيرهم عن امضايه ويكون نظره فى البينات والتعزير واعتماد الامارات والقراين وتاخير الحكم

الى استجلاء الحقّ وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك اوسع من نظر القاضى وكان الخلفاء الاولون يباشرونها بانفسهم الى ايام المهتدى من بنى العباس وربّما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل على رضى الله عنه مع قاضيه ابى ادريس الخولانى وكما فعله المامون ليحيى ابن اكثم والمعتصم لابن ابى داود وربّما كانوا يجعلون للقاضى قيادة الجهاد فى عساكر الصوايف وكان يحيى ابن اكثم يخرج ايام المامون بالصايفة الى ارض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى امية بالاندلس وكانت تولية هذه الوظايف انّما تكون للخلفاء او من يجعلون ذلك له من وزير مفوّض او سلطان متغلّب (وكان) ايضا النظر فى الجرايم واقامة الحدود مختصّا فى الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعبيدية بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهى وظيفة اخرى دينية كانت من الوظايف الشرعيّة فى تلك الدول يوسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة فى الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرايم ويقيم الحدود الثابتة فى محلّها ويحكم فى القود والقصاص ويقيم التعزير والتاديب فى حقّ من لم ينته الى الجريمة ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين فى الدول

التى تنوسى فيها امر الخلافة فصار امر المظالم راجعا الى السلطان كان له تفويض من الخليفة او لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منهما وظيفة التهم على الجرايم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعيّن ونصب لذلك فى هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعيّة ويسمى تارة باسم الوالى وتارة باسم الشرطة وبقى قسم التعازير واقامة الحدود فى الجرايم الثابتة شرعا فجمع للقاضى مع ما تقدّم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقرّ الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن اهل عصبيّة الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطّة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الا من اهل عصبيّتهم من العرب ومواليهم بالحلف او الرقّ او بالاصطناع ممّن يوثق بكفايته وغنايه فيما يدفع اليه ولما انقرض شأن الخلافة وظهورها وصار الامر كله ملكا وسلطانا صارت هذه الخطط الدينيّة بعيدة عنه بعض الشىء لانها ليست من القاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة عن العرب وصار الملك لسواهم من امم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافيّة بعدا عنهم بمنحاها وعصبيّتها وذلك ان العرب كانوا يرون ان الشريعة دينهم والنبى صلى الله عليه وسلم منهم واحكامه

وشرايعه نحلتهم بين الامم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك انّما يولونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملّة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهّل لها فى دول الخلفاء السالفة وكان اولئك المتاهّلون بما اخذهم ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة فى عوايد ترفهم ودعتهم وقلّة الممانعة عن انفسهم وصارت هذه الخطط فى الدول الملوكيّة من بعد الخلفاء مختصّة بهذا الصنف من المستضعفين فى اهل الامصار ونزل اهلها عن مراتب العزّ لفقد الاهليّة بانسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما يلحق الحضر المنغمسين فى الترف والدعة البعدا عن عصبيّة الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم فى الدولة من اجل قيامها بالملّة واخذها باحكام الشريعة لما انهم الحاملون للاحكام المفتون بها ولم يكن ايثارهم فى الدولة حينئذ اكراما لذواتهم وانما هو لما يتلمّح من التجمّل بمكانهم فى مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعيّة ولم يكن لهم فيها من الحلّ والعقد شئ وان حضروه فحضور رسمى لا حقيقة وراءه اذ حقيقة الحلّ والعقد انّما هو لاهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حلّ ولا عقد لديه اللهمّ اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعم والله

الموفّق (وربّما) يظنّ بعض الناس ان الحقّ فيما وراء ذلك وان فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة عن الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنّه وحكم الملك والسلطان انّما يجرى على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة وطبيعة العمران فى هولاء لا تقتضى لهم بشئ من ذلك لان الشورى والحلّ والعقد انما يكون لصاحب عصبيّة يقتدر بها على حلّ او عقد او فعل او ترك واما من لاعصبيّة له ولا يملك من امر نفسه شيًا ولا من حمايتها وانما هو عيال على غيره فاى مدخل له فى الشورى او اى معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهمّ شوراه فيما يعلمه من الاحكام فموجودة فى الاستفتاء خاصّة واما شوراه فى السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبيّة والقيام على معرفة احوالها واحكامها وانّما اكرامهم من تبرّعات الملوك والامراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد فى الدين وتعظيم من ينتسب اليه باى جهة انتسب واما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء فى الاغلب لهذا العهد وما احتفّ به انّما حملوا الشريعة اقوالا فى كيفية الاعمال فى العبادات وكيفية القضاء فى المعاملات ينصّونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية اكابرهم ولا يتّصفون

الا بالاقلّ منها وفى بعض الاحوال والسلف رضي الله عنهم واهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة انصافا بهـا وتحقيقا (1) بمذاهبها فمن حملها اتّصافا وتحقيقا (2) دون نقل فهو من الوارثين مثل اهل رسالة القشيرى ومن اجتمع له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والايّمة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الامّة باحد الامرين فالعابد احقّ بالوراثة من الفقيه الذى ليس بعابد لانّ العابد ورث صفة والفقيه الذى ليس بعابد لم يرث شيًا انما هو صاحب اقوال ينصّها علينا فى كيفيّات العمل وهولاء اكثر فقهاء عصرنا الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم (العدالة) وهى وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن موارد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحمّلا عند الاشهاد واداء عند التنازع وكتابا فى السجلّات يحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وساير معاملاتهم وانّما قلنا عن اذن القاضى لان الناس قد اختلطوا وخفى التعديل والجرح الا على القاضى فكانه انما ياذن لمن ثبت عنده عدالته ليحفظ على الناس امورهم ومعاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتّصاف بالعدالة الشرعيّة والبراءة من

(1) Man. C. تحقّقا. (2) Man. تحقّقا.

الجرح ثم القيام بكتاب السجلّات والعقود من جهة رعايتها وانتظام فصولها ومن جهة الاحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلّق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له اختصّ ذلك ببعض العدول وصار الصنف القايمون به كأنّهم مختصّون بالعدالة وليس كذلك وانّما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضى تصفّح احوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وان لا يهمل ذلك لما يتعيّن عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه فى ذلك كله وهو ضامن دركه واذا تعيّن هولاء لهذه الوظيفة عمّت الفايدة بهم فى تعديل من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتّساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبيّنات الموثوقة فيعوّلون غالبا فى الوثوق بها على هذا الصنف ولهم فى ساير الامصار دكاكين ومصاطب يختصّون بالجلوس فيها ليتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التى يتبيّن مدلولها وبين العدالة الشرعيّة التى هى اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله سبحانه اعلم (الحسبة والسكّة) اما الحسبة فهى وظيفة دينيّة من باب

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القايم بامور المسلمين يعيّن لذلك من يراه اهلا له فيتعيّن فرضه عليه ويتّخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزّر ويؤدّب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامّة فى المدينة مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ومنع الحمّالين واهل السفن من الاكثار فى الحمل والحكم على اهل المبانى المتعيّنة للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقّع من ضررها على السابلة والضرب على ايدى المعلّمين بالمكاتب وغيرها فى الابلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلّمين ولا يتوقّف حكمه على تنازع او استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له ايضا الحكم فى الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلّق بالغشّ والتدليس فى المعايش وغيرها وفى المكاييل والموازين وله ايضا حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة ولا نفاذ حكم وكانّها احكام ينزّه عنها القضاء لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت فى كثير من الدول الاسلاميّة مثل العبيديّين بمصر والمغرب والامويّين بالاندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار

نظره عاما فى امور السياسة فاندرجت فى وظايف الملك وانفردت بالولاية (واما السكّة) فهى النظر فى النقود المتعامل بها بين المسلمين وحفظها مما يداخلها من الغشّ او النقص ان كانت يتعامل بها عددا وما يتعلّق بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم فى وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص ترسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتّخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصّة به فتوضع على الدينار او الدرهم بعد ان يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترتسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص فى متعارف اهل القطر(1) ومذهب الدولة الحاكمة فان السبك والتخليص فى النقود لا يقف عند غاية وانّما ترجع غايته الى الاجتهاد فاذا اتّفق اهل افق او قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموه اماما وعيارا يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر فى ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهى دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة ولقد كانت تدخل فى عموم ولاية القضاء ثم انفردت لهذا العهد بالولاية كما وقع فى الحسبة (هذا) آخر الكلام فى الوظايف الخلافيّة وبقيت منها وظايف

(1) Man. A. et B. النظر.

ذهبت بذهاب ما ينظر فيه واخرى صارت سلطانيّة فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانيّة نتكلّم عليها فى مكانها بعد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا فى قليل من الدول يمارسونه ويدرجون احكامه فى غالب السلطانيات وكذا نقابة الانساب التى يتوصّل بها الى الخلافة او الحقّ فى بيت المال وقد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة فقد اندرجت (1) رسوم الخلافة ووظايفها فى رسوم الملك والسياسة فى ساير الدول لهذا العهد والله مصرّف الامور بحكمه

فصل فى اللقب بامير المومنين وانه من سمات الخلافة

وهو محدث منذ عهد الخلفاء وذلك انه لما بويع ابو بكر رضى الله عنه كان الصحابة وساير المسلمين يسمّونه خليفة رسول الله ولم يزل الامر على ذلك الى ان هلك فلما بويع لعمر رضى الله عنه بعهده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله وكانّهم استثقلوا هذا اللقب لطوله وكثرة اضافاته وانه يتزيّد فيما بعد دايما الى ان ينتهى الى الهجنة ويذهب منه التمييز بتعدّد المضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى سواه مما يناسبه ويدعى

(1) Man. A. et B. اندرست.

به مثله وكانوا يسمون قوّاد البعوث باسم الامير وهو فعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبى صلى الله عليه وسلم امير مكة وامير الحجاز وكان الصحابة ايضا يدعون سعد ابن ابى وقاص امير المسلمين لامارته على جيش القادسية وهو معظم المسلمين يومئذ واتّفق ان بعض الصحابة نادى عمر رضى الله عنه باسم امير المومنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال اول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول اين امير المومنين وسمعها اصحابه فاستحسنوه وقالوا اصبت والله اسمه انه امير المومنين حقّا فدعوه به وذهب لقبا له فى الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها احد سواهم ساير دولة بنى امية (ثم) ان الشيعة خصّوا عليّا رضى الله عنه باسم الامام نعتا له بالامامة التى هى اخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم فى انه احقّ بامامة الصلاة من ابى بكر كما هو مذهبهم وبدعتهم فخصّوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكان كلهم يسمى بالامام ما داموا يدعون لهم فى الخفاء حتى اذا يستولون على الدولة يحوّلون اللقب فيمن بعده الى امير المومنين كما فعله شيعة بنى العباس فانهم ما زالوا

يدعون ايمّتهم بالامام الى ابراهيم الذى جهروا بالدعا له وعقدوا الرايات للحرب على امره فلما هلك دعى اخوه السفّاح باميرالمومنين وكذا الرافضة بافريقية ما زالوا يدعون الايمّة من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر لعبيد الله المهدى وكانوا ايضا يدعونه بالامام ولابنه ابى القسم من بعده فلما استوثق لهما الامر دعوا من بعدهما اميرالمومنين وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يدعون ادريس بالامام وابنه ادريس الاصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب باميرالمومنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق المواطن التى هى ديار العرب ومراكز الدولة واصل الملّة والفتح وازداد لذلك فى عنفوان الدولة وبذخها لقب اخر للخلفاء يتميّز به بعضهم عن بعض لها فى اميرالمومنين من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لاسمائهم الاعلام عن امتهانها فى السنة السوقة وصونا لها عن الابتذال فتلقّبوا بالسفّاح والمنصور والهادى والمهدى والرشيد الى آخر الدولة واقتفى اثرهم فى ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجافى بنو امية عن ذلك اما بالمشرق قبلهم فجريا مع الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارق حينئذ ولم يتحوّل عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة واما بالاندلس فتقليدا لسلفهم مع ما عملوه من انفسهم من

القصور عن ذلك بالقصور عن الخلافة التى استاثر بها بنو العباس ثم بالعجز عن ملك الحجاز اصل العرب والملّة والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبيّة وانهم انّما منعوا بامارة القاصية انفسهم من مهالك بنى العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الآخر منهم وهو الناصر بن الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالى وعيثهم فى الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمّى بامير المومنين وتلقّب بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة ومذهبا لقن عنه ولم يكن لابائه وسلف قومه واستمرّ الحال على ذلك الى ان انقرضت عصبيّة العرب اجمع وذهب رسم الخلافة وتغلّب الموالى من العجم على بنى العباس والصنايع على العبيديّين بالقاهرة وصنهاجة على امر افريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوايف بالاندلس على امر بنى امية واقتسموه وافترق امر الاسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق فى الاختصاص بالالقاب بعد ان تسموا جميعا باسم السلطان فاما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاءَ يخصّونهم بالقاب تشريفيّة يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد

الدولة وركن الدولة ومعزّ الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الملك وذخيرة الملك وامثال هذه وكان العبيديّون ايضا يخصّون بها امراء صنهاجة فلما استبدّوا على الخلفاء قنعوا بهذه الالقاب وتجافوا عن القاب الخلافة ادبا معها وعدولا عن سماتها المختصّة بها شأن المتغلّبين المستبدّين كما قلناه قبل ونزع المتاخّرون من اعاجم المشرق حتى قوى استبدادهم على الملك وعلا كعبهم فى الدولة والسلطان وتلاشت عصبيّة الخلافة واضمحلّت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصّة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة الى القاب كانوا يختصّون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما اضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين اسد الدين نور الدين (واما ملوك الطوايف بالاندلس) فاقتسموا القاب الخلافة وتوزّعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيّتها فتلقّبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفّر وامثالها كما قال ابن شرف ينعى عليهم ذلك

مما يزهدنى فى ارض اندلس ... اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها ... كالهرّ يحكى انتفاخا صورة الاسد

وقد مرّ ذكرها (واما صنهاجة) فاقتصروا على الالقاب التى كان خلفاء العبيديّين يلقبونهم بها للتنويه مثل نصير الدولة

وسيف الدولة ومعزّ الدولة واتّصل لهم ذلك لما ادالوا من دعوة العبيديّين بدعوة العباسيّين ثم بعد الشقّة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيًا من هذه الالقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة (ولما) محى اسم الخلافة وتعطّل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من اهل الخير والاقتداء نزعت همّته الى الدخول فى طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسى واوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربى وابنه القاضى ابا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخليفة له على المغرب واستشعار زيّهم فى لبوسه ورايته وخاطبه فيه بامير المسلمين تشريفا له واختصاصا فاتّخذها لقبا ويقال انه كان دعى له بامير المسلمين من قبل ادبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنّة (وجاء المهدى) على اثرهم داعيا الى الحقّ اخذا بمذاهب الاشعرية ناعيا على اهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف فى ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤل اليه ذلك كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى اتباعه

الموحّدين تعريضا بذلك النكير وكان يرى راى اهل البيت فى الامام المعصوم وانه لا بدّ منه فى كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام اوّلا لما قلناه من مذهب الشيعة فى القاب خلفائهم واردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه فى عصمة الامام وتنزّه عنده اتباعه عن امير المومنين اخذا بمذاهب المتقدّمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الاغمار والولدان من اعقاب اهل الخلافة يومئذ بالمشرق والمغرب ثم انتحل عبد المومن ولى عهده اللقب بامير المومنين وجرى عليه من بعده خلفاء بنى عبد المومن وآل ابى حفص بافريقية من بعدهم استيثارا به عن سواهم لما دعى اليه شيخهم المهدى من ذلك وانه صاحب الامر واولياوه من بعده كذلك دون كل احد لانتفاء عصبيّة قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم (ولما) انتقض الامر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب اوّلوهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة فى انتحال اللقب بامير المسلمين ادبا مع رتبة الخلافة التى كانوا على طاعتها لبنى عبد المومن اولا ولبنى ابى حفص من بعدهم ثم نزع المتاخّرون منهم الى اللقب بامير المومنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا فى منازع الملك وتتميما لمذاهبه وسماته والله غالب على امره

فصل فى شرح اسم البابا والبطرك فى الملّة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

اعلم ان الملّة لا بدّ من قايم بها عند غيبة النبى يحملهم على احكامها وشرايعها ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاءهم به من التكاليف والنوع الانسانى ايضا بما تقدّم من ضرورة السياسة فيه للاجتماع البشرى لا بدّ لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملّة الاسلاميّة لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا وكرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجّه الشوكة من القايمين بها اليهما معا (واما) ما سوى الملّة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامّة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا فى المدافعة فقط فصار القايم بامر الدين فيها لا يعنيه شئ من سياسة الملك وانّما وقع الملك لمن وقع منهم بالغرض ولامر غير دينى وهو ما اقتضته لهم العصبيّة بما فيها من الطلب للملك بالطبع كما قدّمناه لا لانهم مكلّفون بالتغلّب على الامم كما فى الملّة الاسلامية وانّما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصّتهم ولذلك بقى بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو اربعماية سنة لا يعتنون بشئ من امر الملك انّما همهم اقامة دينهم فقط وكان القايم به

بينهم يسمى الكوهن كانه خليفة لموسى صلوات الله عليه يقيم لم امر الصلوات والقربان ويشترطون فيه ان يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لان ذلك كان له ولبنيه بالوحى ثم اختاروا لاقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتولون احكامهم العامّة والكوهن اعظم رتبة منهم فى الدين وابعد عن شغب الاحكام واتّصل فيهم ذلك الى ان استحكمت طبيعة العصبيّة وتمحّضت الشوكة فغلبوا الكنعانيين على الارض التى اورثهم الله ببيت المقدس وما جاورها كما بيّن لهم على لسان موسى صلوات الله وسلامه عليه فحاربتهم امم الفلسطين والكنعانيين والارمن (1) واذوم وعمون ومواب ورياستهم فى ذلك راجعة الى شيوخهم واقاموا على ذلك نحو اربعماية سنة ولم يكن لهم صولة الملك وضجر بنو اسرائيل من مغالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل من انبيائهم ان ياذن الله لهم فى تمليك رجل عليهم فملك عليهم طالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك فلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتدّ الى الحجاز ثم الى اطراف اليمن ثم الى اطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد

(1) Man. B. الارم.

سليمان عليه السلام بمقتضى العصبيّة فى الدول كما قدّمناه الى دولتين كانت احداهما بنواحى نابلس للاسباط العشرة وكرسى ملكهم صبصطية وقد خربت من لدن بخت نصر والاخرى بالقدس لبنى يهوذا وبنى يامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بايديهم من الملك اولا الاسباط العشرة فى صبصطية ثم ثانيا بنى يهوذا ببيت المقدس بعد اتّصال ملكهم نحو الف سنة وخرب مسجدهم واحرق توراتهم وامات دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى ان ردّهم بعض ملوك الكينية من الفرس الى بيت المقدس بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد واقاموا امر دينهم على الرسم للكهنونية (1) فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود فى ملكتهم ثم فشل امر اليونانيين فاعتزّ اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنونية (2) الذين كانوا فيهم من بنى حشمناى وقاتلوا يونان حتى انقرض امرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت امرهم ثم زحفوا الى بيت المقدس وبها بنو هيردوس اصهار بنى حشمناى وبقية دولتهم فحاصروهم مدّة ثم افتتحوها عنوة وافحشوا فى القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس

(1) Man. C. et D. الكهنة

(2) Man. C. et D. الكهنة.

واجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثانى للمسجد ويسميه اليهود الجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبيّة منهم وبقوا بعد ذلك فى ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم امر دينهم الرئيس المسمى بالكوهن (وكان المسيح) صلوات الله وسلامه عليه لما جاءهم بما جاء به من الدين والنسخ لبعض احكام التوراة وظهرت على يده الخوارق العجيبة من ابراء المعتوه واحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به واكثرهم الحواريّون اصحابه وكانوا اثنى عشر وبعث منهم رسلا الى الآفاق داعين الى ملّته وذلك ايّام اوغشطش اول ملوك القياصرة وفى مدّة هيردوس ملك اليهود التى انتزع الملك من بنى حشمناى اصهاره فحسده اليهود وكذّبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة اوغشطش يغريه به فاذن لهم فى قتله ووقع ما تلاه القران من امره وافترق الحواريّون شيعا ودخل اكثرهم الى بلاد الروم داعين الى دين النصرانيّة (وكان) بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة (ثم) كتبوا الانجيل الذى انزل على عيسى صلوات الله عليه فى نسخ اربع على اختلاف رواياتهم فكتب متا انجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منهم الى اللسان اللطينى وكتب لوقا منهم انجيله باللطينى لبعض اكابر الروم وكتب

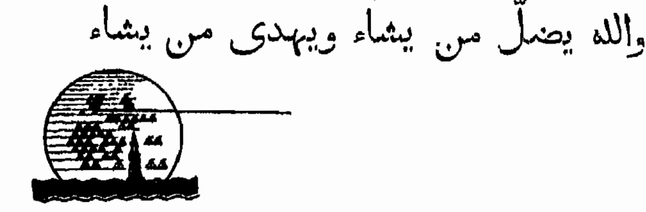
يوحنا بن زبدى انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطينى ونسبه الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من الانجيل مع انها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريّين وغالبها مواعظ وقصص والاحكام فيها قليلة جدّا (واجتمع) الحواريّون الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملّة النصرانيّة وصيّروها بيد اقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهى خمسة اسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا واسفار الملوك اربعة وسفر بريا يوميين وكتاب المقابيين لابن كريون ثلثة وكتاب عزر الامام وكتاب اوشير وقصّة هامان وكتاب ايوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتاب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يوشع بن شارخ وزير سليمان عليه السلام ومن شريعة عيسى عليه السلام المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة وكتاب بولس اربع عشرة رسالة وكتاب القتاليقون سبع رسايل وثامنها الابركسيس فى قصص الرسل وكتاب اقليمنطس وفيه الاحكام وكتاب ابوغالبسيس (1) وفيه رويا يوحنا بن زبدى

(1) Man. A. B. C. انوغالمسيس.

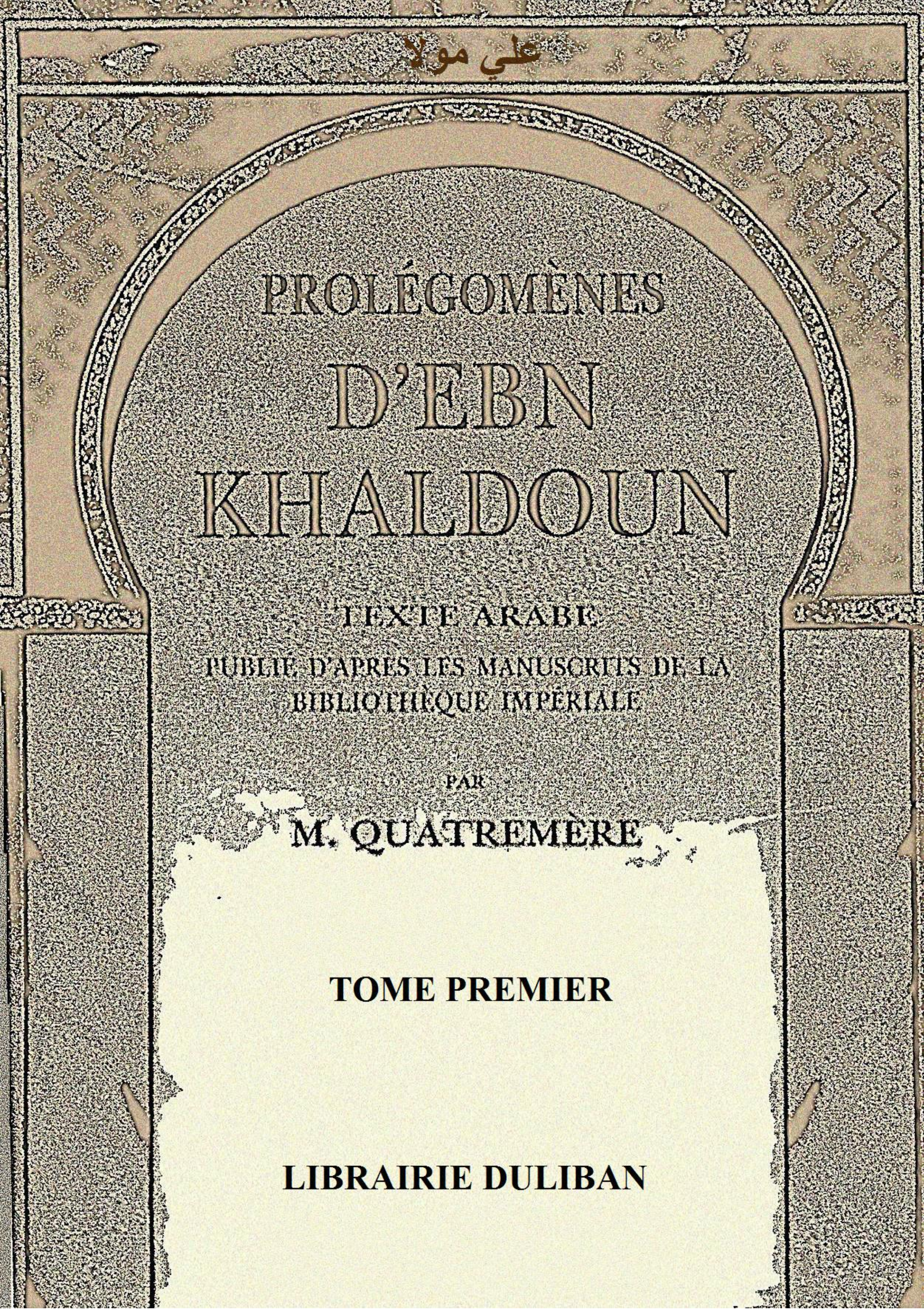
(واختلف) شأن القياصرة فى الاخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم اهلها ثم تركها اخرى والتسلّط عليهم بالقتل والنفى الى ان جاء قسطنطين واخذ بها فاستمرّوا عليها (وكان) صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملّة عندهم وخليفة المسيح فيهم ويبعث نوّابه وخلفاءه الى ما بعد عنه من امم النصرانية ويسمونه الاسقف اى نايب البطرك ويسمون الامام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم فى الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه فى الخلوة للعبادة بالراهب واكثر خلواتهم فى الصوامع (وكان) بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية الى ان قتله نيرون خامس القياصرة ثم قام بخلافته فى كرسى رومة اربوس (وكان) مرقاس الانجيلى بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو اول البطاركة فيها وجعل معه اثنى عشر قسّا على انه اذا مات البطرك يكون واحد من الاثنى عشر مكانه ويختار من المومنين واحدا مكان ذلك الثانى عشر فكان امر البطاركة الى القسوس (ثم) لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقايده واجتمعوا بنيقية ايام قسطنطين لتحرير الحقّ فى الدين واتّفق ثلثماية وثمانية عشر من اساقفتهم على راى واحد فى الدين فكتبوه وسموه

الامانة وجعلوه اصلا يرجعون اليه وكان فيما كتبوه ان البطرك القايم بالدين لا يرجع فى تعيينه الى اجتهاد الاقسّة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وابطل ذلك الراى وانّما يقدم عن ملاء واختيار من ايمّة المومنين وروسائهم فبقى الامر ثم اختلفوا بعد ذلك فى قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره ولم يختلفوا فى هذه القاعدة فبقى الامر فيها على ذلك واتّصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكان الاساقفة يدعون البطرك بالاب تعظيما له فصار الاقسّة يدعون الاسقف فيما ناب عن البطرك بالاب ايضا تعظيما له فاشتبه الاسم فى اعصار متطاولة يقال اخرها بطركية هرقل باسكندرية فارادوا ان يميزوا البطرك عن الاسقف فى التعظيم فدعوه البابا ومعناه ابو الآباء وظهر هذا الاسم اول ظهوره بمصر على ما زعم جرجس بن العميد فى تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسى الاعظم عندهم وهو كرسى رومة لانه كرسى بطرس الرسول كما قدّمناه فلم يزل سمة عليه الى الآن (ثم) اختلف النصارى فى دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه فى المسيح وصاروا طوايف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال فى العصور فى ظهور فرقة دون فرقة الى ان استقرّت لهم ثلاث طوايف هى فرقهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر ان نسخّم اوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهى على الجهلة معروفة وكلها

كفر كما صرح به القران الكريم ولم يبق بيننا وبينهم فى ذلك جدال ولا استدلال انّما هو الاسلام او الجزية او القتل (ثم) اختصّت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على راى الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قايم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على راى اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم اساقفة ينوبون عنه فى اقامة دينهم هنالك واختصّ اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من اسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشدّدة من مذاهب البابا عند الافرنجة انه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون اليه فى اختلافهم واجتماعهم تحرّجا من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبيّة التى لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرظور وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين ويباشره بوضع التاج على راسه للتبرك فيسمى المتوّج ولعله معنى لفظة الانبرظور هذا ملخص ما اوردناه من شرح هذين الاسمين اللذان هما البابا والكوهن والله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء







علي مولا
PROLÉGOMÈNES
D'EBN
KHALDOUN
TEXTE ARABE
PUBLIÉ D'APRÈS LES MANUSCRITS DE LA
BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE
PAR
M. QUATREMÈRE
TOME PREMIER
LIBRAIRIE DULIBAN